عفيف الاخضر

التطرف، الارهاب، العقل و الحداثة، العلمانية، التعليم...



http://www.yassar.freesurf.fr
yassarweb@gmail.com

عفيف الاخضر

التطرف، الارهاب، العقل و الحداثة، العلمانية، التعليم...

1 - استئصال الفقر يساعد على استئصال التطرف الديني (5)
2 - الأصولية والفاشية استبطنتا المرأة كأم وربة منزل فقط (8)
3 - العمليات الإنتحارية مجازفة بمستقبل الشعب الفلسطيني (15)
4 - ما العمل بعد الزلزال ؟ (18)
5 - المثقفون والعمليات الانتحارية : هذيان جماعي ! (21)
6 - كيف نجفف ينابيع الإرهاب ؟ (24)
7 - تجفيف ينابيع ثقافة الجهاد والاستشهاد (30)
8 - الإسلاميون والمثقفون: مشروع اضطهاد (34)
9 - راشد الغنوشي وأفكاره الثابتة (37)
10 - لماذا نحن جبناء فكرياً وسياسيا ؟ (41)
11 - متى سنقيم الحداد على ما فات ومات ؟ (44)
12 - كيف تضافر جرحنا النرجسي ونرجسيتنا الدينية على تدمير مستقبلنا ؟ (48)
13 - عبادة الأسلاف أقامت سدا لدخول العقل إلى أرض الاسلام (52)
14 - العقل كلي أم جزئي، كوني أم قومي ؟ رد على الجابري وحماقة "العقل العربي" (56)
15 - الجابري يكتب عن العقل ولايكتب به (63)
16 - مراهنة على ضبط تلاقح الثقافات والحضارات (67)
17 - لماذا يرفع سيزيف العربي الحجر الثقيل ليقع على قدميه؟ (73)
18 - الديمقراطية تقتضي الفصل بين المواطن والمؤمن (76)
19 - لماذا النرجسية الدينية عائق ذهني لاندماجنا في الحداثة ؟ (79)
20 - العلمانية الفرنسية ليست ضد الدين (83)
21 - عوائق توطين الديمقراطية في المجتمعات العربية (86)
22 - هل تقليد العدو هو السبيل إلى الحداثة ؟ (90)
23 - العلمانية هي مفتاح المواطنة الكاملة بين الرجل والمرأة والمسلم وغير المسلم (93)
24 - المساواة في الإرث ضرورية وممكنة (107)
25 - في سبيل تعليم ديني تنويري (112)
26 - رهانات التعليم الديني التنويري (119)
27 - اصلاح التعليم الديني أولوية ماسّة (131)
28 - كيف ننتقل من المدرسة السلفية إلى المدرسة العقلانية ؟ (134)
29 - التعليم الديني اللاعقلاني عائق لدخول الحداثة (153)
30 - غياب الفكر النقدي من التعليم العلمي يعطي الإرهاب (158)

http://www.yassar.freesurf.fr
yassarweb@gmail.com

استئصال الفقر يساعد على استئصال التطرف الديني

"لو كان الفقر رجلاً لقتلته" عمر بن الخطاب

خلال مؤتمر القاهرة الثقافي في يوليو الماضي سألني صحفي عن أنجع الوسائل للتصدي للتطرف الديني أجبته: تحديد النسل وإصلاح التعليم الديني والقضاء على الفقر. شعرت وكأن إجابتي أصابته بالإحباط لأنها لم تكن من بين الإجابات التي كان يتوقعها . ومع ذلك وبعد إعادة التفكير في إجابتي وجدت أنها الإجابة الواقعية التي تدعمها التجربة التونسية غير المسبوقة في هذا المجال. فلولا تنظيم النسل لكان عدد التونسيين 25 مليون نسمة بدلاً من الـ 10 ملايين الآن، ولولا إصلاح التعليم سنة 1990 لكانت المدرسة التونسية، مثل المدرسة في معظم البلدان العربية، مفرخة لتفريخ التعصب الديني والإرهاب، ولولا الصندوق القومي للتضامن[26-26] الذي بادر إليه سنة 1993 الرئيس بن علي للقضاء على ما تحت الفقر الذي كان يكابده في بداية التسعينات 13% من التونسيين أي حوالي مليون نسمة . وفي بداية 2001 انخفضت نسبة من يعيشون تحت عتبة الفقر إلى 4% والمتوقع هو أن تصبح هذه النسبة في أفق سنة 2005 صفراً أساساً بفضل صندوق [26-26] كما يسميه المواطن التونسي.

وظيفة صندوق [26-26] هي دمج الشباب التونسي في مجتمعه.من أهم سمات المجتمع الديناميكي قدرته على دمج شبابه فيه عبر العمل المأجور. هذا الدمج هو الوحيد الذي يعطي الشباب الشعور العميق بالانتماء إلى مجتمعهم. هذا الانتماء مشروط بشعور المواطن خاصة الشباب بامتلاكه لحقوق المواطنة التي في طليعتها الحق في مستقبل أي في عمل وسكن وأسرة. في غياب هذا العقد الاجتماعي المعاصر يفقد الشباب الشعور العميق بالانتماء إلى مجتمعه بل ويغدوا ميالاً إلى أخذ الثأر منه بالانتماء إلى أكثر التنظيمات عنفاً وعدمية كالتنظيمات الإسلاموية. وقديماً قال الشاعر: أنا لا أذود الطير عن شجر / قد بلوت المر من ثمره.

الحركات الدينية المتطرفة تستغل ضعف الشعور بالانتماء لدي الشباب الأكثر فقراً وبؤساً عاطفياً وحرماناً جنسياً لاستدراجهم إلى مشروعها الانتحاري الذي يلاقي في أنفسهم هوي. وقد أكدت اليومية "الأحداث المغربية" أن جميع انتحاري الدار البيضاء جاءوا من مدن الصفيح.

استراتيجيا حركات التطرف الديني هي ملؤ فراغ الانتماء . كيف؟ بتقديمها لليائسين من المستقبل بديلاً عن الانتماء إلى أمتهم القومية التي عجزت عن دمجهم فيها الانتماء إلى

"الأمة الإسلامية" وتزين لهم التضحية من أجل هذه "الأمة" التي يسمع بها الجميع ولا يراها أحد، مقدمة لهم شيك بدون رصيد على الجنة إذا نحروا وانتحروا في سبيلها.

ستطاعت الحركات الدينية المتطرفة بالمساعدات النقدية والعينية التي تقدمها لمن يعيشون تحت حد الفقر وهم أكثر من نصف سكان العالم العربي، أن تكسب دعمهم. فقد حلت محل دولة الرعاية الغائبة في المجتمعات العربية كسبت الأصولية الشيعية في إيران بالزكاة التي كان يدفعها المؤمنون للملالي تعاطف سكان جنوب طهران الذين حملوها على أعناقهم إلى السلطة لكنها عندما استولت على السلطة قفزت نسبة من يعيشون تحت حد الفقر من 19 إلى 65% وهرّب الملالي خلال سنوات الحرب الإيرانية 70 مليار دولار إلى الخارج. بدورها استطاعت الجبهة الإسلامية للإنقاذ كسب انتخابات البلدية والتشريعية بفضل المساعدات الكثيفة التي قدمتها لفقراء الجزائر من مليارات البترودولار التي أغدقها بعض حكام الخليج عليها، لم يشذ الإخوان المسلمون في مصر عن هذه القاعدة فهم اليوم أكثر شعبية من جميع الأحزاب الديمقراطية مجتمعة بسبب الانفجار السكاني والإعلام والتعليم خاصة الدينيين والفقر الكاسح وفتات المساعدات التي تقدمها هذه الجماعة إلى الفقراء كبديل عن الدولة وجمعيات المجتمع المدني الإنسانية.

ولا الصندوق القومي للتضامن في تونس لاستطاعت حركة النهضة الدينية المتطرفة أن تكسب الفقراء إلى صفها لتهدم بهم المجتمع التونسي كما هدمت الخمينية المجتمع الإيراني والجبهة الإسلامية للإنقاذ المجتمع الجزائري.

فقد نجحت خطة صندوق التضامن [1993-2000] في القضاء على "مناطق الظل" أي المساكن التي لا تليق بالكرامة البشرية والتي كانت تغطي 1950 "منطقة ظل" يعيش فيها 181 ألف عائلة معدمة. تلقت الخطة 500 مليون دينار تبرع بها المواطنون بمن فيهم أكثرهم فقراً حتى كان الواحد منهم يدفع ديناراً واحداً تعبيراً رمزياً عن تضامنه مع مشروع القضاء على الفقر.استهدفت الخطة تثبيت السكان في أراضيهم لإيقاف مد النزوح الريفي بتوفير موارد الرزق وتحسين شروط حياة السكان. أما الخطة الرباعية [2001-2004] فهدفها هو القضاء على المساكن البدائية وتعويضها بمساكن تليق بالإنسان في بداية الألفية الثالثة وتوفير الطرقات والماء الشروب ..إلخ.

نجاعة تجربة الصندوق القومي للتضامن في تونس أهلته ليصبح نموذجاً عالمياً فقد تبنته الأمم المتحدة في شكل صندوق التضامن الدولي للقضاء جنباً إلى جنب مع الصناديق المماثلة على ظاهرة الفقر التي يكابدها أكثر من نصف ساكنة الأرض.

حبذا لو أن جميع الدول العربية تتبنى تجربة التضامن التونسية لتحارب بها الفقر وما تحت الفقر في بلدانها التي باتت فريسة سائغة للتطرف الديني الذي لا تنبت جذوره إلا في اليأس من المستقبل.

تاريخياً مر القضاء على الفقر المدقع في أوربا بطورين متكاملين: الطور الأول تصدت له جمعيات المجتمع المدني الإنسانية باسم التضامن الأخلاقي مع الفقراء، وهكذا أنشئت جمعيات الإحسان للفقراء منذ القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الثانية آخذة على عاتقها تخفيف وطأة الفقر المدقع وإعطاء الفقراء اليائسين بصيصاً من الأمل بتحسين شروط حياتهم، وبدأ الطور الثاني في الحرب على الفقر غداة الحرب العالمية الثانية عندما انتقلت هذه المهمة إلى دولة الرفاه التي أصبحت قوية اقتصادياً بما فيه الكفاية لتقدم

مساعدات مقننة للفقراء وهكذا تحولت مساعدة المحتاجين من واجب أخلاقي إلى واجب قانوني أي إلى من حقوق الإنسان.

فتشبهوا بالكرام إن لم تكونوا مثلهم.

الأصولية والفاشية استبطنتا المرأة
كأم وربة منزل فقط

لماذا لا يرتضي الأصوليون السماح للمرأة بلعب دورها في المجتمع ؟

العكس هو العجب. لا معنى في نظري للتنديد بعداء الأصولية للمرأة لأن التنديد لا يساعد على فهم الظاهرة والمطلوب فهم الدوافع التي تدفع الأصوليين إلى عداء المرأة عداءً مناضلاً يصل إلى تشويه جسدها أو قتلها لأنها لا ترتدي الحجاب مثلاً وشرح العواقب الوخيمة لهذا العداء الذي أدي مثلاً في المغرب إلى المزيد من تحقير المرأة في المخيال الشعبي خلال الحرب الإعلامية التي شنها الأصوليون خاصة في حزب العدالة والتنمية على المرأة من خلال التشهير بمشروع إدماج المرأة في التنمية وأخيراً تأخير صدور تنقيح المدونة حتى الآن. ولولا اللفتة الملكية الشجاعة في سبتمبر الماضي لظننا أن أعداء المرأة المتسترين بالدين قد دفنوه إلى الأبد.

فهم الدوافع وتحليل العواقب هو أفضل ما يساهم به المثقف في إيقاظ الوعي. رهاننا الأساسي هو تحديث الوعي العام وتنويره بالتحليل الموضوعي للمخاطر التي تعيق إدماج المجتمعات العربية في الحداثة العالمية كشرط شارط لتنميتها وإدماج المرأة في التنمية حتى لا يظل نصف المجتمع مشلولاً يستهلك ولا ينتج غير الأفواه اللامجدية في عالم عربي وإسلامي سلاح الدمار الشامل الأول الذي يهدده هو قنبلة الانفجار السكاني التي تعتبر العامل الأول لتخلفه الاقتصادي الذي هو القاعدة الموضوعية لكل مظاهر تخلفه الأخرى بما في ذلك معاملته الهمجية للمرأة بالختان وفرض الحجاب والرجم وإقصائها من مسرح التاريخ.

لماذا قلتم العكس هو العجب ؟

كل شيء في مجتمعاتنا التقليدية العربية والإسلامية المتخلفة يناضل لتنمية عداء المرأة. والأصولية الإسلامية هي التعبير المكتمل لتقليدية وتخلف مجتمعاتنا فكيف ننتظر منها السماح أو حتى التسامح مع دور ما للمرأة في المجتمع الذي يهدف المشروع الأصولي إلى تعزيز طابعه البطريقي(الأبوي) بإقصاء المرأة من أي دور يمكن أن تلعبه فيه. مجتمع الأصولية الإسلامية المثالي هو الذي يغيب المرأة دوراً وجسداً وصوتاً. كل شيء في المرأة عورة حتى صوتها وهذا منتهى عدائها الذي لا أعرف أن مجتمعاً في العالم المعاصر على الأقل ينافسنا فيه. وهذا قطعاً يعود إلى جملة من الأسباب المتداخلة والمعقدة لكن لا شك أن التعليم الديني الحالي المعادي للمرأة على نحو استفزازي يلعب في ذلك الدور الأول.أضف إليه الإعلام الديني الذي هو أحياناً أكثر من التعليم الديني تخلفاً وعداوة للمرأة.

إذا كنت الأصولية ليست الوحيدة المعادية للمرأة فما هي الأسباب التي جعلت هذا العداء منتشراً خارج صفوف الأصولية ؟

جميع الثقافات تقريباً تعرّف المرأة اجتماعياً لا باسمها كما تفعل عادة مع الرجل بل باسم أبيها أو زوجها، بنت فلان أو زوجه علان. أمثالنا الشعبية مليئة باحتقار المرأة. "امرأة حاشاك" عبارة ليست شائعة في البوادي العربية وحسب بل وأيضاً في المدن. يقول فرويد رأي الأخ أخته بدون قضيب فاحتقرها. لأن القضيب ينقصها. فهل يكون الحديث الموضوع ولا شك باسم نبي الإسلام "المرأة ناقصة عقل ودين" والذي يفسره الفقهاء أعداء المرأة بأنها ناقصة عقل في الولاية وناقصة دين في العبادة هو أنها ناقصة قضيب في الولاية وناقصة قضيب في العبادة باعتبار الولاية والدين مجالين ذكوريين بامتياز؟ رفض الفقهاء الاعتراف لها بالحق في الولاية حتى على نفسها باستثناء فقهاء الحنفية. توجد بالطبع أسباب عدة للعداء العام للمرأة ولعداء الأصوليين الإسلاميين لها أتمنى أن يخصص لها الباحثون وقتاً وجهداً لفهمها وشرح عواقبها إذ من دون تحرير نصف المجتمع من قصوره الأبدي ومن شلله في عملية الإنتاج، لا أمل في الإفلات من تخلفنا والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي المتواصل منذ قرون.

سأذكر هنا سببين بل ربما ثلاثة لعداء المرأة العام في المجتمعات العربية والذي يشترك فيه طبعاً الأصوليون الإسلاميون مع غيرهم. لست مؤرخاً لكي يبدو للوهلة الأولي أن عداء أسلافنا العرب للمرأة جنوني بدرجة نادرة في حوليات التاريخ. فقد يكونوا الوحيدين الذين مارسوا وأد البنات الذي وصفه القرآن وصفاً مؤثراً : "وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت" (8 التكوير) يلاحظ الطبري عند تفسيره هذه الآية قائلاً : "كان أحدهم يغذو كلبه ويئد ابنته" لماذا ؟ خوفاً على شرفه. وحقاً إنه لخوف جنوني أن يقتل أب وأم وأخ وليدة خوفاً من أن تمارس ذات يوم الحب مع رجل ما فيتلطخ شرف العائلة والقبيلة إلى الأبد. لعنة الشرف العربي المجنون مازالت تطارد المرأة إلى اليوم وربما إلى الغد إذا لم نستأصل بالتعليم والإعلام من رؤوس الأجيال الصاعدة هستيريا الخوف على الشرف. نشرت "إيلاف" مقالاً مهماً لأستاذة الترجمة بالجامعة التونسية رجاء بن سلامة بعنوان : "نعم من قتل دلال ؟ : من قتل دلال" ؟ عنوان المقال المؤرق الذي كتبه عادل سالم في "أرب نيوز" عن الشاب الأردني الذي طعن أخته خمساً وستين طعنة ثم ذبحها لا لشيء إلا لأنها هربت من بيت أبيها لتتزوج الرجل الذي أحبته ورفضه أهلها. بعد أن قتلها أخوها على هذا النحو قطع رأسها عن جسدها وأخذ يجره في شوارع قريته "صراخاً بأعلى صوته أنه غسل العار وهو لا يدري أنه ارتكب جريمة بشعة ذهبت ضحيتها أخت لا تستحق هذه العقوبة لا في قانون ولا في دين" وكان يحمل في يده الأخرى كبد أخته يلوكه بأسنانه مؤكداً على غسل العار طالباً من الناس أن تنزل لتري : "تعالوا شوفوا أنا غسلت العار عشان تبطلوا تعايرونا) بينما انطلقت الزغاريد من بيت الضحية، من الأم والأخوات وكأنهم في عرس حقيقي" (إيلاف 2003/11/24) والقانون الأردني والعراقي لا يعاقبان على جرائم الشرف. وقتل النساء دفاعاً عن "الشرف الرفيع" يومي في الأردن والعراق ولبنان وفلسطين وصعيد مصر ..

يصف لنا القرآن أيضاً كراهية العرب للأنثي التي مازالت متواصلة في أحفادهم : "وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم" أي مغتم ومكتئب. اسم "نهاية" للفتيات شائع بين الفلسطينيين كاسم للبنت غير المرغوب فيها ..

هذا التراث الجاهلي في عداء المرأة الذي مازال حياً وفاعلاً أضاف إليه التراث الإسلامي ما أضاف بسبب دور أم المؤمنين عائشة السياسي. فقد قادت، مع أخيها محمد بن أبي بكر،

الثورة على عثمان وكانت تقول على ذمة الرواة "اقتلوا نعثلاً فقد كفر" ونعثل هو اسم للضبع أو لأحد يهود المدينة وقد أطلقته على عثمان تحقيراً له. لكن لما بويع علي، الذي كانت تكن له حقداً دفيناً لأنه أشار على النبي بتطليقها في "حديث الإفك" الشهير،رفضت بيعته وقادت جيش المطالبين بدم عثمان في "حرب الجمل". وهكذا تكون أم المؤمنين قد قتلت الأب عثمان وقاتلت الأب علي. ولا شك أن ذلك كان حافزاً على وضع ‘ركام الأحاديث المعادية للمرأة لدي الشيعة والسنة معاً. عند الشيعة أول عمل يدشن به الإمام الغائب حكمه هو إخراج عائشة من القبر وإقامة الحد عليها. هذا وحده كاف لتوضيح درجة الحقد عليها الذي أسقطه الشيعة والسنة معاً على جنس المرأة في فقههم المعادي للمرأة.

ما هي الأسباب الخاصة بالأصولية والتي تدفعها إلى كراهية المرأة؟

الأصولية الإسلامية وريثة هي أيضاً للتراثين الجاهلي والإسلامي المعادين للمرأة حتى ليكاد يكون البند المركزي في المشروع الأصولي هو إقصاء المرأة من الحياة الاجتماعية وسجنها في المنزل من المهد إلى اللحد بل وحتى إقصاؤها من الحياة جملة. الأصوليون هم الوحيدون الذين يطالبون بتطبيق حد الرجم الذي لا وجود له في القرآن بل استعاره الفقهاء المسلمون المعادون للمرأة من سفر التثنية كما أثبت ذلك الصادق النيهوم في كتابه "إسلام ضد إسلام". حفيد حسن البنا ذو الجنسية السويسرية والموظف في إحدى الوزارات السويسرية كتب مقالاً في صحيفة "لومند" مطالباً بتطبيق حد الرجم فطردته الوزارة، وتوجد اليوم لجنة للدفاع عنه ضد "تعسف" الحكومة السويسرية التي انتهكت حرية الاعتقاد والتعبير والتفكير .. الأصولي الجزائري محفوظ نحناح، زعيم "حماس" صرح بأن الأصوليين "يذبحون المرأة، أما إذا كانت عضواً في حماس فإنهم يفصلون رأسها عن جسدها" ربما لأنها في نظرهم ارتكبت جريمة مزدوجة كونها امرأة وكونها عضواً في تنظيم منافس لتنظيمهم .. الأصوليون الإيرانيون رجموا في العشر سنوات الأولى من ثورتهم الإسلامية ألفين ومأتي امرأة ولم يوقفوا أو "يعلقوا"، بعبارة وكالة الأنباء الرسمية، حد الرجم إلا في فبراير 2003 بضغوط من الاتحاد الأوربي. والجدير بالتذكير أني طالبت في أكتوبر 2002 خلال مناقشتي في "الرأي والرأي الآخر" المجتمع المدني العالمي والإعلام العالمي والدبلوماسية الدولية بالتدخل في إيران لوضع حد لحد الرجم الوحشي. وبعد أيام قرر الأمير خالد بن سلطان نائب وزير الدفاع وصاحب "الحياة" منعي من الكتابة فيها لأن الأسرة السعودية اعتبرت نفسها "مقصودة" بندائي لـ "التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية للدول الإسلامية". قائمة جرائم الأصولية الإسلامية ضد المرأة طويلة، يبقي المهم فهم دوافعها النفسية التي تدفعهم لا شعورياً إلى ارتكاب أفظع الجرائم ضدها وضميرهم مرتاح لأنهم طبقوا حداً شرعياً يثابون عليه ويأثمون بعدم تطبيقه كما علمهم فقه القرون الوسطي المعادي للمرأة، على رأس هذه الدوافع يوجد الجنس وخاصة الجنس المكبوت الذي يحول الأصولي إلى صاروخ موجه ضد المرأة لـ "اغتصابها" تخييلياً.العنف على الجسد خاصة إذا أسال الدم هو لا شعورياً اغتصاب رمزي.

فسر محلل نفسي هوس الأصوليين الإسلاميين بالحجاب بكون شعر المرأة يذكرهم بشعر لها في مكان آخر .. بالنسبة للأصولي كل شيء في المرأة "عورة" بما في ذلك صوتها. والعورة اسم آخر للأعضاء الجنسية. اختزال المرأة إلى عورة يفترض منطقياً سترها بالحجاب والسجن المنزلي كما تستر العورات . إقصاؤها من الحياة الاجتماعية مرادف في المخيال الأصولي لستر العورة التي لا يجوز لأحد أن يراها إلا إذا كان زوجها. في بداية التسعينات أفتى الشيخ عبد العزيز بن باز، كبير علماء السعودية،بإقامة حد الرجم

كزانية على المرأة التي تخرج من منزلها إلى العمل. لأن "العورة" التي تكشف نفسها لغير زوجها تزني كما خيلت إليه مخاوفه الهاذية. تفسر السايكولوجيا أيضاً حرص الرجل على البكارة ورهاب زنا المرأة بخوفه من أن يصبح موضوعاً للمقارنة مع رجل آخر. لما فسر الطبري الآية الرابعة من سورة النور التي تعاقب بثمانين جلدة الرجل الذي يقذف زوجته بالزنا دون أن يدعم زعمه بأربعة شهود "والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون". احتج وتهكم عليها سيد الأنصار،سعد بن عبادة، فاستنجد النبي ضده بالأنصار : "يا معشر الأنصار أما تسمعون إلى ما يقول سيدكم؟" أجابوه بوصف دقيق لعقدة الخصاء عند سيدهم المسكون بخوف لا معقول من زنا زوجته يفسره 'رهاب المقارنة مع رجل آخر : "لا تلمه يا رسول الله،قال الأنصار، إنه رجل غيور ما تزوج فينا قط إلا عذراء ولا طلق امرأة فاجترأ رجل منا أن يتزوجها". سيد الأنصار يمثل الشخصية الأصولية المسكونة برهاب المقارنة مع رجل آخر.وهل رجم المرأة الزانية الذي يطالب به حفيد حسن البنا حتى في سويسرا شيئاً آخر غير الغيرة الجنونية لمحب مغدور. ومغدور تخييلاً فضلاً عن ذلك.وهكذا نفهم لماذا استعار الفقهاء هذا الحد الفظيع الذي لا وجود له في القرآن من سفر التثنية التوراتي تسكيناً للواعج مخاوفهم وانتقاماً لشرفهم المهدور تخييلاً.ألفت انتباه القارئ إلى أنه بدون الإضاءة السيكولوجية لا يمكن فهم عالم الأصولية الذي هو عالم العصاب والذّهان بامتياز.

إخراج العلم في العالم للجنس من حيز المسكوت عنه إلى ساحة المفكر فيه، إلى ساحة النقاش وتقديم دروس التربية الجنسية للمراهقين في المؤسستين المدرسية والإعلامية أزال هذه المخاوف الجنسية اللامعقولة أو خفف من شططها عند الرجال. أما في المجتمعات العربية حيث مازال الجنس مسكوتاً عنه ومقاربته العلمية محرمة. فمازالت المرأة فريسة سائغة لمخاوف الرجال وخاصة رجال الأصولية وهواجسهم العصابية.في كتابه المهم "أقصى اليمين على أريكة التحليل النفسي" يفسر المحلل الفرنسي،ميزون نوف، رغبة رجال أقصى اليمين الغربي والأصولية الإسلامية في حجب المرأة في السجن المنزلي بأنهم "استنبطوها كأم وربة منزل فقط" وكل خروج لها على هذين الدورين "الطبيعيين" لن يكون إلا شذوذاً على قوانين الطبيعة عند أقصى اليمين وخروجاً عن صحيح الدين عند الأصوليين.يسوق المؤلف موقف حكومة فيشي، الموالية للنازية من المرأة، "فهي التي سنت "عيد الأم" الملصقات الجدارية الدعائية لهذا العيد تتحدث عن نفسها من البنت التي تلعب بدميتها والتي كتب عليها "اليوم لعبتك وغداً رسالتك" إلى الأم التي تنحني لتقدم ثديها إلى رضيعها". رجال أقصى اليمين ورجال الأصولية الإسلامية يرفضون خروج المرأة عن دورها "الطبيعي" البايلوجي كأم وربة بيت. "ما هو رائع في الطبيعة وفي العناية : الإلهية،يقول هتلر،هو استحالة الصراع بين الجنسين إذا نفذ كل منهما الوظيفة التي أملتها عليه الطبيعة".

زعيم أقصى اليمين العنصري الفرنسي لوبان يردد ذات الهاجس : "وظيفة الأم هي الإنجاب وتربية النشء في منزلها بدلاً من التهالك على غزو الوظيفة العامة" منافسة للرجال. حسن البنا لم يقل شيئاً مختلفاً عن كل من هتلر ولوبان ولكن بصفاقة أكثر : "إن مهمة المرأة هي زوجها وأولادها. أما ما يريده دعاة التفرنج[=الحداثة] وأصحاب الهوى من حقوق الانتخابات والاشتغال بالمحاماة فنرد عليهم بأن الرجال وهم أكمل عقلاً من النساء لم يحسنوا أداء هذا الحق فكيف بالنساء وهن ناقصات عقل ودين" (من حديث الثلثاء) الذي كان الشيخ البنا يوجهه إلى نساء الأخوات أسبوعياً). بدوره أحدث الخميني تعليماً خاصاً بالفتيات يتمحور حول : "تعليم الخياطة والشؤون المنزلية وتقليص تعليم

الرياضـيات والعلـوم ويحـرم علـى الفتيـات الالتحـاق ببعـض الكليـات مثـل كليـة الحقوق" (الشهرية "المعرفة" لسان حركة الاتجاه الإسلامي [النهضة]التي يقودها راشد الغنوشـي) "المعرفـة" قدمت برنـامج الخميـني لتعليم الفتيـات كنمـوذج للفتيـات التونسيات اللواتي كن -ولازلن - عندما كتبت "المعرفة" لهن هذه النصيحة يتعلمن جنباً لجنب مع الفتيان جميع المعارف دون قيود أو محرمات ..

القاسم المشترك بين هتلر ولوبان والخميني وحسن البنا و "معرفة" راشد الغنوشي أو بين تياري أقصـى اليمين الغربـي والأصولية الإسلامية هو رهاب المرأة بما هـي "منافسـة" للرجل عند أقصى اليمين وبما هي "عـورة" عند الأصولية، باسم "الطبيعـة" عند أولئك وباسم الله عند هؤلاء ،اعتبارها قاصرة مدي الحياة يرسم لها الرجال دورها في الإنجاب وتدبير المنزل.ما يسميه أقصى اليمين دور المرأة : "الطبيعي" هو كما لاحظ بياربورديو، دور تاريخيي فرض عليها في ظروف تاريخية محددة ويزول بزوال الظروف التي أملتـه. لكن لابد من ملاحظة أن عداء أقصـى اليمين والأصولية للمرأة ليس عداء مفكرا فيـه بل عداء لا شعوري فهم يتمنون للمرأة كل خير ويعتقدون مخلصين أن الدونية الجوهرانيـة التي فرضوها عليها أمر صادر عن الطبيعة أو عن الله لخيرها وخير مجتمعها. أقول هذا لأنـي ألاحظ غالبـاً أن أنصـار المشروع الحداثي يتحدثون عن الأصـوليين كما لـو كـانوا يريـدون عن وعـي وسـابق إضـمار الشر للمرأة والمجتمع. فيمـا هم يفكرون ويتصرفون بـدوافع لا شـعورية عصـابية أي رهابيـة و وسواسية أو تحت طائلـة تخييلات ذهانيـة. من دون أخـذ هذه العوامل النفسيـة فـي الحسبـان تبقـي العوامل العقلانيـة من سياسـة واقتصـاد قاصرة في تفسير تصرفات وسلوكيات قـادة الأصولية .. هذا ضـروري لنتقدم فـي النقـاش العقلاني الذي يفهم الدوافع ويوضح الرهانات بعيداً عن التأنيب والتذنيب اللامجديين.

كيف تفسرون وجود بعض الأصوات النسائية التي تقف ضد أي تغيير لوضعية المرأة نفسـها ؟

السؤال ينطلق من فرضية ضمنية متفائلة تقول بأن النـاس نسـاء ورجـالاً يتصرفون حسب العقل أي حسب مصـالحهم المفهومة فهماً صحيحاً.لو كان الأمر كذلك لكـان المجتمع غير المجتمع والعالم غير العالم والناس غير الناس. الناس خاصة فـي المجتمعـات التقليديـة قلمـا يتصرفون بوحي من دماغهم المعرفي العقلانـي والاستدلالي بل يتصرفون كثيراً و غالبـاً بوحي من دماغيهما الغريزي والانفعالي البدائيين غير الحساسين للاعتبارات المنطقيـة بـل فقـط للغرائـز العدوانيـة والانفعـالات والمخـاوف اللامعقولـة الـتي تملـي علـى ضـحاياها تصرفات كثيراً ما يعاقبون بها أنفسهم. ليست هذه حال نساء أو رجـال الأصـولية بل أيضـاً حالة معظم الناس.

النساء الأصوليات أو اللواتي يتعاطفن مع الخطاب الأصولي المعادي لهن والذي يعتبرهن عورة يجب سترها بحجاب كما تستر العورات ويعتبر أن وظيفتهن محصورة في الإنجاب والطهـي ويعتـبرهن ناقصـات عقـل وديـن ويعـاقبهن بـالسجن أو الجلـد إذا أسأن ارتـداء الحجاب وبـالرجم إذا رماهم أزواجهن بالزنـا ولا صـلاح لهن إلا بوصـاية الرجـال عليهن إلى الأبد الأبيد .. هؤلاء النسوة لا يتصرفن تحت إملاء دماغهن المعرفـي بـل تحت إمـلاء دماغيهمـا الغريـزي والانفعـالي، تحـت إمـلاء مخـاوفهن اللاعقلانيـة وعبوديتهـن الإراديـة.العبيد الـذين حررهم ابرهام لنكولن رفضـوا حريتهم لأنهم استنبطوا عبوديتهم والنساء اللواتـي حررهن بورقيبـة من استعباد الرجال لهن رفضن سنة 1956 حريتهن وصوتن ضد حزبه في الانتخابات البلدية لأنهن صدقن دعايـة الرجـال الـتي قالت لهن إن قـوانين الأحـوال الشخصيـة الجديـدة "الكـافرة" سـتجعلهن يمتـن جوعـاً لأنهـن لـن يجـدن

الأزواج الذين يقبلون الزواج من امرأة لا يستطيعون تطليقها إذا لم تعجبهم وأن عدد النساء أكثر من عدد الرجال ومنع تعدد الزوجات سيحكم عليهن بالعنوسة .. أما بعد نصف قرن فلن تستطيع حكومة الانقلاب على تلك القوانين دون أن يقبلها النساء والرجال معاً.

النساء الأصوليات أو المتعاطفات استبطن عبوديتهن وتشربن دونيتهن ومازوشيتهن. السؤال هو من المسؤول عن هذا الوضع وما هو المخرج منه؟ المسؤول عنه بلا شك هو المجتمع الذكوري الأبوي أي القيم التقليدية المحقرة للمرأة التي يقصف بها التعليم والإعلام خاصة الدينيان وعي المرأة أضف إليهما التقاليد الاجتماعية البالية التي تعتبر نقد هذه القيم الاجتماعية الموروثة من فقه القرون الوسطي المعادي للمرأة فضيحة وكفراً. أما الحل فهو إصلاح قوانين الحالة الشخصية على الطريقتين التونسية والمغربية وإصلاح الإعلام والتعليم وتحديد النسل، وباختصار امتلاك النخب الحديثة لمشروع مجتمع حداثي وديمقراطي الإصلاح رائد والعقلانية منطلقه.

لكن غالبية النخب الحاكمة تطبق الأصولية من دون أصوليين كما ذكرتم فكيف يمكن لها أن تتبنى المشروع الحداثي الديمقراطي ؟
هذه النخب فريسة للجبن السياسي ولا مشروع لها غير البقاء في الحكم بأي ثمن. الأصوليون وضعوها تحت مطرقة تخويفها من تحريك الشارع ضدها إذا ما فكرت في القيام بالإصلاح المطلوب ..بإمكان أنصار المشروع الحداثي أن يضعوها على سندان ضغط القطاع الحديث من المجتمع المدني والمجتمع المدني العالمي والإعلام العالمي والدبلوماسية الدولية. لنأخذ الدرس من واقعة أن نساء إيران فشلن طوال أكثر من عقدين في إيقاف مجزرة حد الرجم ضدهن ولكن الاتحاد الأوربي أرغم الملالي الأصوليين خلال بضعة أسابيع على إيقاف هذا الحد البشع.

رغم أن أبا حنيفة أجاز للمرأة أن تكون قاضية في ما تجوز فيه شهادتها والطبري ، صاحب التفسير الشهير، أعطاها حق القضاء على قدم المساواة مع الرجل، فإن شيوخ الأزهر التقليديين مازالوا،بالتضامن مع الإخوان المسلمين، يحرمون دخول المرأة إلى القضاء بدعوى أنها "عاطفية" إذن لا تستطيع أن تكون محايدة في حكمها. بدون "قسر خارجي" سيظل على الأغلب هذا الحلف الشيطاني ضد المرأة عائقاً لدخولها إلى القضاء ودمجها في التنمية ومساواتها بالرجل في حقوق المواطنة.

هل قبول المرأة العربية ارتداء الحجاب هو مؤشر على انتصار الفكر الأصولي؟
الفكر الأصولي هو الفقه التقليدي زائد فتاوى سفك دماء المسلمين وغير المسلمين وهو فكر لم يهزم أبداً إلا في تونس. لأن التعليم والإعلام الدينيين هما اللذان يعيدان إنتاج هذا الفكر على نطاق واسع. حسب تقرير التنمية سنة 2003 العالم العربي الذي يمثل 5% في سكان العالم لكنه لا ينتج إلا 1% من الكتب التي ينتجها العالم لكن -يا للفضيحة- ينتج ثلث الكتب الدينية التي ينتجها العالم. أي أن العرب مهتمون بمستقبلهم بعد الموت وليس بمستقبلهم في الحياة. أراهن على أن نسبة عالية من هذه الكتب الدينية هي كتب أصولية. أضف إليها الآثار الهدامة لتلفزيون الجزيرة الذي يسيره القرضاوي وشبكة الإخوان المسلمين التي يقودها وفضائية "اقرأ" التي يمولها ملياردير سعودي و"العربية" السعودية. سيقول التاريخ أن بترودولارات الخليج وفضائياته هي السبب الأول في نشر الفكر والإرهاب الأصوليين. صرح مؤخراً الجنرال العماري، قائد الأركان الجزائري، قائلاً : "هزمنا الإرهاب الأصولي لكننا لم نستطع أن نهزم الأصولية" أي أن النار باقية تحت الرماد فالانتقال من الفكر الأصولي إلى الفعل الأصولي مسألة وقت. لكن الجنرال

الجزائري لم يسأل نفسه لماذا لم يستطيع الجيش الجزائري هزم الفكر الأصولي؟ بكل بساطة لأنه ليس الأداة المؤهلة لإنجاز هذه المهمة. أما التعليم الجزائري القادر على هزمه فمازال تعليماً تقليدياً أصولياً. في 1994 صرح جامعي جزائري لصحيفة ''لومند'' قائلاً : ''لو وصلت جبهة الإنقاذ الإسلامية إلى الحكم لما غيرت فاصلة واحدة من برنامج التعليم''. سيهزم العالم العربي المشروع الأصولي يوم يقوم بإصلاح إعلامه وتعليمه الدينيين، يوم لا يعود صغاره يلقنون في دروسهم الدينية أن المرأة ناقصة عقل ودين بل إن ''النساء شقائق الرجال'' كما يقول الحديث وأن ''المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض'' كما يقول القرآن ويوم لا يعودون يدرسون أن ''الإسلام فرض الحجاب على المرأة'' بل يدرسون ''لم يفرض الإسلام الحجاب والنقاب على المرأة بل فرض الحجاب والنقاب على الإسلام'' كما قال جمال البنا.

هذه هي شروط الحد الأدنى لهزم الفكر الأصولي السائد منذ قرون .. منذ انتصار الحنبلية المتعصبة والنصية الظلامية على فقه الرأي والتأويل والقراءة التاريخية للنص.

هل ستلعب الحركات النسائية العربية دورها في مواجهة المد الأصولي ؟

هذا كان رهان الملك الحسن الثاني وعندما قيل له ولكن النساء الإيرانيات ساندن الخميني أجاب لقد خن بنات جنسهن. لا شك أن الواعيات من النساء لا يمكن لهن اللا يعين أن المشروع الأصولي هو من ألفه إلى يائه معاد لهن ويعاملنه على هذا الأساس. وهذا ما رأيناه في الجزائر لكن المواجهة النسائية الحقيقية للمشروع الأصولي هي تلك التي ستقع بعد استيلائه على الحكم حيث سيبدأ تطبيقه ضد النساء أولاً.

عاملان يناضلان ضد لعب النساء لدور حاسم في هزم المشروع الأصولي في طور نضاله من أجل السلطة هما سيادة الأمية والأحكام المسبقة التقليدية المعادية للمرأة بين النساء أنفسهن بفضل الإعلام والتعليم الدينيين والعامل الثاني - وهو الحاسم - غياب أية مكاسب يمكن للمرأة أن تدافع عنها ضد الأصولية. أما بعد إستلائه على السلطة فالأمر سيختلف كما علمتنا التجربة الإيرانية. وسيكون النساء سنان رمح المقاومة الشعبية له. ومن أجل ذلك اليوم - إذا جاء - فليعمل العاملون.

أجري الحديث : وريغ لحسن

العمليات الإنتحارية مجازفة بمستقبل الشعب الفلسطيني

الأحداث الجسام تتطلب من الفاعلين السياسيين الجديرين بهذا الاسم تجديد قياداتهم واعادة تعريف أدوارهم وسياساتهم وممارساتهم التي امتحنتها الاحداث. وهذا ما تتضافر المؤشرات علي ان السلطة الفلسطينية قد بدأت أخيراً تعيه. لكن المشكلة الشائكة حقاً هي ان المعارضة الراديكالية، المسؤولة الأولي عن الزلزال الفلسطيني، ما زالت لم تع بعد ان تغيير المعطيات السياسية يفرض عليها تغيير قناعاتها وممارساتها القديمة.

لماذا تأخر وعيها الي هذا الحد عن ادراك هذه الحقيقة؟ لأنها ما زالت في طور ما قبل السياسة تصنع قرارها، لا انطلاقاً من متطلبات ميزان القوي، بل اعتماداً علي الحس المشترك، أي الأداء والمعتقدات والتجارب الذاتية التي هي في معظمها أخطاء شائعة تستمد شرعيتها من قوة العادة واجماع العامة علي تصديقها. حسبُ الملاحظ السياسي قراءة خطاب حماس عن تبرير عملياتها الاستشهادية ليتأكد من ذلك، مما جعل صنعها لقرارها متناقضاً مع منطق صنع القرار السياسي المعاصر. مثلاً : سلاح العمليات الاستشهادية هو ورقتنا الرابحة التي حولت ضعفنا الي قوة... اسرائيل عندها الأباتشي واف 16 ونحن عند الاستشهاديون... بهذا السلاح نأخذ ثأر شهداء الشعب الفلسطيني... هذا السلاح اعطي للشعب الفلسطيني الأمل في تحقيق حلمه في دحر المحتلين عن أرضه... نزع (السلطة الفلسطينية) لهذا السلاح منا يعتبر أكبر خدمة للاحتلال الذي يعيش كابوساً مزعجاً من العمليات الاستشهادية... وقف هذا السلام لاعطاء فرصة للتسوية لا يقنع احداً فماذا أعطت المفاوضات منذ عشر سنوات؟ حماس تبقي خيار التحرير وترفض خيار التسويات والمساومات ولا تطرح شعارات في الهواء أو اوهاماً يصعب تصديقها... العمليات الاستشهادية لا تخدم مشروع شارون كما تقول السلطة، بل مشروع الشعب الفلسطيني.

هذا الدفاع عن العمليات الانتحارية يندرج في الأخطاء الشائعة مثل طلعت الشمس وغربت، بدلاً من دارت الأرض حول نفسها، يصدّقها السامع للوهلة الأولي لأنها تتفق مع بداهات الحس المشترك، لكن ما أن يخضعها للتفكير النقدي حتي يكتشف زيفها. مثلاً تبرير اللجوء الي العمليات الاستشهادية لأنه السلاح الوحيد المتاح لنا كما تقول حماس ! لكن في العمل السياسي يُختار السلاح لجدواه في تحقيق المشروع السياسي لا لمجرد أنه الوحيد المتاح. مثلاً آخر : ادعاء حماس أنها لا تطرح شعارات... وأوهاماً يصعب تحقيقها، لا يصمد للنقاش : هل يوجد وهم أبعد منالاً من و هم تحرير فلسطين حتي آخر ذرة تراب في مستقبل منظور؟ اذا حاكمنا هذه التبريرات بمعايير متطلبات الممارسة السياسية في فلسطين خصوصاً في حقبة ما بعد ايلول (سبتمبر) التي أبلست العمليات الانتحارية، فسنكتشف خطرها علي الهدف النهائي للشعب الفلسطيني : دولة قابلة للحياة تلم شمل معظم الشتات الفلسطيني. في هذه الحقبة لم يعد العالم يتسامح مع العمليات الانتحارية ضد المدنيين الاسرائيليين، وكل ممارسة فلسطينية يدينها العالم تضر بمستقبل الشعب الفلسطيني، وهذا هو المحذور الذي وقعت فيه قيادة حماس : سأدافع عن نفسي (بالعمليات الاستشهادية) رضي العالم أم لم يرض، قال عني ارهابي أم لم يقل كما صرح زعيم حماس الروحي، كما لو كان الصراع الاسرائيلي ـ الفلسطيني مبارزة بين فارسين تنتهي بصرع أحدهما الآخر. دور العالم فيه هو دور المتفرج السلبي، لذلك فكسبه لا ينفع وخسارته لا تضر، وليس معركة متشعبة الخطأ فيها ممنوع

لأنه مجازفة بمستقبل آخر شعب في العالم لا تزال أرضه محتلة. الرأي العام العالمي الذي يحتقره زعماء حماس يلعب اليوم دور الحكم في كل نزاع، و هو فضلاً عن ذلك بات سلاح المستضعفين الضارب لتعديل ميزان القوي لصالحهم. فلولاه لواصلت صربيا إبادة شعبي البوسنة وكوسوفو. في المقابل بإمكان قيادات فلسطينية رشيدة استخدامه ايضاً للضغط علي عواصم القرار الدولي ليفرض مجلس الأمن حلاً علي شارون... لكن ذلك ضرب من المحال طالما تواصلت العمليات الانتحارية التي تحول في وعي الرأي العام العالمي الضحية الي جلاد والجلاد الي ضحية. فيري في كل عملية انتحارية ضد مرقص أو محطة باص أو فندق أو سوق اعلاناً للحرب علي اسرائيل ويتفهم ردود فعلها الدموية. مشكلة قيادة حماس انها، كغيرها من زعامات الحركات الدينية السياسية، عجزت حتي الآن عن امتلاك مشروع سياسي حتي بتعريف الحد الأدني : تحديد أهداف قريبة المنال لا تتعارض مع الاجماع الدولي الذي لن يتحقق شيء من دونه، وامتلاك الشجاعة السياسية علي اعادة التفكير في افكارها وممارستها. في غياب القدرة علي قراءة موضوعية لميزان القوي الاقليمي والدولي تسمح بالمعرفة الموضوعية له، ستبقي القيادات الفلسطينية تكرر اخطاءها وتقود شعبها من هزيمة الي اخري.

امكانية تصحيح عقلاء حماس لخطأ العمليات الانتحارية يتطلب منهم التفكير العميق في مسألتين اساسيتين : من يحق له تعريف المصلحة الوطنية الفلسطينية، ووعي عواقب الخيارات الاسرائيلية المضادة لخيار العمليات الانتحارية.

هل السلطة الوطنية الفلسطينية هي المؤهلة لتعريف المصلحة الوطنية أم حماس أو أي تنظيم من تنظيمات الطيف السياسي ـ العسكري الفلسطيني؟ لا شك منطقياً وديموقراطياً ان السلطة، نواة دولة الغد، هي مستودع الشرعية الوحيد. اذ لو تسامحنا مع أي تنظيم يعطي لنفسه حق تعريف المصلحة الوطنية لوجدنا من المصالح الوطنية بقدر ما يوجد من تنظيمات. وهذا أفضل وصفة للقضاء علي المصلحة الوطنية. السلطة الوطنية الفلسطينية تؤكد أن العمليات الانتحارية هدامة للمصلحة الوطنية لأنها تعطي الذرائع لشارون لتنفيذ خياراته الكارثية علي الشعب الفلسطيني، وتحبّذ العودة الي خيارات سلامية تلبي تطلعات الفلسطينيين الذين اكتووا بويلات الحرب.

حسب استطلاع اجراه الباحث السياسي خليل الشقاقي بعد الزلزال اتضح ان ثلثي السكان الفلسطينيين يؤيدون المبادرة السعودية للسلام و70 في المئة مع المصالحة الفلسطينية ـ الاسرائيلية بعد قيام الدولة الفلسطينية. 60 في المئة من الاسرائيليين يؤيدون بدورهم قيام دولة فلسطينية. هذا المزاج الشعبي ملائم للانتقال من العمليات الانتحارية الخاسرة الي الحرب الاعلامية التي يمكن ان تكون ظافرة تنتهي بتدويل النزاع وتبنّي مجلس الأمن لحل يُفرض علي شارون لتطبيق قرارات مجلس الأمن ذات الصلة حسب جدول زمني، وكل تفاوض في شأن باقي التفاصيل يجري تحت وصاية مجلس الأمن. وإذا توقفت العمليات الانتحارية يستطيع معسكر السلام الفلسطيني ان يعيد الروح الي معسكر السلام الاسرائيلي والي حزب العمل الذي تبني رئيسه خطة للسلام تجمع بين مقترحات كلينتون وتفاهمات طابا والمبادرة العربية للسلام. 15 ألف عربي اسرائيلي داخل هذا الحزب يشكلون جماعة ضغط لصالح السلام. أضف اليه حزب ميريتس والاحزاب العربية الاسرائيلية والمثقفين السلاميين والجمعيات الاسرائيلية المناهضة للاحتلال والاستيطان.

تحقيق الاصلاحات المطلوبة شعبياً ودولياً بسرعة وبصدق سيشكل مدخلاً جيداً لتجديد شرعية السلطة التي تآكلت وتطهيرها من الفساد وتالياً زيادة مصداقيتها داخلياً وخارجياً. وهذا أفضل اعلان في الاعلام العالمي يساعد علي التصدي لخيارات شارون المدعومة من صقور ادارة بوش والمناهضة لا لقيام الدولة الفلسطينية وحسب بل ايضاً لمجرد بقاء الشعب الفلسطيني علي أرضه. منذ الآن بدأت الاجهزة الامنية الاسرائيلية تطرد بين 30 الي 50 ألف عامل فلسطيني يقيمون بصورة غير قانونية داخل الخط الاخضر بذريعة ان بينهم من يسهل تسلل الانتحاريين. وينسب لشارون مخطط يستهدف ترحيل آلاف الفلسطينيين الي الأردن قبيل انتخابات 2003. منذ الآن رصد 100 ألف دولار لكل عربي اسرائيلي يقرر الهجرة من اسرائيل.

القاسم المشترك بين خيارات شارون للرد علي العمليات الانتحارية زعماً هو تضييق الخناق علي

الفلسطينيين لدفعهم الي الفرار بجلدهم بعيداً عن فلسطين. المواظبة علي تدمير بقايا السلطة الفلسطينية لاسقاطها لصالح حماس كما يريد صقور ليكود، أو لصالح حكومة عميلة كما يريد شارون، وتحويل حرب اعادة الاحتلال الي حرب يومية عبر التدخل في المدن والبلدات الفلسطينية للاغتيال والاعتقال وتدمير المنازل وبقايا البنية التحتية لتحويل حياة الفلسطينيين الي مأساة يومية لدفعهم الي الهجرة. لقد هاجر خلال الانتفاضة 300 ألف شاب ونصف المسيحيين الفلسطينيين. تقسيم الضفة والقطاع الي 12 كانتون ذو هدف مزدوج : منع قيام دولة متصلة جغرافياً وتحويل المدن والقري الفلسطينية الي معازل والاجهاز علي الاقتصاد الفلسطيني لتسريع الافقار المطلق. فقد قفزت نسبة من يعيشون تحت خط الفقر من 50 في المئة قبل الانتفاضة الي 78 في المئة بعدها... كل ذلك يصب في اتجاه الحث علي الهجرة. لكن الذريعة الشارونية هي حماية المدنيين من العمليات الانتحارية. بالتعلة ذاتها يعمل الجيش الاسرائيلي علي اقامة مناطق عازلة ستقضم خمس مساحة الضفة، وقد ينسحب شارون من طرف واحد الي حدود مريحة ويضم 24 في المئة من الضفة الغربية ويحتفظ بالقدس التي تشكل 25 في المئة من مساحة الضفة مع احتفاظ الجيش بحق التدخل لـ منع العمليات الانتحارية حيث يشاء ومنع دولة فلسطينية لا تكون نتيجة مفاوضات مع اسرائيل. خيار شارون الأخير لتسريع الترانسفير هو التذرع بالعمليات الانتحارية وعمليات حزب الله لشن حرب اقليمية لحرق جنوب لبنان وربما اسقاط النظام السوري، أو علي الاقل اضعافه لإشعال فتيل الحرب الطائفية في كل من لبنان وسورية. فهل يقبل فلسطيني لم يبع روحه للشيطان بأن يكون، بالعمليات الانتحارية، حليف شارون الموضوعي لتحقيق الخيارات الكارثية علي الشعب الفلسطيني وجميع شعوب المنطقة؟

''الحياة'' ماي 2002

ما العمل بعد الزلزال ؟

رفض رئيس السلطة الفلسطينية مشروع وزيره نبيل عمرو والمطالب باصلاحات جوهرية في تركيب السلطة الفلسطينية وخياراتها السياسية. استقال الوزير بشجاعة غير معهودة من الوزراء واصفاً بدقة نتائج حرب شارون علي الشعب الفلسطيني بالزلزال. انه بالفعل زلزال أطاح بكل شيء الا ببعض الاوهام الراسخة. بعد كل زلزال لا بد من اعادة التقويم، وفي الحال الفلسطينية من اعادة النظر في الشعارات وأنماط التفكير والتعبير الحرفية التي قادت الشعب الفلسطيني الي طريق مسدود والشارع العربي الي الاحباط واليأس. لهذه المراجعة المطلوبة من النخب الفلسطينية والعربية غايتان : الحد من الخسائر وتحضير استراتيجيا فلسطينية وعربية واقعية، أي تعرف كيف تقدم الأهم علي المهم ، كما كان يفعل بورقيبة كلما وجد نفسه في موقف سياسي حرج تضيق فيه دائرة الخيارات ويتطلب قراراً ليس سهلاً وليس شعبياً.

الطريق الي مثل هذه المراجعة يمر، بالضرورة، بالنقد الذاتي وبقبول النقد بصدر رحب. وكلاهما يتطلب شجاعة نادرة، والحق يقال، في حوليات الشجاعة العربية، لأن حال نخبنا المصابة برهاب النقد هو كحال أي فرد أو مجتمع لم يفارق الطفولة الي سن الرشد تُكابد النقد كجرح عميق، كطعنة في الصميم، كتخريب للثقة بالنفس. مثلما يتخيل الطفل نفسه فوق النقد ويتشربه كتجريح واذلال كذلك يشعر الأطفال الكبار، الممتلئون باعجابهم النرجسي بأنفسهم، بالنقد كهجاء مقذع، أي كتفكير جريء في اللامفكر فيه وككلام جارح في المسكوت عنه. الذهنيات والمجتمعات التقليدية تعتبر المعارضة خيانة والتفكير المختلف فضيحة لأنهما يشكلان خروجاً مرفوضاً عن ثقافة الاجماع السائدة في المجتمعات ما قبل الحديثة. لا شيء أشد خطراً عليها من التعددية في أي مظهر تجلت. لكن ذلك لا ينبغي له أن يردعنا عن ممارسة الفكر النقدي فنسائل كل ممارسة وأطروحة سياسية عن شرعيتها العقلانية حتي نشخص الأخطاء المسؤولة عما حدث ونحاول تحليل أسبابها. خطيئة النخب المميتة هي التعلل بالأوهام. الخطأ يمكن تصحيحه لأنه قابل للتفنيد بالوقائع والبراهين. اما الوهم، بما هو رغبة لذيذة وظيفتها تعويض حقيقة مريرة، فيستعصي عن التصحيح. لماذا؟ لأن الحجج والوقائع التي تكذبه تعتبر، بحيل لا شعورية، هي الكاذبة. التعلق بالأوهام هو الذي جعل نخبنا مشلولة ذهنياً وتالياً عاجزة عن التمييز بين الممكن والمستحيل في السياسة. والحال ان السياسة هي تعريفاً التعامل مع الممكنات. لكن النخب داخل فلسطين وخارجها تعاملت مع المستحيلات مثلا عندما حولت انتفاضة الأقصي الي تعويذة، أي وصفة سحرية صالحة لعلاج اختلالات المجتمعات العربية في علاقتها مع نفسها ومع اسرائيل ومع العالم : لقد حملت برسالة مصالحة العرب والمسلمين مع انفسهم بالتفافهم حولها واجماعهم علي قدسيتها، وبطرد الاستيطان والاحتلال من فلسطين وبتقليم أظافر الوحش الأميركي الذي لا يُسأل عما يفعل. فما الذي جعل هذه النخب تسقط علي الانتفاضة كل فانتزماتها الجبارة فتحولها الي مطلق ميتافيزيقي فوق

النقد؟ بواعث عدة اقتصر منها الآن علي العجز عن القراءة الدقيقة لميزان القوي الذي لا سبيل لتعاطي السياسة فكراً أو ممارسة من دون معرفة قراءته باقتدار. حقنا واضح وقضيتنا عادلة وكفي الله المؤمنين بصواب القضية ثم التفكير في قدرة الطرف المقابل علي الاستهزاء بالحق والعدل طالما لعبة موازين القوي تسمح له بذلك! الحق و العدل ما كانا يوماً عاملين مقررين في صنع واتخاذ القرار الدولي أو الاقليمي. غياب هذه القراءة الضرورية لميزان القوي والمسؤول عن تفجير الانتفاضة وتحويلها الي عمليات انتحارية قدمت لشارون وموفاز علي طبق من ذهب الذرائع التي كانا يبحثان عنها لإعادة رسم الخريطة الفلسطينية. لو وجدت مؤسسات فلسطينية لصنع القرار علي ضوء المعطيات الفعلية لما غامرت بتفجير انتفاضة تسقط حكومة حزب العمل وتلغي نتائج مفاوضات طابا واقتراحات كلينتون وتنتخب شارون، العدو التاريخي لكل ما فيه اسم فلسطين، لتمني أخيراً بعد 19 شهراً من العذاب المتواصل بخسارة 8.5 بليون دولار، وتدمير البنية التحتية لكل من السلطة الفلسطينية والمجتمع المدني، وبخمسة آلاف فلسطيني سجين في اسرائيل، وبآلاف القتلي وعشرات آلاف الجرحي وخراب اقتصادي ومعنوي غير مسبوق. اما حصاد الانتفاضة السياسي فأكثر وبالاً : الدولة الفلسطينية القابلة للحياة التي كانت قبل تفجير الانتفاضة في متناول اليد غدت بعدها أبعد منالاً : اسرائيل شارون لم تعد ناضجة للاعتراف بمثل هذه الدولة، وأميركا بوش ليست ناضجة لفرض حل دولي للنزاع. ونتائجها المؤجلة قد تكون أنكي : اضافة لاجئين الي اللاجئين بتهجير الفلسطينيين الي الأردن. وهكذا فالانتفاضة، كأداة لطرد المستوطنين والمحتلين، أدت الي عكس ما أراده صناعها منها. للذين صنعوها أو صفقوا لها بالأمس وفجأة شرعوا يتبارون اليوم في اكتشاف أخطائها نقول لهم انكم لم تكتشفوا بعد انها بحد ذاتها كانت هي الخطأ، لأسباب طالما حللناها هنا، في مقدمتها ان زمن الكفاح المسلح الظافر قد ولي بعد انهيار الكتلة الشرقية التي كانت تسانده ثم أهال عليه 11 أيلول (سبتمبر) التراب عندما ماثله بالارهاب. من ينادون بعد الزلزال بمواصلة الانتفاضة إياها تشبه حالهم حال من فقد عضواً لكنه ظل مع ذلك يتصرف كما لو أن العضو المبتور ما زال في مكانه.

لو وجدت مؤسسات ديموقراطية بتعريف الحد الأدني : حرية الاعلام والنقاش داخل المؤسسات القائمة لما اتخذ عرفات قرار الانتقال من السياسة الي العنف الأعمي الذي قاد الي النتائج التي نعرف، ولما اتخذ صدام قرار غزو الكويت الذي ما زالت عواقبه الوخيمة معلقة كالسيف فوق رقاب شعوب المنطقة.

بعدما اتضح عقم خيار العنف واستحالة خياري الحرب وحظر النفط لم يبق الا الخيار السياسي الذي قلما جربته القيادات الفلسطينية الا في أكثر اشكاله سوءا : سياسة الأسوأ. القضية المركزية في الممارسة السياسية هي تعريف المصلحة الوطنية في كل مرحلة من مراحل النزاع الاسرائيلي - الفلسطيني. وهي المهمة التي عجزت القيادات الفلسطينية المتعاقبة عن الاضطلاع بها. هذا العجز عن تعريف وا عادة تعريف المصلحة الوطنية عائد لسببين : العجز في كل مرحلة عن قراءة ميزان القوي والتقيد بمتطلباته وفهم المصلحة الوطنية كحقيقة ثابتة لا تتغير بتغير المعطيات. في السياسة لا وجود لمصلحة وطنية في حد ذاتها معرفة بالآراء والمعتقدات والمبادئ الخالدة، بل توجد مصلحة يعاد تعريفها باستمرار علي هوي ميزان القوي أي ما تفرضه متطلبات الظرف. باسم المصلحة الوطنية رفضت القيادات الفلسطينية في 1947 قرار التقسيم وباسمها رفضت اقتراح بورقيبة بالعودة اليه سنة 1965، وها هي فصائلها الأكثر تطرفاً تنادي بالعودة المستحيلة اليه اليوم! في الستينات رفضت القرار 242 ونعته بالتصفوي للقضية الوطنية وها هي اليوم، ربمـــا بعد فوات الاوان، تحوله الي نص مقدس. سنة 2000 رفضت

اقتراحات كلينتون الحبلي بدولة فلســـطينية قابلة للحياة، وفي 2002 تستجدي بوش أخذها بعين الاعتبار في أية مفاوضات محتملة مقبلة. وإذا لم يغير الزلزال تصورها الخيالي للعالم فستراها قريباً - لكن بعد فوات الاوان - تناشده بالاعتراف بدولة فلسطينية على كامل غزة فقط لا غير !

وكل تخلف عن كل موعد يضربه لنا التاريخ ونحن بألف خير.

"الحياة" ماي 2002

المثقفون والعمليات الانتحارية
هذيان جماعي !

مسؤولان أساسيان عن تشجيع العمليات الانتحارية المرفوضة أخلاقياً ودينياً، والكارثية سياسياً، هما الثقافة المغلقة والانتحارية السائدة في مجتمعاتنا والغياب الفاجع للفكر النقدي عن فكرنا السائد. حماس الجمهور والنخبة معاً لهذه العمليات يلقي أضواء كاشفة على تجذر هذه الثقافة في سلوكياتنا، تخيلاتنا، نكاتنا، أمثالنا، ولعلنا الهاذي بأخذ الثأر، خياراتنا الحدية (لنا الصدر أو القبر)، شراسة علاقاتنا الاجتماعية والفردية... كل خلاف قل أو جل ينتهي غالباً بغالب ومغلوب لأن كلمة مفاوضة أو تسوية أو مساومة تعادل الشتيمة في معجمنا الثقافي. احتجاجاتنا الاجتماعية محكومة بجدلية الحريق والمذبحة : يضرم الشارع المحبط حريقاً فترد عليه الحكومة المتسلطة بمذبحة. من بين جميع دول العالم، تورطت خلال عقدي الثمانينات والتسعينات خمس دول عربية واسلامية في أفعال ارهابية : اسقاط طائرات مدنية، خطف رهائن، محاولة اغتيال الرئيس المصري في اديس ابابا... عندما قدمت دول الاتحاد الأوروبي، التي انتقلت الى ثقافة السلام واحترام الحياة، للأمم المتحدة مشروعاً بالغاء عقوبة الاعدام تصدت لها، من بين جميع دول العالم، الدول العربية لترفع عالياً راية المشنقة وعمود الاعدام ! 90 في المئة من المجموعات الارهابية الناشطة في العالم تستخدم معجم الثقافة اياها. في عام 89 هدد صدام حسين بحرق نصف اسرائيل بـ (الكيماوي المزدوج)، منذ 11 أيلول (سبتمبر) و(القاعدة) تتوعد بتحويل أميركا الى انقاض، منذ أيام قالت (جماعة النور) الاسلامية الفلسطينية بأنها ستجعل من لبنان (بركة دم)، حسب (لوفيغارو) يطرح التلفزيون الفلسطيني على الأطفال هذا السؤال المفخخ : (هل تفضل الدولة الفلسطينية أم الاستشهاد ؟ فيجيب الأطفال : الاستشهاد) !

من أين انحدرت الينا هذه الثقافة العنيفة بمعجمها وممارساتها التي تقطر دماً ؟ من ماضينا الممتد في حاضرنا، من انتصار الإتباع على الابداع والرواية على الدراية في تراثنا الأدبي والفقهي وجهاد الآخر على جهاد نوازع النفس العدوانية، وهو أجمل أنواع الجهاد، ومن تقاليد الحروب والمشاحنات القبلية والطائفية وبطش السلطات الغاشمة قديماً وحديثاً، ومن ردود فعلنا الهاذية على احباطاتنا الفردية والجمعية ومن جروحنا النرجسية سواء منها المنحدرة من هزائمنا أمام الغرب واسرائيل أو الآتية من تربية أسرية قاسية... هذه العوامل التراكمية لم تتخللها قطيعة ديموقراطية تؤسس لثقافة جديدة قوامها الحوار والسلام مثلما حصل في اليابان بانتقالها من ثقافة العنف والانتحار الى ثقافة السلام التي بفضلها لم تسترقها نفسياً صدمة محرقة هيروشيما ونغازاكي النووية ولم تمنعها من التحالف مع اميركا التي خصتها عسكرياً، ولا من التأمرك حتى. غياب هذه القطيعة الديموقراطية عندنا جعل صدماتنا تتحالف مع موروثنا الثقافي لصياغة شخصيتنا النفسية صياغة ثأرية حولت أخذ الثأر في سلمنا القيمي الى قيمة اجتماعية، والتسامح والغفران

والجنوح الى السلم الى وصمة عار وجبن وخيانة والانفتاح على العالم، أي على استثماراته وقيمه الى تفريط في الهوية واقتراف لـ(أم الجرائم) : التبعية للغرب. مآخذ المعارضة الراديكالية على الأنظمة المغاربية على دخولها في الشراكة الأوروبية تفوقت على مآخذها الأخرى عليها. لماذا ؟ لأنها بهذا الانفتاح الحقيقي على الحضارة الأوروبية دشنت بداية القطيعة مع ثقافة الانغلاق والثأر.

ككل ثقافة سائدة، لم ترحم ثقافة الانغلاق والعنف أحداً فرجل الشارع ورجل الفكر فيها سواء. لأن هذا الأخير لا يزال كائناً تقليدياً لا يفكر بنفسه ولذلك لا يتوانى في وضع نفسه على (خط الجماهير) ليفكر بأهوائها السياسية وأوهامها عن نفسها وهذيانها الجماعي، كما كان يفعل شاعر القبيلة في غابر الزمان ! وهذا ما يترجم نفسه في الخطاب الفكري السائد اليوم المتمحور على الخصوصية الاقصائية تعريفاً : حداثة خاصة بنا، تراثنا سياج تفكيرنا والجهاد سلاحنا لتحرير فلسطين. القاسم المشترك لهذه الشعارات الثلاثة هو اعادة انتاج ثقافة الانطواء الجهادية القروسطية. لماذا ساد هذا الخطاب الماضوي المستقتل ؟ لأن منتجيه لم ينتقلوا من الفكر التبريري الأصيل الى الفكر النقدي الدخيل على عاداتنا الذهنية الاتباعية والذي هو اجدى وأجمل هدية قدمها الفكر الغربي للفكر البشري، حتى غدا اليوم سائداً بين مثقفي العالم بما فيه المتأخر باستثناء الفضاء العربي الاسلامي الذي ما زال فريسة سهلة للتضامنات وأنماط التفكير والتدبير العتيقة.

يؤدي الفكر النقدي وظيفة المصفاة التي تمنع الشوائب الفكرية من التسلل الى التفكير المنطقي. كيف ؟ بمساءلة المزاعم والشعارات والقناعات والفرضيات والممارسات عن شرعيتها العقلانية بإخضاعها لفحص دقيق يميز الصحيح فيها من الزائف والعقلاني من الهاذي، كيما يمنع الاحكام المسبقة والبديهيات الخادعة والأفكار الانطباعية والأحكام الارتجالية والقناعات الفكرية والسياسية الساذجة، والرغبة العمياء من تعقيم ملكة التفكير بما هو انتاج للمفاهيم التي تساعد على فهم أسباب المشاكل وعواقبها وامكان حلها وترتيب سلّم أولوياتها بتقديم الأهم على المهم.

غياب الفكر النقدي يفسر انتشار العوائق الذهنية المؤسسة لسوء التفكير والأهواء السياسية - الدينية المحفزة للعمليات والقرارات الانتحارية. لو ساءل المثقفون المشجعون للعمليات الانتحارية هذه الأخيرة عن شرعيتها السياسية العقلانية أي عن مدى مساعدتها على تحقيق هدف الشعب الفلسطيني الآني الوحيد، قيام دولة فلسطينية الى جانب دولة اسرائيل - لا على انقاضها - عبر كسب الرأي العام الاسرائيلي والعالمي والديبلوماسية الدولية المناهضين جميعاً للعمليات الانتحارية، ولو ساءلوها أيضاً عن عواقبها الوخيمة على صورة الفلسطيني، العربي والمسلم والاسلام ذاته في حقبتنا التي تحتل فيها صورة كل أمة في مرآة الاعلام العالمي أهمية غير مسبوقة، ولو ساءلوها أخيراً عن شرعيتها الأخلاقية بمقاييس قيم عصرنا وفي طليعتها احترام الحياة وتجريم الحاق الأذى المقصود بالمدنيين الأبرياء... لما تورطوا في المشاركة السلبية فيها وفي ما جرّته على الفلسطينيين من ويلات تشيّب الرضيع.

مخططو العمليات الانتحارية أميون سياسياً. وهكذا فـ(فتاوى) السلطة الفكرية الزائفة التي تزيّن لهم ممارساتهم الدموية لا تقل تأثيراً سحرياً عليهم من الفتاوى الدينية. وبالمقابل كان في امكان نقد العمليات الانتحارية سياسياً وأخلاقياً ودينياً أن يساعد القادة الأقل قطيعة مع الواقع الاقليمي والدولي على وعي عواقب قراراتهم واستخلاص النتائج المنطقية منها كما فعل البرغوثي والشيخ مثلا.

غياب هذه المساءلة النقدية مسؤول أساسي عن طغيان الفكر التبريري على الفكر النقدي في التعامل مع الانتفاضة التي غذت هذيان المثـقفين الجماعي بقدر ما غذوها به. مطاع صفدي كتب بيقين لا يتزعزع بأن الانتفاضة حاملة لا لبشارة الخلاص للأمة العربية وحسب بل أيضاً للبشرية قاطبة من شرور الامبريالية الاميركية التي تفترس العالم. اما العمليات الانتحارية فهي السلاح المطلق الذي فاجأت به العبقرية العربية الاسلامية ذاتها ! لمحمد عابد الجابري موقف لا يقل غرائبية : (ان الباحث الذي يلتزم التجرد والموضوعية (...) لا مناص له من الاقرار بأن الواقع السياسي في فلسطين اليوم يقوم على نوع من التركيب مبرر تماماً رغم لامعقوليته (!) فالحقيقة في فلسطين قائمة على نوع من الازدواجية لا مناص منها : الاستشهاد الاسلامي بتفجير الانسان ذاته استنكاراً واحتجاجاً على هذه المدنية الظالم أهلها، مدنية العالم اليوم، من جهة وخوض معركة المفاوضات الملوحة بغصن الزيتون تمسكا بالحقوق ودفاعا عن القضية في الدنيا من جهة أخرى) (القدس العربي 2001/12/7). تقسيم طريق للعمل بين ياسين وعرفات : الأول يضمن للفلسطينيين نصيبهم من الآخرة بالاستشهاد والثاني نصيبهم من الدنيا بالمفاوضات، كمن يرى جنازة تمر فيقول لأهل الميت : كل سنة دائمة ! (الازدواجية) التي بدت للجابري محتومة فاته انها هي التي ستقود الشعب الفلسطيني الى هزيمة مزدوجة عسكرية وسياسية، ما كان مفاوضات مع باراك وكلينتون استحال الى املاءات مع شارون وبوش. كما فات فيلسوف (العقل العربي) أن يفهم ما يدور في عقل شارون : اطالة عمر انتفاضة العمليات (الاستشهادية) الى أن تحين ساعة التسفير الحاشد للفلسطينيين الى الأردن أو عراق ما بعد صدام. لا ينافس عشية استنتاج الجابري السياسية الا تهافت استنتاجه المنطقي الذي يقر بالشرعية العقلانية لما لا معقولية له. وهكذا يضيف لنظرية المعرفة معياراً جديداً للحقيقة سماه على بركة الله (اللامعقولية المبررة تماما) مما يجعل كل تقييم موضوعي للخطأ والصواب ضرباً من المحال ! هذه الدرجة صفر من التفكير المنطقي علامة فارقة على غياب الفكر النقدي. ينضاف اليه انتشار الببغائية والطاعة العمياء لسلطة القائد (الاستشهادي) التي يقدم عنها عبدالوهاب الافندي شهادة حية : (رويت في وقت سابق حكاية المسؤول الايراني الكبير الذي طفق يجادلني بأن الحرب ضد العراق واجب ديني لا يجوز التخلي عنه ولو هلك كل الايرانيين، كان ذلك قبل ثلاثة أيام فقط من اعلان آية الله الخميني قراره انهاء الحرب ! تذكرت هذا وأنا أطلع على بعض المداخلات لانصار العمليات الاستشهادية يدافعون فيها عنها ويحملون على منتقديها قبل أيام فقط من اعلان قادة حماس عرضا لايقافها مقابل عودة الحال الى ما كانت عليه قبل الاجتياح الأخير) !

حسب مفكرينا ان يتراجع قادة (الاستشهاد الاسلامي) عن عملياتهم ليتراجعوا هم ايضاً عن تأييدها مبررين التراجع عنها بالحماس ذاته الذي برروا به الاقدام عليها كتعبير مأسوي عن غياب الفكر النقدي والتفكير الشخصي.

قال محمد اركون : العالم العربي يحكمه عسكريون بلا مشروع سياسي وتجار بلا مشروع اقتصادي. وبإمكاني أن أضيف : ومفكرون بلا مشروع فكري !

"الحياة"، 18 غشت 2002

كيف نجفف ينابيع الإرهاب ؟

- ضرورة تجريم فتاوى إهدار دماء المسلمين وغير المسلمين.
- وظيفة الفتوى تجفيف الضمير الأخلاقي لتحويل الانتحاري إلي صاروخ موجه.
- أوامر الإمبراطور الياباني للانتحاري "لا تعد حياً" وتعليمات هتلر للجلادين بحرق اليهود أحياء كانت فتاوى مماثلة في وظيفتها لفتاوى فقهاء الإرهاب الإسلامي.
- التعليم الديني الموجود يغذي التعصب الذي هو ينبوع الإرهاب.
- التعليم الديني المنشود يجب أن يغذي التسامح والفكر النقدي وحوار الثقافات والديانات.
- فقهاء الإرهاب المغاربة أفتوا ببتر حلمة ثدي المرأة المتبرجة.
- الشيخ الزمزمي أفتى بجواز قتل بن بركة ثلاث مرات والغنوشي أفتي بتحكيم السيف في رقاب الحكام المسلمين على غرار اغتيال السادات.
- إعلام وتعلىم دينيان بديلان هما الكفيلان بتجفيف ينابيع الإرهاب الدينية.

يؤكد "التقرير العربي عن التنمية البشرية لسنة 2002" أن : "معدل زيادة الدخل لكل فرد من سكان العالم العربي، خلال العشرين سنة الماضية، كان الأكثر انخفاضاً في العالم باستثناء إفريقيا جنوب الصحراء. إذا تواصل الاتجاه الحالي للنمو 5،0 % سنوياً في المتوسط، فينبغي للمواطن العربي 140 عاماً ليضاعف دخله مقابل أقل من عشر سنوات في مناطق العالم الأخرى". نعم لابد من مائة وأربعين سنة، في المتوسط، ليستطيع سكان العالم العربي، الغني بالماء والنفط، مضاعفة دخولهم ! لماذا ؟ لأن هذا العالم مكبل بسلسلة من الأمراض المزمنة : هو مريض بنصفه المشلول، المرأة، التي حكم علىها فقه القرون الوسطي بأن لا تنتج شيئاً آخر سوي القنبلة الديموغرافية التي تحكم بالاعدام على كل جهد تنموي، مريض بفقدانه كل مصداقية دولية في حقبة تمثل فيها المصداقية رأس مال دبلوماسي ثمين، مريض بنخبه الفاقدة لكل شجاعة سياسية أو فكرية، أو دينية، مريض بدكتاتورياته الدينية والدنيوية، المدنية والعسكرية، الطائفية والعائلية العاجزة عن حل أزماته وحتى عن إدارتها بنجاح لإنضاج شروط حلها، مريض بمعارضاته العاجزة بدورها عن أن تكون بديلا قادراً على امتلاك مشروع مجتمعي وعاجزة حتى عن إعادة تعريف نفسها كقوة اقتراح ومبادرة جديدة أكثر واقعية وعقلانية من النخب السائدة، مريض بغياب تداول الأجيال على الحكم فيه، مريض بتعلىمه الذي يقدم له سنوياً هدايا مسمومة بملايين أنصاف الأميين والمتعصبين، مريض بعجزه الفضائحي عن تحديث الإسلام بعد أن عجز طوال قرنين عن أسلمة الحداثة المستحيلة وأخيراً مريض بالإرهاب الذي غدا بعد الهجرة السرية السلعة الثانية التي يهرب منها ما زاد عن حاجته إلي العالم الذي يزداد كل يوم رهاباً من سلعتيه غير المرغوبتين. كل ذلك جعل العالم العربي، في المعادلة الدولية، كل يوم أقل وزناً. ويقضي الأمر حين تغيب تيم / ولا يستأذنون وهم حضور. كما جعل - وهي بارقة الأمل الوحيدة - شبابه وقواه الحية بما في ذلك جيوش صدام وميليشياته وحرسه الجمهوري يرفضون قتال الجيوش الأمريكية - البريطانية و80

% من سكانه، حسب إستطلاع فضائية ''الجزيرة'' يرحبون بأي تدخل عسكري خارجي يخلصهم من كابوس الحكومات التي كرست عبقريتها الشريرة لمنع التداول بالقضاء سياسياً أو جسدياً عن بديلها الممكن.

واشنطن تهدد الآن الجمهورية الإسلامية الإيرانية بتحريك انتفاضة شعبية فيها لإسقاطها وبإمكانها، بعد العراق، أن توجه التهديد نفسه لتسعة على عشرة على الأقل من حكام العالم العربي ! وقديماً قال شاعر :

أنا لا أذود الطير عن شجر
قد بلوت المر من ثمره !

قبل الحادي عشر من سبتمبر كان العالم يخشى تغيير نخب العالم العربي السائدة خشية استبدالها بما هو أسوأ منها. أما بعد هذا التاريخ فقد اتضح بأنه لا يوجد ما هو أسوأ منها. وهكذا وجدت نفسها فجأة أمام خيارين أحلاهما مر : إما أن تشرب حليب السباع فتنقلب على نفسها وإما أن يتقدم العالم لقلبها.

نخب الكتلة السوفيتية كابدت عجزاً مشابهاً طوال عقود لكنها استطاعت بعد سقوط جدار برلين و سقوط الجمود الاديولوجي الماركسي - اللينيني معه الذي كان يشل قواها عن الانقلاب على نفسها وتجديد دمائها ومشروعها المجتمعي أن تتحرر منه. فهل تستطيع نخب العالم العربي، بعد سقوط بغداد دون قتال، أن تسقط أيضاً جمودها الديني الأسطوري الذي أفقدها كل شجاعة سياسية - دينية - مثل تلك التي تحلت بها النخبة البورقيبية غداة الاستقلال - لتنفيذ إصلاحات باتت منذ الآن قضية حياة أو موت لمستقبل شعوبها ؟ المناسبات المأساوية هي عادة أفضل اللحظات التاريخية للإجابة على الأسئلة المؤجلة. فهل سنغتنم الفرصة الذهبية التي قدمتها لها العمليات الانتحارية الأخيرة في الرياض والدار البيضاء للمبادرة إلي تجفيف ينابيع الإرهاب الدينية بالتدابير الأولية - لكن البالغة الأهمية - التالية : تجريم فتاوى التحريض على قتل المسلمين وغير المسلمين، الاعتراف للمرأة المسلمة وغير المسلمة بحقوقها التي كفلتها لها مواثيق حقوق الإنسان وحرمتها منها الشريعة كالحقوق المدنية وحق المرأة المسلمة في المساواة في الشهادة والإرث وحق المرأة غير المسلمة في إرث زوجها وأبنائها المسلمين وحضانة أبنائها من زوجها المسلم إذا ترملت... ؟ الاعتراف للأقليات الدينية، الطائفية والأثنية واللغوية بحقوقها المهدورة على نحو لا مثيل له خارج العالم العربي والإسلامي، فتح كوة أمل أمام الشباب اليائس من المستقبل وإعادة هيكلة شاملة للتعليم عامة وللتعليم الديني خاصة ؟

الانتحاري - الاستشهادي مكتئب. أول أعراض الاكتئاب فقدان التعلق بالحياة وتالياً الميل الجارف إلي الانتحار والنحر أيضاً. ليسوا قلة المكتئبون الذين ينتحرون وينحرون معهم ذويهم دونما حافز ديني على ذلك. تقوم فتوى إهدار الدماء بوظيفتين : الأولى تأجيج ما يسميه علم النفس ''الحقد البدائي'' أو الفطرة العدوانية التي 'فطر الناس عليها. فمن الثابت علمياً اليوم أن الطفل عند الولادة مزود بطباع الإنسان منذ عشرة آلاف عام، حسبك أن تقدم له عصفوراً البيادر إلي فصل رأسه عن جسده، والثانية تجفيف ضمير القاتل الأخلاقي بتحريره من واجب إحترام الحياة البشرية. حياة الانتحاري الفاقدة للمعني تكسبها الفتوى أسمي المعاني الدينية :

الشهادة. قلما عرف في حياته الشهوة فتعده بحوريات تعود لهن بكارتهن بعد كل مضاجعة وغالباً ما يتداول مع أخوته الكثيرين على فراش واحد بمعدل 3 ساعات لكل واحد منهم

فتقدم له الفتوى شيك بدون رصيد بسبعين قصراً في الجنة ! وباختصار تسمي جريمته جهاداً وانتحاره شهادة بكل مزايا الجهاد والاستشهاد لأسرته في الحياة وله هو نفسه بعد الممات. استشهد المحلل النفساني جرار ماندل في كتابه "تاريخ للسلطة" بمشهد من فيلم "وصلت يا أيكرا" عندما يقول ايف مونتان للجمهور : "أزف إليكم هذا الخبر السيئ ثلثا المتحضرين يتحولون بين دقيقة وأخرى إلي جلادين بشعين بمجرد أن تطلب منهم السلطة ذلك ودونما إرغام" !

جلادو معتقلات الموت النازية كانوا يرمون باليهود في أفران الغاز بضمير مطمئن لأن سلطة المرشد "الفوهر" أفتت لهم بذلك، والانتحاري الياباني ينفذ حرفياً "فتوى" آمريه باسم الإمبراطور - الإله "لا تعد حياً" فيحطم طائرته في سفن العدو الأمريكي !

وهكذا يمكن القول أنه ما من جريمة حرب أو جريمة ضد الإنسانية إلا ووراء إقترافها فتوى. سلطة الفتاوى الدينية هي التي زينت للانتحاريين المسلمين ارتكاب جرائمهم. الدولية الإسلامية بقيادة القرضاوي أفتت للانتحاريين بقتل النساء والأطفال اليهود بذريعة أن : "لا وجود لمدنيين في إسرائيل فكل سكانها جنود احتياط" إذن محاربون للإسلام ! وكيف لا يكرر الإرهابيون مأساة 11 / 9 في كل بلد يتسللون إليه عندما يفتى لهم الشيخ سفر عبد الرحمن الحوالي بأن مأساة 11 / 9 هي مجرد "معاملة بالمثل" جائزة شرعاً وكيف لا يقتلون كل أمريكي يعترض سبيلهم عندما يفتي لهم الشيخ على بن الخضير بأن كل الأمريكيين محاربون للإسلام : "يجوز قتل من قاتل منهم ومن لم يقاتل كالشيخ الهرم والأعمي والذمي باتفاق العلماء" !

وكيف لا يقتل الانتحاري أي حاكم مسلم يقع في مرمي سلاحه عندما يقول له الشيخ راشد الغنوشي :

"فالأمراء المتحدث عنهم في النصوص هم أمراؤنا" أما الحكام المسلمون المعاصرون "المتمردون على الشريعة فهم أذناب الشيطان" لذلك وجب تحكيم السيوف في رقابهم ! أو عندما يقول له الشيخ عبد الباري الزمزمي في الأسبوعية "التجديد"، لسان "حزب العدالة والتنمية" المندمج ظاهرياً في المجتمع السياسي المغربي بنوابه في البرلمان : المهدي بن بركة ليس شهيداً "فكيف يكون شهيداً من لو جاز قتله ثلاث مرات لكان ذلك جائزاً في شرع الله ؟"

من ترفع عنهم مثل هذه الفتاوى الإرهابية الشعور الصحي بالذنب حيال جريمة القتل و من يغسل مثل هذا الإعلام المسموم أدمغتهم لا يتورعون عن قتل "أطفال المسلمين إذا احتمي بهم الكفار" كما علمهم ذلك فقه القرون الوسطي الذي مازال يسمم وعيهم !

خطبة الجمعة ومواعظ الدعاة تلعب نفس دور الفتاوى والإعلام : "أثناء وقوع الجريمة [في الدار البيضاء] قال الكثيرون أن رائحتها كانت في الأجواء [..] من خطب الجمعة ومواعظ دينية وأشرطة سمعية بصرية وجماعات دينية (...) تعتبر تارك الصلاة كافراً وتحرم الموسيقي وتوصي ببتر حلمة ثدي المرأة المتبرجة"

(المختار عماري : الأحداث المغربية 20 / 5 / 2203). "تكفي العودة إلي بعض مؤلفات رموز السلفية الجهادية وتصريحاتهم الصحفية كما هو حال أبو عبيدة، عبد الكريم الشاذلي، الذي يعتبر الاحتكام إلي الدساتير شركاً ووضع الدساتير من الثمار الخبيثة

للعلمانية التي هي الجاهلية المعاصرة [...] والبرلمان ونوابه أوثان والإسلام في المغرب يعيش مؤامرة باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان" (يونس دافقير : نفس المصدر السابق).

في السعودية 50 ألف مسجد حول المتأسلمون كثيراً منها إلي منابر للتحريض على إهدار دماء المسلمين وغير المسلمين. طردت الحكومة السعودية منهم 27 / 5 / 2003 - 1710 إمام وخطيب جمعة وداعية ومؤذن وهو مؤشر إيجابي على الإتجاه إلي إسكات الدعاية إلي القتل. لكن لا شيء يمنع الإرهابيين المهووسين بالقتل من التسلل إليها ليذكروا فيها أسم بن لادن بدلاً من اسم الله. ربما كان الحل الأنجع هو غلقها في وجوههم كما فعلت تونس في 1991 عندما أغلقتها في وجه الإرهاب المتستر بالإسلام وفتحها للصلاة فقط... لأن الإسلام السياسوي جرد المساجد من وظيفتها الأصلية كأماكن للعبادة ليحولها إلي أوكار للإرهاب.

من أين جاءت هذه الفتاوى وخطب الجمعة ومواعظ الدعاة ودعاية بعض الإعلاميين ؟ وكيف جندت الانتحاريين لتنفيذها بضمير مطمئن ؟ وكيف أوجدت جمهوراً يهلل لهم ؟ الأسباب عدة أشدها خطورة الإعلام المتأسلم والتعليم المنحط والتعليم الديني ذو المناهج الفقهية العتيقة والمدرسين الذين تشربوا هذا التعليم بدورهم والذين تنتمي شريحة واسعة منهم إلي تنظيمات الإسلام السياسوي. وهكذا فالإعلام والتعليم يتعاونان على غسل أدمغة التلاميذ والطلبة من كل ذرة عقل ليتنافسا على تلويثها بفقه القرون الوسطي وخاصة أكثر مدارسه تعصباً : الحنبلية. تأثر هذا الفقه كثيراً بمناخات الحروب الصليبية الجهادية وترعرع في منتصف ليل الحضارة العربية الإسلامية عندما ملأ خفافيش الفقهاء المتعصبين ساحتها فكفروا المنطق والفلسفة والمعتزلة والأشاعرة والشيعة الذين أفتى الفصامي ابن تيمية بأن "من شك في كفرهم فقد كفر" وأغلقوا باب الاجتهاد واضعين بذلك حداً حاسماً لفقه الدراية لحساب فقه الرواية وعسكروا الفقه واختزلوا 6232 آية قرآنية إلي آيات القصاص والسيف التي لا تتجاوز 448 آية والحال أن المصحف ليس مدونة جزائية ولا موسوعة للعلوم الحربية أو للفزياء الفلكية أو للجغرافيا أو للتاريخ أو للطب بل هو حصراً كتاب روحي كما قالت الفقيهة المصرية بنت الشاطئ منذ 1965 لكن صوتها لم يجد آذاناً صاغية إلا لدي النخبة التونسية. لماذا. لأنها الوحيدة التي تسلحت بالشجاعة السياسية والفكرية والدينية فطورت أفكار محمد عبده وتلامذته إلي أقصي منطقها الإصلاحي : القراءة التاريخية للقرآن. أي الاجتهاد في ما فيه نص لتكييف الإسلام مع متطلبات الحداثة. ثم خصبت الإصلاح الإسلامي بفلسفة الأنوار الفرنسية التي أحلت قوانين العقل محل قوانين الغاب والقيم الإنسانية الكونية محل القيم الإثنية والدينية المتعارضة مع حقوق الإنسان والمواطن وأخضعت النقل للعقل أي للفكر النقدي. لكن العقل ليس في حالة حرب مع الدين بل يفهمه على ضوء العلوم المرصودة لدراسته كتاريخ الأديان المقارن والسيوسيولوجيا الدينية وعلم النفس... لكن الدين الذي لا تخضع أحكامه الدنيوية للفكر النقدي ولا يؤطره العقل بقيمه وعلومه ومؤسساته يسقط في التعصب أي يتحول إلي ظلامية وتفتيش في الداخل وإرهاب في الداخل والخارج على غرار ما تري في كثير من البلدان العربية والإسلامية. ما العمليات الانتحارية في الرياض والدار البيضاء باليوم وفي نيويورك وواشنطن بالأمس إلا إحدى تجليات انفلات النقل من رقابة العقل بمساعدة الإعلام والتعليم السائدين.

رغم مأساة 11 / 9 وقبلها إغتيال السادات وفرج فوده ومحاولة اغتيال نجيب محفوظ واصلت النخب العربية، المدمنة على سياسة النعامة، غسل أدمغة شبابها بهذا الفقه الميت

والمميت. فما العمل لقلب الإتجاه ؟ حتى الآن مازال الرهان على أن تقرأ النخب العربية والإسلامية مهامها المقروؤة والمرئية على أرض الواقع اشكالياً. لأن دلائل عدة تتضافر يوماً بعد يوم لتشهد على عجزها العميق عن حل أزماتها المزمنة. من هنا ضرورة تدخل المجتمع السياسي الدولي والمجتمع المدني العالمي ليساعد النخب الحديثة على فرض تعلىم وإعلام عقلانيين بديلين للإعلام والتعلىم السائدين.

نجاح تدخل الاتحاد الأوربي لإرغام ملالي طهران العتاة على "تعلىق" حد الرجم مؤشر واعد على احتمال نجاح تدخل جماعي للدبلوماسية الدولية والإعلام العالمي والمجتمع المدني العالمي كمنظمة العفو الدولية والمنظمة الأمريكية لحقوق الإنسان وجمعيات حقوق الإنسان في البلدان العربية والإسلامية والمنظمات النسائية في كل مكان لفرض إعلام وتعلىم يهيكلان المخيال الجمعي بقيم حقوق الإنسان والمواطن واحترام العقل بما هو قيمة القيم وتعزيز مبدأ الواقع على حساب التخييلات الهاذية وغرس فكرة الدولة - الأمة ضداً على وهم الخلافة الإسلامية الفصامي واحلال التضامن الحديث المتطابق مع القيم الإنسانية محل التضامن البدائي الإثني والديني الذي يلخصه شعار "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" !

هذا التضامن الديني هو اليوم في البلدان العربية المحرك الأول للجهاد والاستشهاد. معظم مخططي ومنفذي العمليات الانتحارية داخل البلدان العربية والإسلامية وخارجها بما في ذلك العمليتين الأخيرتين في جدة والدار البيضاء هم من "الأفغان العرب" الذين هبوا للجهاد في أفغانستان والبوسنة والشيشان استجابة لنداء التضامن الديني بعيداً عن فكرة الوطن والدولة الأمة لأن الفقه العتيق علمهم أن المسلمين أمة واحدة وأن ولاء المسلم هو للدين لا للوطن وأن تعاون المسلم مع غير المسلم خدمة لمصالح مشتركة أو تحالف المسلم مع غير المسلم لرد عدوان مسلم ناقض من نواقض الإيمان : زعيم الإسلاميين الكويتيين قال أنه لم يعارض ضم صدام للكويت إلا لأن صدام لم يكن مسلماً أي أنه لو كان أمير المؤمنين الملا عمر هو الذي غزا الكويت لأستقبله بالأحضان ! موقفه الذي يعتبر "خيانة" بمفهوم الدولة - الأمة مطابق للشرع بمفهوم الفقه الإسلامي العتيق لأن مفهوم الوطن لم يكن معروفاً في القرون الوسطى. لأن الفقه الإسلامي عجز عن مواكبة التطورات التاريخية المتسارعة التي بدأت مع العصور الحديثة فإن الإسلام التقليدي والسياسوي اليوم يعيش خارج الزمان !

النواة الصلبة في فقه الإرهاب المعاصر الانطوائى هي الانغلاق النرجسي على "نقاء الهوية" : الولاء غير المشروط للمسلمين المتأسلمين فضلاً عن ذلك والبراء المطلق من غير المسلمين سواء أكانوا أفراداً أو دولاً أو منظمات دولية كمنظمة التجارة العالمية أو منظمة الصحة العالمية وحتى الأمم المتحدة التي طالب بن لادن الدول الإسلامية بالانسحاب منها. عقيدة "الولاء والبراء" الانغلاقية قاسم مشترك بين جميع حركات الإسلام السياسوي الانغلاقية لذا قال عنها أيمن الظواهري في كتابه "فرسان تحت راية النبي" أنها هي "هدفنا الأساسي" أما الأهداف الأخرى مثل تحرير فلسطين فهي "أهداف ثانوية" تبنتها القاعدة لكونها مفهومة من "جماهير الأمة" بينما عقيدة الولاء والبراء "غير مفهومة منها" !.

فما هي النتيجة العملية للإيمان ب "الولاء والبراء" هي وجوب القطيعة السياسية، الدبلوماسية، الاقتصادية والثقافية مع غير المسلمين واعتبار البلدان غير المسلمة "دار حرب" وسكانها "بمن فيهم الأعمي والمقعد" بل وحتى ملايين المسلمين المقيمين أو

المواطنين فيها "إذا كانوا يدفعون الضرائب" محاربين للإسلام إذن لا أمان لهم !.

عقيدة الولاء والبراء من صميم فقه القرون الوسطي ومن أجلها نسخ هذا الفقه أجمل آية أممية في القرآن :

"إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل عملاً صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم" 62 / 2. القاسم المشترك هو الإيمان و"العمل الصالح" لصالح الإنسان والباقي تفاصيل.

الإعلام والتعليم الدينيان البديلان المرصودان لتجفيف ينابيع الإرهاب الدينية يجب أن ينطلقا من إعادة الاعتبار لهذه الآية التي يجب أن تنسخ الآيات السجالية مع اليهود والنصارى المناقضة لها. فهي تؤسس حقاً لشرعية حوار الأديان كافة بما في ذلك مع الصابئة : عبدة الكواكب. نسخ هذه الآية أسس لصدام الديانات والثقافات واحترابها حتى انتصار الإسلام عليها جميعاً ب "الجهاد إلي قيام الساعة" أو الفناء المتبادل.

الإعلام والتعليم البديلان يجب أن يوعيا الأجيال الطالعة وجمهور المسلمين بأن القرن الحادي والعشرين إما أن يكون قرن حوار الديانات والثقافات أي الشراكات الإقليمية والدولية والمواطنة العالمية أو لا يكون. لأن التحديات كونية ومشتركة والرد الصائب عليها لن يكون إلا كونياً ومشتركاً فالإنسانية المعاصرة على ظهر قارب واحد في بحر هائج. طريق نجاتها هو التعاون والتلاقح والشراكة والاندماج الاقتصادي والسياسي والثقافي. أما عقيدة "الولاء للمسلمين والبراء من غير المسلمين" فهي أفضل وصفة للانتحار الجماعي للمسلمين إذا لم يقطعوا معها ويجففوا إعلامياً وتعليمياً منابعها. فهل هم فاعلون بعد جدة والدار البيضاء أم سبق السيف العذل ؟

تجفيف ينابيع ثقافة الجهاد والاستشهاد

في 1996 نشرت في ''الحياة'' مقالاً بعنوان ''تجفيف ينابيع الإرهاب'' الإسلامي شرحت فيه ضرورة إعادة هيكلة التعليم كمدخل لا غني عنه للتنمية المستديمة التي تتطلب إصلاحاً دينياً حقيقياً وحداثة فكرية وقيمية وثقافية وتشريعية واجتماعية واقتصادية وسياسية. منذ ذاك التاريخ وإلي أن منعني صاحب ''الحياة'' من الكتابة فيها في نهاية 2002 لم أتوقف عن توعية نخب العالم العربي المفتقدة للشجاعة الفكرية والسياسية والدينية بأهمية تبني التجربة التونسية التشريعية والتربوية. الأولى حررت المرأة من رق فقه القرون الوسطي والثانية حررت رؤوس الأجيال الصاعدة من عوائقه الدينية التي أعاقت عقول المسلمين قروناً عن التفكير العقلاني والعلمي، والسياسي، والاقتصادي... كيف جفف التعليم التونسي ينابيع التعصب أي رُهاب الاختلاف الذي هو الجذر التربيعي لعداء المرأة وغير المسلم والعقل والحداثة؟ بإدخال الفلسفة (البرنامج الفرنسي) منذ بداية التسعينات للسنتين الأخيرتين من التعليم الثانوي وإلي جميع الاختصاصات بما فيها الطب والدراسات الدينية لتدريب طلبتها علي اكتساب الفكر النقدي الذي يقدم كل إدعاء ديني أو دنيوي أمام محكمة العقل لمساءلته عن شرعيته العقلانية ويحصن عقولهم ضد الأحكام المسبقة والجمود الذهني والنرجسية الجمعية ووهم الحقيقة المطلقة وتعليمهم أن الحقيقة المطلقة الوحيدة هي أن لا شيء بمطلق لأن كل حقيقة هي دائماً جزء من حقيقة أشمل برسم الاكتشاف، وبإدخال تدريس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواثيق اللاحقة التي عمقته الكفيلة بتحرير وعي الشباب المسلم من سطوة قيمتي الحلال والحرام الشرعيتين وتخصيبه بالقيم الإنسانية والكونية وتحصينه ضد انتهاكها والسكوت عن انتهاكها، وبإدخال علوم الحداثة إلي دراسة الظاهرة الدينية لجعلها في متناول العقل لاكتشاف أسرارها ودلالاتها التاريخية، الاجتماعية والنفسية سواء من خلال تاريخ الأديان المقارن الذي يلقي أضواء علي المسارات التاريخية لتكون الأديان وتطورها وتلاقحها. فلا سبيل لفهم تاريخي للديانات التوحيدية الحية، اليهودية، المسيحية، الإسلام، من دون مقارنتها بالديانات الوثنية الميتة، البابلية والمصرية خاصة، التي تطورت عنها، أو من خلال السسيولوجيا الدينية الضرورية لفهم وظائف الدين في رهانات الفاعلين الاجتماعيين الذين كثيراً ما يستخدمونه لأهداف دنيوية، أو دراسة الظاهرة الدينية بعلم النفس للكشف عن الحاجتين الأساسيتين اللتين يلبيهما الدين : حاجة الكائن الإنساني الهش نفسياً أو اجتماعياً للحماية الأبوية وحاجة النرجسية البشرية إلي حياة أخري بعد الموت إذن إلي الخلود.

حتى الآن لم تستلهم أية نخبة عربية، بسبب الجبن السياسي والفكري الديني، هذه التجربة التربوية الرائدة والفعالة في تجفيف ينابيع ثقافة التكفير والجهاد والاستشهاد لأن عجز هذه النخب المزدوج عن حل أزماتها المتلاحقة وعن إدارتها بنجاح في انتظار توفير شروط

حلها يردعها عن مواجهة التحديات في الوقت المناسب. لكن بما أن كل تحد داخلي لا يرفع في الإبان يتحول إلي تحد خارجي، فقد تبنت الدبلوماسية الدولية والإعلام العالمي والمجتمع المدني العالمي ترشيد وتحديث التعليم والتشريع في الدول العربية والإسلامية. فولا تدخل الاتحاد الأوربي لما ''علقت'' إيران قانون الرجم الغابي.

التعليم الديني هو المرآة التي تعكس صورة الأيديولوجيا الرسمية علي حقيقتها، إذن كل إصلاح حقيقي لابد أن ينطلق حكماً منه. ما يسود التعليم الديني بدرجات متفاوتة من بلد إلي آخر هو عداء غير المسلم والمرأة والترويج المكثف لثقافة الجهاد والاستشهاد التي تغسل عقول الناشئة بتحريضهم علي أن يكونوا قتلة وقتلي وجمهوراً للقتلة. قطعاً الناحر _ المنتحر يائس، مكتئب عجز عن إعطاء حياته معني في الحياة فغطي لا شعورياً عجزه بإعطائها معني بعد الموت يتدارك به ما فاته من ملذات الحياة، وهو أيضاً فريسة لشعوره الساحق بالذنب الموروث عن طفولة جريحة.. لكن الحرمان الجنسي وتمجيد الاستشهاد وتعداد مزاياه سواء في التعليم أو الإعلام أو خطبة الجمعة أو فتاوى التكفير والتحريض علي قتل غير المسلمين لعبت بلا شك دوراً محورياً في تغليب غريزة الموت علي غرائز الحياة في الناحر_ المنتحر : الاستشهادي في فلسطين والرياض والدار البيضاء وفي نيويورك وواشنطن...

البؤس الجنسي باعث أساسي من بواعث الاستشهاد. وقادة الإستشهاديين يعون ذلك ويستخدمونه بدهاء : أبو نضال قبل ستة شهور من قيام إرهابييه بعملياتهم يعزلهم عن بعضهم بعضاً ويمنعهم من كل احتكاك بالنساء، حسن الترابي يزف بنفسه الشهداء الذين سقطوا في قتال إحيائي ومسيحيي الجنوب إلي حوريات الجنة يوم موتهم. صدر كتاب لمستشرق ألماني يؤكد فيه أن انتحاريي حماس يحمون أعضاءهم التناسلية قبل تفجير أنفسهم حتى تبقي صالحة للجماع ليلة الزفاف علي حور العين !

في 1996 استنجدت أم جزائرية بأستاذ جامعي عسى أن يقنع ابنها الذي سقط في امتحان الباكالوريا (الثانوية العامة) بعدم الالتحاق بمقاتلي الجماعة الإسلامية المسلحة فدار هذا الحوار :

الأستاذ

- أتعلم يا مصطفى أنك لن تعيش أكثر من تسعة شهور من تاريخ التحاقك بالجماعة الإسلامية المسلحة؟

- لا يا عم أملي في الحياة معهم لا يتجاوز السبعة شهور. إذا شاء الله وانتصرنا فعلاً هذه المرة على ''القوم الكافرين'' فسنبني الجنة علي أرض الجزائر، وإذا حان أجلي وقتلت في سبيل الله فسيكون لي أجر الشهيد : لا أذوق أهوال عذاب القبر ولا أنتظر قيام الساعة لدخول الجنة بل أدخلها فوراً ولا أذوق آلام الموت وتلى عليه : ''ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءً عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون'' (169-170 آل عمران).

لنطبق باختصار شديد علوم الحداثة لتفكيك أسطورة الاستشهاد أي تجاوز الفهم الحرفي إلى الفهم الرمزي. السسيولوجيا الدينية تعلمنا أن الدين ليس معطي محايداً بل رهان لخدمة استراتيجيات معلنة حيناً ومضمرة أحياناً. هدف هاتين الآيتين اللتين نزلتا إثر هزيمة أحد

كما يقول المفسرون في سبب نزولهما -وأسباب النزول مصدر لا غني عنه للتفسير السوسيولوجي للإسلام - هو رفع معنويات المسلمين التي انهارت بعد هزيمتهم في معركة أحد فخشي النبي عن صواب أن يتقاعسوا عن الجهاد معه فكان لابد من رفع معنوياتهم وتعويضهم عن الخسارة التي تكبدوها في متاع الدنيا أو ما خلفوه وراءهم منه بعد هزيمة أحد بمكاسب ثمينة بما لا يقاس من متاع الجنة تزهدهم في كل ما خسروه من متاع الدنيا خاصة وقد رأي في التحضير لغزوتي بدر وأحد أن الحماس بين الأنصار وبعض المهاجرين كعثمان بن عفان لم يكن كبيراً. نفور المسلمين من الجهاد والاستشهاد سيتكرر مراراً بعد ذلك حتى بعد فتح مكة الذي أمن النصر النهائي للإسلام : في غزوة تبوك ضد الروم البيزنطيين تقاعس المسلمون عن الجهاد كما يقول الطبري في تفسيره فقد : ''اخترفت النخيل [= آن أوان جنيها] وطابت الثمار، واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج فقالوا : منا الثقيل وذو الحاجة والضيعة والشغل فأنزل الله'' : ''يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله إثاقلتم إلي الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل'' (38 التوبة).

استراتيجيا الترغيب في الجهاد بمتاع الآخرة الأكثر بكثير من متاع الدنيا استراتيجيا ثابتة منذ آيتي الاستشهاد غداة هزيمة أحد. يروي الطبري عن ابن عباس أن النبي قال : ''لما أصيب أخوالكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي إلي قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم فانزل علي رسوله هذه الآيات''. الخوف من ''الزهد في الجهاد والنكول [التراجع] عن الحرب'' هاجس استحوذ علي النبي منذ هجرته إلي المدينة وتغيير استراتيجيته من إقناع أهل مكة وحلفائهم من القبائل بالدخول في دينه إلي إرغامهم علي الدخول فيه بحد السيف. سلاحه للتصدي ل ''الزهد في الجهاد'' كان الترغيب بمقارنة متاع الدنيا الزهيد بمتاع الجنة الوفير. رواية ابن مسعود تزيد من مباهج الشهداء في الجنة في رواية ابن عباس : ''... فيتطلع الله إليهم فيقول : ما تشتهون فأزيدكم؟ فيقولون : لا فوق ما أعطيتنا الجنة، نأكل حيث شئنا، إلا أن نختار أن ترد لنا أرواحنا في أجسادنا ثم نرد إلي الدنيا فنقاتل فيك مرة أخرى فقال : قضيت أن لا ترجعوا'' إلي الدنيا. وهو قرار مؤسف إذ لو رجعوا إليها وأخبروا إخوانهم في الإسلام بكل ما ذاقوه من ملذات الجنة لانتفت الحاجة إلي الجهاد ولأقبل الناس أفواجاً للدخول في الإسلام بفضل هذه المعجزة التي ما كانت لتترك مجالاً للشك في وجود الله ووجود الجنة والنار إلخ.

واضح من سياق الآية (170 التوبة) أن المسلمين كان يحزنهم أن يتركوا بعد موتهم وسائل العيش التي كانوا يتمتعون بها فهدأ القرآن من هذه المخاوف : ''ولا خوف عليهم ولا هم يحزنزن'' يقول الطبري : ''ولا هم يحزنزن علي ما خلفوا وراءهم من أسباب الدنيا ونكد عيشها للخفض [= الثراء الواسع] الذي صاروا إليه والدعة والزلفة'' لكن لم يكن كل المسلمين سريعي التصديق لهذه الحوافز الدينية ليتركوا ''ظلال نخيلهم طمعاً بالمقيل في قناديل من الذهب في ظل العرش'' بعد الاستشهاد. مع هؤلاء الشكاك لجأ القرآن إلي الوعيد في الحياة قبل الممات : ''إلا تنفروا [للجهاد] يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم'' (39 التوبة). قسوة ألفاظ هذا الوعيد تدل علي أن كمية الشكاك لم تكن هينة وتقاعسهم عن الجهاد والاستشهاد وتراجعهم عن الحرب كان جدياً. استخدام القرآن لسلاحي الترغيب والترهيب، ترغيب المسلمين الخائفين من الجهاد والاستشهاد في ثمار الجنة الشهية وظلالها الوارفة وقناديلها الذهبية وترهيبهم بالعذاب الأليم في الآخرة

والاستغناء عنهم في الحياة باستبدالهم بغيرهم، كان فعالاً بدليل انتصار الإسلام على العرب بفضل هذين السلاحين.

بعد مساءلة السسيولوجيا الدينية عن دلالة آيتي الاستشهاد لنسأل الآن تاريخ الأديان المقارن عنهما لتبديد الهالة الأسطورية لكل ما تغلفه الأسرار فيقف العقل حياله حائراً فتنطلق الرغبات والتخييلات من عقالها لتملأ الفراغ الذي لم يملؤه التفسير العقلاني المقنع. كل منطقة ممتنعة عن المعقول يسودها المنقول أي اللامعقول وفي هذه الحالة الفهم الحرفي للنص.

هذه الجنة [= الحديقة] الغناء وجدت في كثير من الديانات والأساطير بما فيها الوثنية السابقة عن الإسلام. لكن مكانها في الأرض كما في "جنة عدن" التوراتية أو في جنة قدماء الصين المليئة هي أيضاً، كجنة المسلمين، بـ "الطيور الخضر" رمز الملائكة أو جنة الأساطير الفارسية الشهوانية التي يعتقد فولتير أنها النموذج الذي استعاره الإسلام لجنته. الجحيم هو أيضاً تخييل قديم عرفه قدماء المصريين والرومان والإغريق الذين أطلقوا عليه "مملكة الموتى" التي تعج بالوحوش والشياطين الذين أوكل إليهم إله الجحيم "هاديس" تعذيب الأموات شر عذاب.

هنا نسأل أيضاً علم النفس عن المنشأ النفسي لتخييل الجنة والجحيم؟ سيقول لنا الجنة ترمز لرحم الأم حيث كان الجنين يأتيه رزقه رغداً متى شاء إلى الشهور الثمانية أو العشرة قبل الفطام حيث واصل الثدي نفس وظيفة الرحم... أما نار الجحيم فهي نار الفطام بعد الشهر الثامن أو العاشر. الفطام هو الصدمة الأشد وقعاً على الرضيع من جميع الصدمات الأخرى والتي قد تزرع فيه كراهية الآخر الشرير رمز الأم الفاطمة : "الأم المفترسة" والهوس بالجهاد والاستشهاد في سبيل الله... في سبيل الانتقام من جريمة الفطام التي مارستها أم جاهلة ومن دون مساعدة الطبيب المختص لتلطيف صدمتها المروعة. وقديماً قيل : معظم النار من مستصغر الشرر !

هل يشرب هؤلاء المتباكون على تفجيرات الرياض والدار البيضاء حليب السباع فيدخلوا علوم الحداثة إلي التعليم الديني لتخريج مسلمين عقلانيين أو علي الأقل عقلاء؟ هذا، ورب الكعبة، أنجح السبل للإنتهاء من اللعبة العبثية التي لم تعد تطاق : غسل أدمغة الصغار والمراهقين والشباب بثقافة الجهاد والاستشهاد طوال سنوات تعليمهم العقيم ثم تجنيد الشرطة والحرس والجيش لملاحقتهم بعد إقتراف جرائمهم الجهادية والإستشهادية !.

عندما كنا نصدر الإرهاب إلى "دار الحرب" كان ترشيد وتحديث التعليم وأخواته يبدو لـ "المعتدلين" ترفاً وللمتطرفين بدعة. أما الآن فها هي بضاعتنا رُدت إلينا، فالمسألة باتت منذ الآن : أن نكون غير منتجين للإرهاب أو لا نكون.

"إيلاف"، مايو 2003

الإسلاميون والمثقفون
مشروع اضطهاد

نفض الإسلاميون المعاصرون الغبار عما هو معاد للثقافة والحياة في التراث لتكفير التفكير وتبديع الإبداع، حرم فقهاء القرون الوسطي الرسم، النحت، الفلسفة وحتى المنطق : "من تمنطق فقد تزندق" (السيوطي)، "المنطق يؤدي إلى الفلسفة وما يؤدي إلى الكفر كفر" (ابن الصلاح)، ويوم نكب ابن رشد أنشد فقهاء قرطبة في جوقة : اشتغلوا بالمنطق فقالوا حقيقة / إن البلاء موكل بالمنطق، إتكأ الإسلاميون على هذا التراث الظلامي أي المعادي لنور العقل واستمدوا منه سلاحين من أسلحة الدمار الثقافي الشامل : الرقابة والقتل، يصف الكاتب الإيراني سركوهي الفصامية التي فرضتها الرقابة الإسلامية على المثقفين على هذا النحو : "يتساكن في كل صحفي وكاتب شخصان، أحدهما يكتب، والآخر يمحو ويحول الجمل إلى مجازات وتعابير مزدوجة المعني" (الاكسبرس 6/8/ 2000)، أما حزب الله الإيراني الذي لا يمكن التنبؤ بالممنوع والمسموح في رقابته، فإنه كثيراً ما أحرق كتباً سمحت لها الرقابة الرسمية بالصدور، وأحرق الدور التي أصدرتها وطارد مؤلفيها.

لم يكتف الإسلاميون في اضطهادهم للمثقفين بالرقابة، بل عززوها بالتكفير والقتل. فقد ظل الخميني طوال حياته "يفخر بالفتوى التي أصدرها بقتل المفكر الإيراني أحمد كسراوي سنة 1947" (أمير طاهري)، ولما سئل الخميني عام 1979 عن سبب إصداره أمراً بإعدام المعارضين دون محاكمة أجاب : "لأنهم مذنبون ولا حاجة لإضاعة الوقت في محاكمتهم" (نفس المصدر). واصل خلفاؤه المتشددون باسم الشريعة، تطبيق شريعة الغاب على المثقفين داخل وخارج إيران : تنص المادة 228 من "قانون الجزاء الإسلامي" على تبرئة الجاني : "إذا أثبت للمحكمة أن القتيل مهدور الدم" أي مرتد ! وباسم هذا القانون الغابي رصدت مؤسسة الشهداء التابعة لمرشد الثورة جائزة بمليوني دولار إضافة إلي النفقات، لقتل الروائي سلمان رشدي. وباسم هذا القانون أهدر البوليس السياسي الإسلامي دماء 180 مثقفاً إيرانياً سجلوا على "القائمة السوداء" الشهيرة، اغتيل منهم أربعة، ولولا تدخل الرئيس محمد خاتمي لكان أعضاء القائمة اليوم تراباً في التراب !

حمام الدم الإيراني الذي دشنة الانقلاب الإسلامي في 1979 أيقظ في نفوس الإسلاميين خارج إيران الحقد علي الاخر المتأصل في نفسيتهم التي تشربت الآخر كمنتهك لـ "طهارة الأم" إذن كعدو برسم التصفية. مثلاً لا حصراً، شنق حسن الترابي في 1985 الفيلسوف المتصوف محمد محمود طه بتهمة "الردة"، وسنة 1999 أقرت محكمة الاستئناف في الخرطوم الحكم على فنان ب 260 جلدة بالتهمة التفتيشية التي نفض

الإسلاميون عنها الغبار : "الإساءة إلي الدين". في لبنان اغتال إسلاميون من جزب اللـه مهدي عامل وحسين مروة الذي كان علي فراش الموت ! في مصر أقام إسلاميون دعوى الردة على محمد عبد الوهاب من أجل أغنية "من غير ليه ؟" وأصدروا حكماً بردة نصر حامد أبو زيد وغرس إسلاميون آخرون خنجراً في رقبة نجيب محفوظ تنفيذاً لفتوى بردته من أجل "أولاد حارتنا". بفتوى مماثلة اغتال إسلاميون فرج فوده، عندما سأل القاضي الجاني لماذا إغتاله ؟ أجاب : لأنه علماني، ولما سأله مرة أخرى : ما معني علماني ؟ أجاب : لا أعرف ! ولما سئل القاضي محمد الغزالي، أحد أقطاب الإخوان المسلمين عن حكم اللـه في القتلة، أجاب بكل يقين المتعصب : "لقد نفذوا فيه حكم الردة الذي تقاعس الإمام عن تنفيذه"، عاد القاضي يسأله : وما حكمهم إذن ؟ أجاب الغزالي : "رمز الإعتدال لقد افتاتوا على الإمام والافتئات (الاستبداد بالرأي) لا عقوبة له في الإسلام"، بعد سماع فتوى الغزالي بإهدار دم فرج فوده صرخ القاتل : "الآن أموت وضميري مرتاح" لأن وظيفة الفتوى هي استكمال تجفيف ضمير المتعصب الأخلاقي برفع الذنب عنه، ليغدوا جاهزاً ككلب الطريدة للانقضاض على فريسته دون تفكير.

في الجزائر اغتال الإسلاميون أكثر من 60 مثقفاً بينهم الشاعر الطاهر جعوط والجامعي الجيلالي اليابس الذي تبنت جبهة الإنقاذ الإسلامية على لسان رئيس بعثتها البرلمانية في الخارج أنور هدام اغتياله في تصريح لوكالة الأنباء الفرنسية، والجدير بالذكر أن متطرفاً تونسياً كتب معلقاً علي اغتيال هذا المثقف الجزائري : "العلمانيون (التونسيون) المتحالفون مع النظام سيكون مصيرهم مصير اليابس"، وأخيراً لا أخراً، أصدر يوسف القرضاوي الذي يكاد ينعقد الإجماع على اعتداله، فتوى بتكفير حيدر حيدر وتكفير روايته "وليمة لأعشاب البحر" و"تكفير كل من يقول عنها إنها إبداع" أي غالبية المثقفين والمبدعين والنقاد في مصر والعالم العربي حتى من يختلف معه في مضمونها السياسي مثلي. لا يشك لحظة في شاعريتها الخلابة. فتوى التكفير إهداراً لدم من تم تكفيرهم وتحريض لكل مؤمن على تنفيذ حكم التكفير فيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا !

اضطهاد الإسلاميين للمثقفين بمصادرة كتبهم، بمطاردتهم، بإصدار الفتاوى بقتلهم، بمحاكمتهم، بإعدامهم وباغتيالهم يأخذ بتكراره وانتظامه في الزمان والمكان حكم القانون. لا شك أن سؤالاً يرف على الشفاه : لماذا يكفر الإسلاميون التفكير والمفكرين ويبدعون الإبداع والمبدعين ؟ كمشروع إجابة مفتوحة للنقاش أقدم خمس فرضيات متكاملة :

1- التعصب المتأصل في بنيتهم النفسية يوهمهم بأنهم يمتلكون المعرفة الإلهية التي لا مزيد بعدها لمستزيد. حقيقة المتعصب هي في الواقع وهم لذيذ يلوذ به كبديل عن حقيقة مريرة لا يستطيع مواجهتها دون أن يفكر في الانتحار، وهذا ما يجعله يعيش لا شعورياً كل معارضة لها أو حتى مجرد اعتراض عليها كعدوان شخصي عليه، كنفي للمعنى الذي أعطاه بتعصبه لحياته، وهذا ما يهيؤه للعدوان والقتل كما لو كان في حالة دفاع شرعي عن النفس.

2- هم أيضاً مسكونون بروح تبشيرية تجعل رغبتهم في توجيه (Le désir de diriger) البشرية وهدايتها إلى سواء السبيل هوسية. هذه الرغبة في التوجيه هي كما يقول علم نفس الأعماق، مزيج من النرجسية والسادية والميل إلى التلصص من ثقب الباب مما يجعل المصاب بها مدفوعاً دفعاً إلى فرض وجهة نظره على الآخرين أي على جميع الذين لا يؤمنون بها كما لو كانت إرادة إلهية فيما هي لا تمثل في الواقع إلا تعبيراً باتولوجياً عن بواعثه وصراعاته الشخصية اللاشعورية.

3- عجز النخب السائدة في الفضاء العربي والإسلامي والفاقدة لشرعية الإنجازات عن الفصل الضروري بين المواطن والمؤمن، بين الدين والسياسة، وتالياً بين الدين والبحث العلمي والإبداع الأدبي والفني حتى يتشرب الوعي الجمعي هذا الفصل الذي هو لب الحداثة.

4- التثبت في المرجعية الفقهية القروسطية التي لم تجدد بعد، أي لم تتكيف مع روح قوانين العصر التي هي حقوق الإنسان التي تقدم حرية التعبير والتفكير والاعتقاد وتساوي بين جميع المعتقدات، وتعتبر كل قانون مناقض لها فاقداً للشرعية وجديراً فقط بأرشيفات تاريخ الأفكار، لقد بات لزاماً على جميع دولنا التي وقعت على مواثيق حقوق الإنسان التي صاغتها الأمم المتحدة أن تحترم توقيعها بإعادة تأسيس الفقه القديم على أسس حديثة تنقذه من ماضويته. وذلك يعني إصدار قوانين تكفل لجميع الاتجاهات الأدبية والفنية والفلسفية والعلمية بالتعبير عن نفسها، وبحرية البحث والشك والتجريب وتحرير العقل والخيال من جميع العوائق، على غرار ما هو سائد في القارات الخمس، فكل استثناء للذات من المكاسب الحديثة التي تتمتع بها جميع الذوات هو عنصرية ضد الذات.

5- الإسلاميون الذين احترفوا اضطهاد الفكر والإبداع هم في الواقع جلادون وضحايا في آن، جلادون لأنهم باسم الشريعة يطبقون شريعة الغاب على الثقافة والمثقفين فيصادرون حرياتهم ويهدرون دمائهم. ضحايا، لأنهم لقنوا في معظمهم منذ نعومة أظفارهم تعليماً دينياً قديماً وعقيماً لم يخصب بعلوم الحداثة من سسيولوجيا الأديان، تاريخ الأديان المقارن، الألسنية وسيكولوجيا الأعماق. مثل هذا التعليم غرس أو رعي في وعيهم كراهية الحياة والأحياء وتالياً الانغلاق على العصر أي تكفيره، وهم أيضاً ضحية إعلام لا يقل عن التعليم إياه في تخويف مستهلكيه من معانقة الحياة الحديثة كما هي : بوعدها ووعيدها.

حسبنا أن نعرف أن أحد المحامين الذي شارك في الإفتاء باغتيال فرج فوده كانت له حصة في التلفزيون المصري يطل منها بانتظام على ملايين المشاهدين لغسل أدمغتهم تحضيراً لهم ليكونوا قتلة وقتلى، قتلة للمثقفين وقتلي من قوات الأمن !

(تدخل في ندوة عن "الإسلاميون والثقافة" عقدها النادي اللبناني في باريس)

راشد الغنوشي وأفكاره الثابتة

"راشد متواطئ مع الغنوشي، مجتمعان ويعيشان منفصلين (...) راشد معجب بالغنوشي ويعارضه سرا. راشد يتكلم بلطف والغنوشي يرفع العصا الغليظة، أحدهما هادئ والآخر عاصف، الأول ديموقراطي والثاني ثوري (...) بهذه الشخصية المزدوجة المتماثلة كل منهما هو، في آن معا، هو نفسه والآخر (...) لاشك ان مصائب أحدهما ستصنع سعادة الآخر (...) راشد يناور ويجرم والغنوشي يكذب ويهدئ (بشديد الذال والدال) تاريخ كتابات حركة الاتجاه الإسلامي (النهضة) كله هو تاريخ تكذيب الغنوشي لمناورات راشد (المصدر : كتاب "قرطاج لن تدمر" تأليف مازري حداد - باريس 2002 بالفرنسية ص 280).

هذه اللوحة السايكولوجية - السوسيولوجية لسياسة الوجهين الغنوشية رسمها السوسيولوجي التونسي حمادي الرديسي منذ 13 عاما ! عندما كان "تلميذ الخميني" يصول ويجول في تونس، الخائفة من "جند الله" العطاشى لحمام دم على الطريقة الإيرانية، مازالت راهنة بل ان الأعراض الفصامية تفاقمت في كل ما يوقعه الغنوشي أو يُسِرّه راشد بعدما يلبس طاقية الاخفاء والمخفي دائما أعظم.

خلال زيارتي الربيع الماضي للقاهرة آخذني صحفي مصري التقيتة أول مرة عن مؤاخذتي للغنوشي عن تمسكه بالنموذج الإيراني الدموي مع انه تجاوز ذلك وندم عليه... سألته : من أي لك هذه القناعة ؟ أجابني : كتابه "الحريات العامة في الدولة الاسلامية" (بيروت 1993) هل قرأته بنفسك ؟ أجاب : لا، ولكن صديقا أثق فيه قرأه... غداة عودتي إلى باريس أرسلت له الكتاب مؤشرا بالقلم الأحمر على الفقرات التي كتبها راشد وحاول الغنوشي عبثا تلطيف وقعها الصاعق. بعد اسبوعين اتصل بي الصحفي المصري ليقول بين فرحة لذة الاكتشاف وحزن خيبة الأمل : راودتني الظنون في أن تكون النسخة مزورة لكن سرعان ما عدت إلى رشدي... الفظاعات التي أشرت عليها لا يجرأ على توقيعها باسمائهم الحقيقية الا زعماء "الجماعة الإسلامية" الإرهابية قبل توبتهم !

سأقدم للقارئ المسلح بسلاحين متلازمين : الفكر النقدي والنزاهة الفكرية بعض هذه المقاطع ليفكر فيها بنفسه داعيا إياه بحرارة إلى قراءة الكتاب ليتأكد بنفسه من أن ما لا يسمح المجال بالاستشهاد به هنا لا يقل عن هذه المقاطع فظاعة.

لسان الغنوشي وفكره لا يتطابقان أبدا فهو قلما يقول علنا ما يضمره ولا يضمر ما يقول، شأن جل المتأسلمين ذوي الوجهين. فقد قال السوسيولوجي الجزائري أحمد مهنأ ان السفير الأمريكي في الجزائر قيل له لماذا لم تعد تستقبل محفوظ لحناح ؟ فرد : "لأنه لن يقول لي

الا ما أريد ان أسمعه منه". السياسوي يفتقد شجاعة إعلان قناعاته الحقيقية لأنه، لا شعوريا، يشعر بالعار منها فيناور ويداور محاولا ما استطاع عدم توريط نفسه فيلوذ بحيلة مزج التطرف بنصف التطرف وعكس التطرف لتعجيز القارئ عن معرفة حقيقته الدينية السياسية وترك الباب مفتوحا للتأويل والقراءات الأخرى الانتهازية. المتأسلم السياسوي تنطبق عليه صورة الخفاش في المخيال الشعبي : "مع الفئران يوريهم سنيه ومع الطيور يوريهم جنحيه". لكن لا شعور السياسوي عادة منفلت من عقاله، جراء شعوره بالذنب وبالعار من نفسه، لذلك سرعان ما ينصب له فخا ما بين فقرة وأخرى ليشكف عن مكنونه في زلات قلمية تستفز أحيانا حتى المسلم المتزمت فضلا عن المحلل السياسي أو القارئ النابه كما سيرى على امتداد هذه الصفحات.

أهدى الغنوشي كتابه الى "شهداء الاسلام". أحدهم مصطفى بويعلي (ص6) فمن هو ؟ يعرفه "المعجم العالمي للاسلاموية" الصادر عن دار "بلون" الفرنسية سنة 2002 كما يلي : "أول مجموعة مسلحة تشكلت في 1982 بمبادرة من مصطفى بوبعلي (...) الذي أصبح أمير "الحركة الاسلامية الجزائرية" (...) التي ضمت منذ البداية عدة مجموعات صغيرة كانت تخطط للكفاح المسلح بين 1983 و1985 من أجل التطبيق الفوري للشريعة. في 1985/8/27 هاجمت مجموعة مسلحة مدرسة الشرطة بمنطقة الصُمعة فقتلت عون أمن وفي 1987 لقي بويعلي مصرعه في كمين نصبه له الجيش (...) مساعدان وفيان لبويعلي هما عبد القادر شبوطي ومنصوري ميلاني (...) أسسا منظمتين اسلاميتين هدفهما قلب النظام الحاكم : "الحركة الاسلامية المسلحة" و"الجماعة الإسلامية المسلحة" (ص ص 52 و 347 و348). في هذا الإرهابي الذي يحمل دماءا على يديه تعرف الغنوشي عن نفسه فيه وعده شهيدا من شهداء الاسلام". ولكي يقدم الغنوشي نفسه كـ "أممي" بلا ضفاف لا يعرف التعصب الديني ضد غير المسلمين إلى قلبه سبيلا أهدى كتابه أيضا الى "مساجين الحرية من كل مِلّة من المكافحين ضد الطغيان المحلي والدولي وعلى رأسهم غنزالو رئيس جماعة الدرب المضيء" الماوية المقاتلة تحت شعار "ماوتسي تونغ" "السلطة في فوهة البندقية" وأخيرا يهدي كتابه "الى القابضين على جمر الاسلام (...) في كل مكان (...) من أجل عالم يتطهر من الكفر". هذا هو مكنون لا شعور الغنوشي الديني السياسي : "تطهير العالم" بالكفاح المسلح والاغتيال من "الكفر" أي من كل ما ليس مسلما أي اسلامويا. هذا هو المفتاح السري لفهم شخصية الغنوشي الحقيقية المتعصبة والكارهة للآخر التي يراوغ دائما لإخفائها بالتأكيدات المتناقضة. وقع الغنوشي أكثر من بيان اسلاموي يحث على عمليات حماس الانتحارية ضد المدنيين الاسرائيليين التي قدمت لغلاة الصهاينة الذريعة التي يبحثون عنها لاغتيال أمل الشعب الفلسطيني في وطن ودولة. فماذا تقول هذه البيانات "لا وجود للمدنيين في اسرائيل فكل سكانها جنود احتياط" بنسائهم وأطفالهم ومقعديهم. وها هو احمد ياسين، زعيم حماس الروحي، يكذب هذه الأكذوبة عن سؤال : "هل العمليات الاستشهادية داخل اسرائيل والتي استهدفت المدنيين الاسرائيليين هي استراتيجية المقاومة ؟" يجيب رئيس حماس : "حماس على استعداد لاخراج المدنيين الاسرائيليين من دائرة الاستهداف شريطة أن توقف اسرائيل سياستها ضد المدنيين الفلسطينيين" (الوطن العربي : 2003/2/14)..

كما ينكر وجود مدنيين في اسرائيل ينكر ان تونس والجزائر ومصر الخ دول مستقلة ولم تعد في حاجة الى الكفاح المسلح لكي تتحرر : "المؤلف (الغنوشي) لا ينظر الى المرحلة التي تعيشها تونس والبلاد المماثلة على انها مرحلة الصراع بين الدولة العلمانية والدولة الاسلامية، فتلك مرحلة متقدمة من الصراع فنحن في حال اشبه ما تكون بالكفاح التحريري ضد الاستعمار وحركتنا اليوم أشد وضحاياها أكثر (...) ان الصراع هو بين ان

نكون أو لا نكون" (ص21). عندما رفع الغنوشي هذا الشعار الشكسبيري كان البعض في حركته يناقش خطر هذا الخيار الانتحاري على حركتهم لكن "الشيخ" أغلق باب النقاش بضربة على الطاولة : "قبل ان نبني دولتنا الوطنية الديموقراطية (...) لا مجال لأي جدل هامشي" (ص21) والعصا لمن عصى. تحريم النقاش في خيار الكفاح المسلح يعيد للذاكرة شعار ستالين لوضع حد للنقاش داخل الحزب البلشفي في 1924 : "التفكير ممنوع، اتخاذ القرار من اختصاص الرؤساء الذين يفوق ذكاؤهم ذكاءك" ولا عجب فالتوتاليتارية الاسلاموية نسخة طبق الأصل من التوتاليتارية الستالينية. لم يفهم زعيم "النهضة" ان المخيال التونسي اصلاحي يحمله سكان سهول وسواحل تعودوا على دفع الضرائب واستقبال التجار ثم السياح لا يتسع لـ "الثورة الاسلامية" التي يتوعده بها : "الانطلاقة السريعة للصحوة الاسلامية وتوسع المد الاسلامي وإستقطابه المتزايد لفكر وأمال الجماهير في التحرر والتطهر ومواجهة التحدي الغربي (...) قد تدعم هذا المد خصوصا بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران واندلاع الثورة الأفغانية (...) وبعد تنامي المطالبة بتطبيق الشريعة الاسلامية وإقامة الحكم الاسلامي" (ص25). فما هو موقف هذا "الحكم الاسلامي" الموعود من حضارة العصر ؟ : "توجهات الاسلام هي في الحرص على مخالفة الكفار حتى عد شيخ الاسلام ذلك مقصدا من مقاصد الشريعة" فيالها من شريعة تجعل من مقاصدها "مخالفة الكفار" في علومهم و ديموقراطيتهم واحترامهم لحقوق الانسان في التعامل مع مواطنيهم ! اما شيخ الاسلام الذي حول الغنوشي نصه المتهافت الى سلطة فهو ابن تيميه المصاب بانفصام الشخصية. حسب التشخيص الذي قدمه له تلميذه ابن القيم يتّضح انه مصاب بالهلوسة مثل ادعائه التكهن بأفكار تلاميذه ومعرفة مستقبلهم رغم علمه بان هذا الادعاء ناقض من نواقض الاسلام في مذهبه. لكن "شيخ الاسلام" لا تنقصه التناقضات كما لا تنقص تلميذه التونسي ! ولكن ابن تيمه أرشد من "راشد" فقد حرم قتل الحاكم المسلم اعتمادا على حديث : "ستون عاما في ظل إمام جائر خير من ليلة واحدة دون إمام". لقد أخذ الفقهاء السنة الدرس من الفتنة الكبرى فحرموا الفتنة مطلقا لما يرافقها من فوضى دامية تقضي على الأمن الذي هو الوظيفة الأولى للدولة عندهم كما عند هوبز.

كتاب "الحريات العامة في الدولة الاسلامية" رسالة جامعية ينبغي إذن ان يكون همه معرفيا لا "سياسويا عنيفا" لكن الغنوشي هو الغنوشي يظل دائما مساويا لنفسه : "ليس رائدنا (في هذا الكتاب) لذة معرفية بل ثورة اسلامية تقتلع الطواغيت والتبعية من أرض الله" (ص27). في هذا النص كما في نصوصه الاخرى لا يفلح الغنوشي مهما بالغ في التقية في كبح جماح لا شعوره الديني السياسي المسكون بأربعة أفكار ثابتة : الثورة الاسلامية الاقتلاعية، سفك دماء المسلمين وغير المسلمين حكّاما ومحكومين، عداء اليهود والمسيحيين الى درجة الرهاب ألهستيري" اذ قد رأى في زيارة قداسة البابا يوحنا بولس 2 الى تونس سنة 1998 : "غزوا صليبيا لتونس" ! والفكرة الثابتة الرابعة هي عداء حقوق الانسان. لماذا ؟ لأنها كما سيرى ذلك القارئ بنفسه عبر أقوال الغنوشي، تتنافى كليّا مع أوهامه الاسلاموية الراسخة وقناعاته اللاانسانية. فالحق في الحياة يتنافى مع فتاوي الغنوشي باهدار الدماء والحق في السلامة البدنية مع مطالبته الهوسية بتطبيق العقوبات البدنية التي ترجمها اليهود من مدونة حامورابي المكتوبة في القرن 18 قبل الميلاد، وحرية الاعتقاد يرفضها الغنوشي لأنها تعطي للمسلم الحق في الردة، والحق في المساواة بين الجنسين لأنه ينقض التفاوت بين الرجل والمرأة في الشهادة والارث والقوامية ورئاسة العائلة التي يعتبرها الغنوشي ركنا سادسا من أركان الاسلام والحق في المساواة في حقوق المواطنة وواجباتها بقطع النظر عن الاختلاف في الدين يتنافى مع اصرار الغنوشي على حرمان غير المسلمين من حقوق أساسية لا تصح المواطنة بدونها. لا

يعترف رئيس ''النهضة'' الا بالقيم اللاهوتية وفي مقدمتها قيمتا (الحلال والحرام). اما ألقيم الانسانية الكونية فقبض الريح... وباختصار قيم حقوق الانسان تتنافى جملة وتفصيلا مع ''الدولة الاسلامية'' أي التيوقراطية التي يرى الغنوشي ان المسلمين لا يرضون عنها بديلا : ''لقد تشكلت أجهزة التلقي في أمتنا على نحو يجعلها لا تستجيب الا لنداء العلماء الذين تثق في دينهم ويخاطبونها باللغة التي تفهمها، لغة قال اللـه وقال الرسول، لغة الحلال والحرام (...) والجنة والنار'' (الفصلية الاسلامية ''مرايا'' خريف 2002 باريس). أما حقوق الانسان فلا مكان لها في تراث المسلمين وأجهزة تلقيهم ومنظومة قيمهم الدينية. بل انها ''دين بشري'' على حد تعبيره يتنافى مع الدين ألالاهي. فهي منذ بدايتها مشوبه ''بشوائب بيئتها الغربية التي نبتت فيها (...) والمتأثر ولاشك بما في البيئة الغربية من ارث ديني مسيحي وبما فيها خاصة من مذهب طبيعي (الحادي) ومزاج ليبرالي علماني (يا للرعب !) لا يني يكافح من أجل نزع القداسة عن كل نشاط مجتمعي وحتى فردي إذا أمكن ممّا جعل حرية الفرد هي الأصل (...) وهو (الاعلان العالمي لحقوق الانسان) لا يعبر عن كثير من الثقافات التي تجعل مكانا أعظم للمصلحة الجماعية أو تفسح مكانا لرقابة عليا على ضمير الفرد وعلى ضمير المشرع وعلى سلطان الدولة مثل الرقابة الإلهية عبر الوحي وعلى اعلاء قيم الشريعة فوق كل سلطان وتنصيب عصر النبوة والخلافة الراشدة مثلا يقاس عليه كل حكم وهو ما جعل الثورة ممكنة والسيف ضد المستبدين ابدا مشرعا'' (''مرايا'' خريف 2002).

الدولة الاسلامية التي ''تراقب الضمائر'' ويرفع ''مرشدها'' السيف مشرعا على رأس كل معارض أو حتى معترض و''الثورة'' التي لا تبقي حجرا على حجر ما تزال هي الهاجس الملازم لتخييل الرئيس الأبدي لـ ''النهضة'' متناسيا ان هذه الدولة اقنعت بعد 22 عاما من تأسيسها في ايران 75% من الشعب و86% من الطلبة بالانقطاع عن الصلاة كما يعترف نائب بلدية طهران حجة الاسلام على زم.

هذا الاستهتار الاستفزازي بحرية ودماء البشر وحقوق الانسان لم يمنع الرئيس السابق لـ ''الرابطة التونسية لحقوق الانسان'' د. المنصف المرزوقي من توجيه رسالة مفتوحة الى ''اصدقائنا الغربيين'' الديموقراطيين لمعاتبتهم على رفض ''التورط مع الاسلامويين التونسيين حتى ولو عارضوا العنف وارتضوا قيم حقوق الانسان وقبلوا الديموقراطية (حرفيا) !'' قد لا يكون قرأ كتاب الغنوشي ولا مقال ''مرايا'' مكتفيا بما قاله له رئيس ''النهضة'' الذي لا يعزله الا الموت، في الغرف المغلقة. وهو خبير في تكييف خطابه مع نوعية مخاطبيةّ !

إيلاف 2003/03

لماذا نحن جبناء فكرياً وسياسيا ؟

ثمة حاجة موضوعية ماسة لفتح نقاش عريض وعميق في مشاكلنا المسكوت عنها التي نغطيها بطبقة كثيفة من المشاكل الزائفة. فما هو العائق الذي اعتقل عقولنا ؟ افتقارنا الى الشجاعة الفكرية والسياسية. السياسيون يخشون مخاطبة جمهورهم بلغة الحقيقة والمثقفون لا يقلون عنهم رُهابا من مساءلة تراثهم ورموزه واساطيره المؤسسة لاعادة تعريف علاقتهم بلا شعورهم الجمعي لفهمه في سياقاته التاريخية فهما عقلانيا يحررهم من سلطة النص وهو العائق الذي اعاقهم حتى الآن عن مكاشفة قرائهم بأفكارهم وقناعاتهم الحقيقية. حالنا تذكرني باسطورة المدينة التي قتلها الصمت لأن حاكمها حرّم على سكانها ترويج الشائعات تحت طائلة الموت. ذات يوم رأوا العدو يزحف على مدينتهم من كل حدب وصوب، لكن قانون الصمت اعتقل ألسنتهم فتركوا العدو يداهمهم ويدمر مدينتهم التي سماها الناجون (المدينة التي قتلها الصمت). في كل مدينة - دولة جبانة يوجد رواد قلائل يخرجون بشجاعتهم الفكرية والسياسية عن المألوف. ادونيس في (الثابت والمتحول) ومحمد اركون في اعادة قراءة النص المؤسس ونصر حامد ابو زيد وخليل عبدالكريم وعياض بن عاشور... لكن هذا الاتجاه ما زال أقليا ومحاصرا بالرقابة وخناجر الاسلاميين ! المفارقة ان الطلب متوفر يتمثل في رأي عام ثقافي يتطلب بلهفة الشجاعة الفكرية لارضاء فضوله ورغبته الصحية في الانتهاء من المحرمات العتيقة التي كسرتها معظم نخب العالم. يشهد على ذلك الاقبال الصارم على الكتب الممنوعة حتى بات الناشرون يتفاءلون تجاريا بكتاب يمنعه الرقيب : هذا العرق الموشك على الانقراض الا في عالمنا العربي. فما الذي حكم على سواد المثقفين والسياسيين بالجبن ؟ دوافع سياسية، ثقافية ونفسية.

سياسيا : افتقار الحكام الى الشرعية المزدوجة، الشرعية الديموقراطية وشرعية التفاني في خدمة الصالح العام التي تعطيهم الصدقية الضرورية لثقة جمهورهم فيهم، وتاليا الثقة بالنفس لمصارحة شعوبهم بالقرارات التي تلبي حاجتها الحقيقية وان كانت تتعارض مع مزاجها الآني، ثقافيا : ما زال النقد مرادفا في وعي النخبة للهجاء بما هو تسقط للمثالب ونية مبيتة للتخذيل. كما ما زال سواد المثقفين والسياسيين يشعرون في أعماقهم بأنهم اعضاء في قبيلة لا يليق بهم انتهاك محرماتها. القلائل الذين تمردوا على قانون الصمت تحولوا من اعضاء في جسم المجتمع الى أفراد لا يشعرون بالعار من تقديم انفسهم لمواطنيهم كما هم، ولا يخشون اختيار قيمهم وأفكارهم ونمط حياتهم باستقلال عن جمهورهم. أما العامل النفسي فموروث عن مخاوف الطفولة عندما كان الاعتراف بالحقيقة يكلف الطفل غاليا : فقد حب واعجاب الأبوين الضروريين للاحساس بالأمن الداخلي. عندما يتقلد هذا الطفل مسؤوليات سياسية وفكرية يتحول خوفه القديم الى رهاب من سحب الجمهور، الذي قام لاشعوريا مقام الأبوين، للحب والاعجاب اللذين لم يعد له عنهما غنى. تفاديا لقلق الهجر يضطر الى أن يكتم عن شعبه حقيقة أفكاره فلا يقول له الا

ما يريد سماعه.

والحال ان واجبه الاجتماعي يملي عليه ان يقول له ما هو في حاجة الى سماعه. هذا سبب، أو أحد اسباب، الفصام النادر الذي جعل نخبنا تمارس خطابين متناقضين سري وعلني، حقيقي وكاذب. تؤكد الوثائق ان عبدالناصر لم يفكر منذ 1952/7/23 الا في الحل السلمي للمسألة الفلسطينية مع اسرائيل لكنه باستثناء تصريح نادر في مؤتمر باندونغ في 1955 عن قبول قرار التقسيم سرعان ما تناساه كما أغضب جمهوره، ظل يردد الشعار الشعبوي (تحرير فلسطين السليبة) الذي استخدمته اسرائيل بذكاء في حربها الاعلامية للتحضير لحرب 1967.

لما التقى جمال عبدالناصر وبورقيبة في القاهرة سنة 1964 سأل الرئيس التونسي الرئيس المصري عن استنكافه من الاصداع باقتناعه بضرورة العودة الى قرار التقسيم فأجابه : عندئذ (حيجننوني) (الاسبوعية التونسية (حقائق)، 2002/4/17) فقال له بورقيبة : سأتكفل بذلك. وبعد يوم واحد القى خطاب أريحا الشهير فشنت عليه القاهرة، التي افزعتها مظاهرات الناصريين والبعثيين في الأردن وسورية ولبنان، حربا اعلامية ضارية. لتأنيب عبدالناصر كتب له بورقيبة رسالة شجاعة كالعادة لا زالت جديرة بالتأمل : (لقد زرت اللاجئين في المملكة الاردنية، كتب بورقيبة، ووقفت بنفسي على ما يقاسونه من حرمان وخصاصة ومسّ في الكرامة وكان بمقدوري ان أقول لهم ما تعودوا عليه من كلام معسول يثير حماسهم ويكسبني اعجابهم وتأييدهم، لكني شعرت بأن الواجب (...) انما هو مصارحتهم بما يعيد لهم الشعور بأن مصيرهم بأيديهم وأنهم المسؤولون عن صنع هذا المصير بما يقيمونه من خطط ويرسمونه من أهداف ويأتونه من أعمال، بدل التجمد في موقف المطالبة العاطفية التي تتغذى بالآمال ولا تسفر عن فعل. لم أستغرب ما ذهبت اليه بعض الصحف (...) من استنكار وثلب بقدر ما استغربت ما بدر عن بعض الاوساط المسؤولة في القاهرة بخصوص الموقف الذي وقفته والتصريحات التي فهت بها. والحال اننا متفقان في الجوهر كما تبين لي ذلك من خلال محادثاتنا الكثيرة عن قضية فلسطين (...) ولئن كان ما قلته يغاير ما ألفه الكثيرون من جعجعة لفظية لا طائل من ورائها، فإن المسؤولين العرب عامة والمصريين خاصة على علم بحقائق الامور (...) وكثيراً ما تناولنا هذا الموضوع مع عدد من المسؤولين في المشرق العربي فكانوا دوما يجيبونني بأن أكبر حسرة في نفوسهم هي اصرار العرب على التمسك بمواقف سلبية تجاه الحلول التي عرضتها عليهم الأمم المتحدة، ولقد قلتم لي بلسانكم خلال محادثة لنا عن ذلك انكم أثرتم موجة من الغضب لما صرحتم في مؤتمر باندونغ بأن ما عرضته الأمم المتحدة عام 1947 يمكن اعتباره حلا مرضيا فأجبتكم بأني مستعد لاتخاذ مواقف جريئة في هذا الصدد وأضفت مازحاً : آمل أن لا تهاجمني عندئذ أبواق اذاعة القاهرة وصوت العرب).

وبعدما يشرح بورقيبة لناصر قبل هزيمة 67 بأربع سنوات، مخاطر حرب عربية اسرائيلة جديدة واهمية كسب الرأي العام العالمي باعلان العرب قبول قرار التقسيم وضرورة اعتماد (سياسة المراحل) التي هي أكثر السياسات نجاعة وأقلها كلفة، لمساعدة الشعب الفلسطيني على استرداد حقوقه، يختم رسالته بأفضل تعريف للشجاعة السياسية : (واني لأذكر انني قلت في خطابي الى الملوك والرؤساء العرب مجتمعين في القاهرة ان الكفاح يقتضي أحياناً من المسؤولين ان يغامروا بسمعتهم وماضيهم فيجابهوا غضب الجماهير في سبيل حلول جريئة لا تظهر نجاعتها للعيان الا بعد مدة).

بعد عقد من خطاب اريحا ورسالته الى ناصر، أعاد بورقيبة الكرة مع عرفات هذه المرة

لإغرائـه بـالتحلي بالشجاعـة السياسـية. عنـدما كـان الـزعيم الفلسطيـني فـي طريقـه الـى نيويـورك لالقـاء خطابـه الشـهير لأول مـرة أمـام الأمـم المتحـدة فـي 1974/11/13 باسـم منظمة التحرير الفلسطينية التي قُبلت فيها كمراقب، قرر التوقف في تـونس لتحيـة بورقيبـة الذي سقط مريضاً بالقلب والتهاب الكبد الوبـائي والاكتئـاب الحـاد، لكن فـي لحظـات خمـود المـرض يعـود للظهـور بورقيبـة البعيـد النظـر. روى مـؤرخ بورقيبـة الرسـمي، محمـد الصياح، وقائع هذا اللقـاء لـ(جـون افريك) (العدد 2157 - 2002/5/13). شـرح بورقيبـة لعرفـات الطـابع التـاريخي للفرصـة المعروضـة عليـه : (لـو كنـت مكانـك لاغتنمـت هـذه الفرصة الفريدة لأقول للجمعية العامة للأمم المتحدة : في 1947 تبنت منظمتكم قراراً قسّم بلادي فلسطين بين اليهود وبيننا. اعتبرنا هذا التقسيم ظلماً تاريخياً كبيراً وهو فعلا كذلـك لأنه سلب الفلسطينيين نصف أراضيهم الـتي سكنوها قرونـاً وطردهم من ديـارهم، لذلـك رفضتـه قيادتنـا آنـذاك وهذا طبيعـي. لكنـي جئـت اليـوم لأقـول لكـم باسـم منظمـة التحريـر الفلسطينية التي تمثل الفلسطينيين وتدافع عن مصالحهم، بـأنني أقبل منذ الآن بهذا التقسيم حـتى أجنِّـب شـعبي وجيرانــي آلامـاً جديـدة... أطـالبكم فقـط بمساعـدتنا علـى تطبيقـه). رد عرفات دونما تفكير : (سيدي الرئيس تستطيع أنت أن تقول ذلك أما أنا فلا. لو أقولـه فلـن يتبعـني أحـد. أمـا إذا صـرحت أنـت بـذلك عنـدما أكـون أنـا فـي نيويـورك فربمـا اسـتطعت بطريقـة أو بـأخرى الاستشهاد بتصريحك). نظـر بورقيبـة الـى سـاعته وقـال لزائـره : (لا تتأخر عن طائرتك). بعد انصراف عرفات التفت بورقيبة الـى مؤرّخـه وتنهد : (يـا لـه من كارثة ! لم يفهم شيئاً. اذا واصل العرب على هذا المنوال فسيضيعون فلسطين كما أضاعوا الاندلس).

من عبدالناصر الى عرفات أخلت الشجاعة السياسية مكانها لسياسة النعامة التي قادتنـا مـن هزيمة الى أخرى. وكل هزيمة ونحن بخير !

"الحياة" يوليو 2002

متى سنقيم الحداد على ما فات ومات ؟

كما أن لنا مشكلة مع التاريخ الذي قلما انتفعنا بعبره، كذلك لنا مشكلة مع الزمن الذي مازلنا نعيش، فكراً وممارسة، خارجه. تشهد على ذلك أرقام ووقائع تقرير برنامج الأمم المتحدة للتنمية البشرية والصندوق العربي للتنمية الاجتماعية الذي أرجو بحرارة أن يقرأه الجميع لاكتشاف السر الذائع : اننا أمة أمية متأخرة في الاقتصاد والسياسة والتعليم والعلم والتكنولوجيا، ومتقدمة في هضم حقوق الإنسان والمرأة والطفل والأقليات. لماذا ؟ لأنها عجزت عن إقامة الحداد على كل ما فات ومات من ماضيها، مما جعلها تعيش نفسياً وثقافياً بمفهوم للزمن خارج الزمن الحديث : في الزمن الزراعي. أما (غيرنا) فيحيا في الزمن الصناعي، زمن الثورة الصناعية الثالثة القائمة على التكنولوجيا الجديدة ومجتمع المعرفة. الفرق بين الزمنين نوعي. الزمن الزراعي هو زمن العود الأبدي للفصول وطقوس عبادة الأسلاف، زمن الحنين إلى الماضي، زمن الاتكال على القوى الخارقة للتدخل في التاريخ، زمن ركود الانتاج المادي والفكري.

أما الزمن الصناعي فهو الزمن التاريخي، زمن القطيعة مع الماضي الذي اقيم الحداد على كل ما هو ميت ومميت فيه، زمن التراكم المتواصل للمعارف ورأس المال، زمن الاستراتيجيات، زمن المشروعات المجتمعية والرهافات المستقبلية والروح (الفاوستية)، زمن التدخل الواعي في التاريخ لضبط اتجاهاته بالتحكم في تأثيراتها الجانبية بدلاً من إضاعة الوقت في محاربتها اللامجدية والكارثية معاً. كما نفعل نحن مع العولمة وعالم القطب الواحد لما بعد 2001/9/11 مثلاً !

لماذا فشلنا طوال قرنين في الخروج من الزمن الدائري، الذي لا تتجه بوصلته إلا إلى الماضي، وفي الدخول في الزمن الخطي المتجه كالسهم إلى المستقبل ؟ بسبب اخفاقنا الذريع في إقامة الحداد على حنيننا إلى الماضي، إلى عصرنا الذهبي وأحلام اليقظة المصاحبة له. ما الحداد ؟ الألم على فقد عزيز سواء كان بشراً أو وطناً أو مثلاً أعلى، تمر مراسم الحداد الطبيعي الذي ينتهي بنسيان الفقيد بثلاثة اطوار :

أ- رفض الاعتراف بالواقع، انكار حصول الفاجعة : (كلا، عزيزي، لم يمت بل غاب فقط وعما قريب سيعود)، الانطواء النرجسي أي التماهي بالفقيد باستبطان خصاله لتخفيف آلام فراقه وعقاب الذات بالصدود عن غرائز الحياة عبر الافراط في احياء ذكراه والتقيد الصارم بتراثه.

ب - التسليم بالأمر الواقع، أي الاعتراف بأن الحدث الأليم قد وقع. ارتداء ثياب الحداد ثم نزعها كرمز لوداع الفقيد إلى الأبد وقبول مواصلة الحياة من دونه.

ج - فك التماهي بالفقيد بالتحرر من الرق النفسي له أي لذكرياته وتراثه.

هذا هو الحداد الناجح المرادف لاشعورياً لانعتاق الأحياء من وصاية الأموات. مثل هذا الحداد يتطلب من الأفراد والأمم معاً العثور على بديل - عزيز هو أيضاً - يسد الفراغ الذي تركه الفقيد. ليعطي به ورثته معنى لحياتهم يساعدهم على التفرغ لعيش الحاضر وتحضير المستقبل. القطيعة مع الفقيد لا تعني كراهيته بل حبه، كلحظة حبيبة باتت في ذمة التاريخ، وحب الحياة والأحياء أيضاً.

الشعوب التي استطاعت الدخول إلى الحداثة هي تلك التي نجحت في فك تماهيها مع ماضيها. ألمانيا لم تدخل في الحداثة إلا بعد إقامة الحداد مرتين على تراثها. اهتبلت النخبة المفكرة هزيمة بروسيا الاقطاعية أمام فرنسا البورجوازية في يينا 1806 للمطالبة أكثر من السابق بضرورة تبني النموذج الفرنسي، خلافاً للعسكريين الذين لم يروا من الهزيمة إلا مظهرها العسكري - كما فعلنا نحن مع هزيمتي 1948 و1967 - رأى فيها المثقفون هزيمة مجتمع بجميع مؤسساته التي لم تعد معاصرة لعصرها وطالبوا أمتهم بالتماهي بفرنسا التي (حققت العقل) بثورتها، حسب قول هيغل الذي قرأ في هزيمة بلاده الرسالة التي أرسلها إلى التاريخ مع جيوش نابليون : (حتى تكوني قوية، كوني حديثة)، متعرفاً في انتشار الفاتح الفرنسي على ضرورة تاريخية أملاها (الروح)، أي الحاجات الموضوعية للحقبة التي (أرادت) أن تتحقق عبر تحقيق نابليون لطموحاته الشخصية. وهو ما أسماه هيغل (مكر التاريخ). فعلاً جعلت النخبة من الهزيمة نقطة انطلاق ببروسيا إلى الحداثة : التصنيع والوحدة القومية. في 1870 هزمت بروسيا فرنسا التي ارتدت من الجمهورية إلى الامبراطورية، وفي 1907 تفوقت عليها اقتصادياً... عاد المكبوت البروسي، العسكريتاريا والانضباط التكني، إلى المانيا غداة هزيمتها سنة 1918 في صورة الحزب النازي الثأري المعادي للحداثة الديموقراطية والمهووس بعبادة الحكم الفردي والقوة وامتلاك السلاح والعودة إلى الامبراطورية والذي سيقود بلاده إلى (أم الهزائم) في 1945 . عندئذ فرض عليها المنتصرون، بمساعدة الجناح الحديث من نخبتها، إقامة الحداد النهائي على تراثها البروسي : فرضوا عليها دولة ديموقراطية فيديرالية منزوعة السلاح وأعادوا هيكلة التعليم الذي كانت النازية قد رصدته لغسل أدمغة الأجيال الطالعة.

بدورها أقامت اليابان الحداد على تراثها مرتين لسنتي 1868 و1945. ف الأولى أقامت، بثورة الميجي، الحداد على جانب من ثقافتها الاقطاعية. دشن الامبراطور، المسموع الكلمة، مسار الحداثة بفك التماهي مع الماضي بلفتات رمزية. فقد فاجأ مدعويه باستخدام الشوكة الحديثة بدل العيدان التقليدية وسماع سمفونية المانية بدلاً من المعزوفات اليابانية، وصولاً أخيراً الى تبني الدساتير ونظم التعليم الحديثة. منذ مطلع القرن العشرين عاد المكبوت التقليدي فدخلت اليابان الحرب الثانية الى جانب المحور الفاشي. غداة هزيمتها فرض عليها المحتل الأميركي اقامة حداد كامل على تراثها. لم تمنع المذبحة النووية نخبتها غير المشلولة بأساطير الماضي من التحالف مع غالبها الأميركي.

اقامت تركيا الكمالية بدورها الحداد على تركيا العثمانية بإلغاء الخلافة والتأورب في مجالات أساسية عدة. لكن ديناميكها الشرقي لم يساعدها على فك روابطها الوجدانية مع اسوأ رواسبها العثمانية، العسكريتاريا وقهر الأقليات. فرض عليها الاتحاد الأوروبي، لقبولها في ناديه، تشرّب ثقافته الجديدة عليها وعلى العالم : حل النزعات داخل كل دولة وبين الدول بالتفاوض حصراً والتقيّد بمواثيق الأمم المتحدة في ما خص علاقة الدولة بمواطنيها وأقلياتها. إلغاء أنقرة لعقوبة الإعدام واعترافها باللغة الكردية خطوة واعدة على

طريق فك تماهيها مع بقاياها العثمانية. أما نحن فما زلنا في آخر الطابور عاجزين عن فك تماهينا مع ماضينا بتعلم قيم وسلوكيات الحداثة ونسيان الثأر القبلي والعنف الاستفزازي واللامجدي والجمود الذهني والولع الجنوني بامتلاك السلاح وجميع العادات الأخرى التي ما زالت تشكل لنا انسدادات ذهنية ومؤسساتية. لماذا ؟ لأننا فشلنا فشلاً ذريعاً في اقامة حداد ناجح على ما لم يعد مفيداً لنا ولا مقبولاً بمعايير عصرنا الثقافية التي لم نستبطنها بعد.

فاجعة انتقالنا من أمة فاتحة الى أمة مفتوحة صعقتنا، سمّرتنا في مكاننا وأصابتنا بالاكتئاب والاضراب المفتوح عن التفكير المنطقي. وهكذا لم نستطيع استكمال مراحل الحداد للوصول الى المرحلة الأخيرة. فك التماهي مع فقيدنا العزيز - ماضينا - 1492 فقدنا الأندلس، 1924 فقدنا الخلافة، 1947 فقدنا فلسطين، 1967 فقدنا ما تبقى منها زائد سيناء والجولان... تواريخ ما زالت حية في الذاكرة الجمعية لأننا لم نسلّم بالواقع فسقطنا في الهلوسة والهذيان اللذين نلتقي بهما في الاعلام والتعليم : مستقبلنا محنط في ماضينا الذي لم يمض. حسبنا ان نعود اليه بأفكارنا وممارساتنا ليعود الينا فنلتقي في منتصف الطريق.

كم مرة رأينا صلاح الدين يعود متنكراً في صورة عبدالناصر، الخميني، صدام، بن لادن أو حتى احمد ياسين... وفي كل مرة نقول سيعيد الينا كل ما اغتصبه (الغير) منا وترتفع راياتنا خفاقة في السحب. وفي كل مرة يتضح ان الحبل كاذب والعائد نسخة مزورة ولكننا أمة لا تمل الانتظار. فعودة البطل الغائب وعد قطعناه على انفسنا وهيهات ان نخلف الميعاد ! عادة يقام الحداد على الحنين الى الماضي طوعاً أو كرهاً بعد الهزائم كدرسٍ استُخلص منها. أما نحن فكل هزيمة لا تزيدنا الا توغلاً في الهلوسة والفصام وانحلال الوعي واسقاط نوايانا على غيرنا.

مراهنتي هي على تداول الأجيال عسى ان يساعد على ظهور نخب لها من الشجاعة الفكرية والسياسية ما يكفي لإقامة حداد ناجح. على ماذا ؟ على أحلامنا الامبراطورية التي ما زالت تستعمر وعينا. في أول لقاء بين محمد حسنين هيكل ومعمر القذافي سأله هذا الأخير عن رأيه في استرداد الأندلس فأجابه : إنس الأندلس. وهم عودة الأمبراطورية لم يفارق وعينا الجمعي. وهو الذي أدخلنا جمهوراً ونخبة في هذيان جماعي يوم 1990/8/2 ظناً منا ان ضم صدام للكويت كان تدشيناً لعودة هارون الرشيد خليفةً من المحيط الى الخليج. المطلوب اقامة الحداد على الخلافة العثمانية التي أفقد الغاؤها الاسلاميين صوابهم. منذ 1924 وهم يريقون حبراً ودماً غزيرين لاستعادتها. والحداد على (تحرير فلسطين حتى آخر ذرة تراب)، الذي دفع وما زال حماس والجهاد الى التعاون الموضوعي مع اليمين وأقصى اليمين الاسرائيلي لنسف كل مبادرة لاسترداد ما يمكن استرداده منها : الضفة وغزة والقدس الشرقية. واقامة الحداد على الكفاح المسلح والعمليات الانتحارية واسلحة الدمار الشامل كوصفات سحرية لتحرير فلسطين وارهاب الغرب (عدو الأمس واليوم) !

كيف يقام هذا الحداد ؟ بإعادة هيكلة مؤسستي التعليم والاعلام ليقرأ الطالب والقارئ (بواتيي) بدل (بلاط الشهداء) من دون تحسر على عدم فتح فرنسا، و(الأندلس) بدل (الجنة الضائعة) بلا تفكير في العودة اليها إلا كسائح، ورفع خريطة فلسطين الانتدابية من الكتب المدرسية وتعويضها بخارطة الأراضي المحتلة في 67، ووضع حد في الكتب المدرسية لكل أسف على إلغاء أتاتورك للخلافة، تطهير الكتب المدرسية والاعلام من كل ما يشيطن المرأة وغير العربي وغير المسلم والغرب والحداثة والفلسفة والاجتهاد والعقل والمعتزلة

وجميع الفرق التي كفّرت بعضها في الماضي لتضطلع بتاريخنا كما هو. من اجل أي هدف ؟ اعادة تأسيس كيانات ديموقراطية فيديرالية هنا ولا مركزية هناك تتصالح مع شعوبها ومع العالم وتنسى الثارات القديمة والحديثة لتتعلم انجاز مهام التنمية المستديمة التي بها نكون أو لا نكون. اذا فشلنا هذه المرة ايضاً في اتمام مراسم الحداد فلنكتب على ظهورها : لا مستقبل لنا !

"الحياة"، سبتمبر 2002

كيف تضافر جرحنا النرجسي ونرجسيتنا الدينية على تدمير مستقبلنا ؟

لماذا تتقدم معظم البلدان إلي الأمام فيما نتقدم نحن بخطي حثيثة إلي الوراء ؟ لماذا نحن من أكثر البلدان غني بالموارد الطبيعية، النفط، الغاز والماء، ومن أكثرهم فقراً في الموارد البشرية ؟ لماذا تتضاعف معارف الإنسانية، بفضل ثورة الاتصالات، كل ثلاث سنوات بينما يتضاعف جهلنا وجبننا الفكري وشللنا الذهني ؟ لماذا تثير كلمات التسامح، الاعتدال، العقلانية، الواقعية، التنازل، والتفاوض رهابنا بينما يرقص الجميع رقصة الحرب للتصريحات النارية والثأرية ؟ لماذا يكون صدام حسين الذي ملأ العراق مقابر جماعية وملأ آذان العرب بالتصريحات العنترية أكثر شعبية من عبد الله الثاني الذي لم يقتل ذبابة ولا يحسن النطق إلا بكلمة السلام الممجوجة في آذاننا التي تطربها أناشيد الحرب ؟ لماذا نجحت نخب وشعوب الأرض في إقامة الحداد على ماضيها فيما تسمرنا نحن في حداد اكتئابي على ماضينا الذي لا يمضي ؟ لماذا يحب الناس الحياة ونحب نحن الموت العنيف : النحر والانتحار ونسميه بطولة واستشهاد ؟

عشرات الأسئلة من هذا القبيل تتزاحم في رأسي. قطعاً ليس لها جواب واحد. الإجابات أكثر عدداً وتعقيداً. ومع ذلك سأجازف بتقديم مشروع إجابة لا تقطع الطريق على الإجابات الأخرى الممكنة آملاً أن يساهم قرائي في تقديمها. مشروع إجابتي : ذلك عائد في جزء كبير منه إلي مزيج متناقض ومتفجر من الجرح النرجسي الجمعي والنرجسية الدينية أصابنا بشلل ذهني جماعي زارعاً في رأس كل منا تقريباً شيئاً من دكتور جيكيل وشيئاً من مستر هايد : العاقل - المجنون والذليل - المغرور في آن.

ما الجرح النرجسي ؟ الإحباط الذي يجعل ضحيته يحتقر نفسه، اللطمة على مرأى ومسمع من الجميع التي تخيل المرء في عين نفسه إلي لا شيء، الخصاء الرمزي الذي يجعل الشعور بالعار والدونية ساحقاً و - في حالتنا - دائماً.

لا يكاد يوجد كائن بشري لم يكتو بالجرح النرجسي لكن مصائر الجميع ليست متماثلة. لماذا ؟ الإحباط سيكون عابراً إذا كانت علاقة المرء بأبويه - أو من قام نفسياً مقامهما - قد عززت ثقته في نفسه واعتماده عليها. عندئذ يغدوا قادراً على تنزيل المحن في سياقاتها النسبية فلا تدمر ثقته بنفسه ولا تسقطه في الاكتئاب الدائم وسيظل الجرح نازفاً إذا كانت هذه العلاقة قد خربت ثقة الطفل في نفسه عندئذ. تكفي قطيعة أو إهانة لتصب الملح على الجرح النرجسي يقرأها الجريح كرسالة بأنه غير محبوب وربما غير جدير بالحب مما يحرك بين جوانحه رغبة جامحة في الثأر.

هزائم العرب طوال قرنين أمام الاستعمار الأوربي وإسرائيل عاشوها، على مستوي شعورهم ولا شعورهم الجمعيين، كجروح نرجسية، كإذلال قومي لا يغسل عاره إلا "الدم والثأر والنار" كما يقول شعار حركة القوميين العرب.

فما هي النرجسية الجمعية الدينية ؟ هي الوهم الذي يجعل المؤمن بدين ما يؤمن إيمان العجائز بأن أمته هي شعب الله المختار أو خير أمة أخرجت للناس لتنقذهم من الضلال وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر. لقد رصدها الله لهداية الإنسانية وقيادتها فكيف تتواضع لتقلدهم وتتعلم منهم ؟ فهي عندئذ تخون رسالتها ولا تعود أهلاً لثقة الله فيها. بل إن تقليدهم شكلاً أو مضموناً يغدو ناقضاً من نواقض الإسلام. تذكروا مئات الفتاوى التي حرمت علوم وقيم ومنتجات الغرب حتى البرنيطة والحنفية. "شيخ الإسلام" كما يقول الغنوشي """عد مخالفة الكفار من مقاصد الشريعة".

من أين أتي اليهود بالإدعاء بأنهم شعب الله المختار والمسلمون بأنهم خير أمة أخرجها الله للناس ليكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيداً ؟ ومن أين أتت قبيلة كالنجا الكنغولية التي قتلت باتريس لومبا وأكلته بالإدعاء بأن بلجيكا أمة أدني منها منزلة لأنها لا تأكل لحم أعدائها لتضيف قوتهم إلي قوتها ؟ أتي هذا الوهم، الذي تشترك فيه جميع القبائل البدائية والشعوب التقليدية وما تزال رواسبه حيه حتى لدي أكثر الأمم تقدماً، من المركزية الاثنية كما تسميها الإنثروبولوجيا أو النرجسية الجمعية كما يسميها علم نفس الأعماق.

الإنسان البدائي تخيل أنه مركز الكون والكائنات وأن كل ما في الأرض خلقه الله من أجله : من الشمس والقمر إلي البغال والحمير. لذلك واجهت نظرية التطور الدارونية وما زالت عداء مناضلاً لأنها أطاحت بهذا الوهم اللذيذ الذي يداعب نرجسية الكائن البشري فعاشها كجرح نرجسي، كإهانة نزلت بمرتبته من كائن فريد خلقه الله على صورته إلي قرد فإلي حشرة فإلي بكتريا وحيدة الخلية في المحيط البدائي منذ حوالي أربعة مليارات من السنين ! مركزية الإنسان، التي تتجلى لدي الطفل الذي يتوهم انه سرة الكون وسر الوجود، تولدت منها المركزية الإثنية التي أوهمت بها القبائل نفسها بأنها شعب الله المختار أو خير أمة أخرجت للناس أو قبيلة تأكل لحوم البشر بأنها أكثر تحضراً من بلجيكا !

هذه المركزية الإثنية أو النرجسية الجمعية هي التي جعلت كل قبيلة أو فرقة تعتقد بأنها هي القبيلة أو "الفرقة الناجية" الوحيدة أما باقي الفرق الأخرى فقد كتبت الأقدار على جبينها الهلاك، وبأن لغتها هي أم اللغات ومن لا يتكلمها فهو حيوان أعجم وبأن ثقافتها هي أسمي الثقافات وبأن دينها هو وحده الدين الحق أما الديانات الأخرى فقبض الريح وباطل الأباطيل. معيار تقدم الأمم من الطبيعة إلي الثقافة، من الهمجية إلي الحضارة هو انتقالها من المركزية البشرية والمركزية الإثنية، التي هي أصل العنصرية بما هي اعتقاد يتفاوت بنيوي بين الإثنيات والثقافات والديانات، إلي وحدة البشرية التي لا تميزها إلا تفاوتات في التطور التاريخي ليس إلا. عندئذ يبدأ الانتقال الصحي من تمجيد الذات الفردية والجمعية إلي نقدهما ومن المطلق إلي النسبي، ومن اليقين الأعمى إلي الفكر النقدي، ومن الإجماع إلي الاختلاف.

النرجسية الدينية عندنا مازالت قوية وبدائية. اعتقد البابليون أن قصور ملوكهم شيدت على مركز الأرض واعتقد اليهود أن هيكل سليمان مقام في مركز الأرض واعتقد المسلمون

أن مكة قائمة في مركز الأرض... كما يؤكد مرسيا إلياد انقرضت أسطورة البابليين معهم وتناس عقلاء اليهود ادعاء أسلافهم. أما نحن فما زلنا غارقين إلي الأذقان في نرجسيتنا الدينية. صفحة الدين في ''الأهرام'' مازالت تضلل وعي قرائها بهذه الأسطورة التي ازدادت عند د. زغلول النجار 'هذاءً. مكة لم تعد مركز الأرض وحسب كما اعتقد قدماء المسلمين بل أصبحت عند متأخريهم مركز الكون : ''توسط مكة المكرمة بين السماوات السبع والأرضين السبع هي حقيقة دينية لا يمكن للعلم الكسبي أن يصل إليها'' (الأهرام 28/5/2003) لأن ''هذه الحقيقة'' فانتازم لا وجود له إلا في خيال المؤمنين به. وهكذا يتحالف الإعلام الديني التقليدي مع التعلىم الديني التقليدي على مكافحة الروح العلمية، بما هي ملاحظة واستقراء واستنتاج وبرهنة صارمة، لقطع الطريق على تشرب الذهنية الإسلامية للعقلانية بما هي ثقة في العقل واحترام لقوانينه.

نرجسيتنا الدينية الهاذية تقول لنا بأن ديننا هو مركز الديانات وأماكننا المقدسة هي مركز الكون وأمتنا مركز الأمم أي خير أمة أخرجت للناس، لكن هزائمنا المتكررة، وجروحنا النرجسية النازفة تقول لنا بأننا آخر أمة بين الناس. من هذا الخطاب المتناقض جاء كثير من عللنا النفسية والاجتماعية والسياسية وأزمة الهوية العاصفة : من نحن ؟ هل نحن خير أمة أخرجت للناس أم آخر أمة في الناس ؟ ولماذا ؟ يقدم الإعلام والتعلىم الدينيان الجواب السهل : لأننا تخلينا عن ديننا فتخلي الله عنا. فلنبدأ إذن رحلة العودة إليه... لنعود إلي العصر الذهبي على ظهر حزام ناسف ينسف أول ما ينسف أملنا في مستقبل أفضل !

نرجسيتنا الدينية المتحالفة مع جرحنا النرجسي جعلت الفكر السحري، بما هو ''كن فيكون'' وخلق الفكر للفعل والكلمة للشيء وقدرة الإرادة على خرق قوانين الطبيعة والعلم، سائداً. وهو ما ترك المجال فسيحاً للهذيان السياسي ـ الديني : الاستخفاف بموازين القوى في الصراعات العسكرية والسياسية والاتكال على الله والإرادوية. لذلك تعتبر الجهادية الإسلامية قراءة الدولة ـ الأمة العربية لميزان القوة ـ وقلما تفعل للأسف ـ جريمة في حق الأمة الإسلامية :مثلاً يقول راشد الغنوشي بأن هذه الدولة ـ الأمة : ''تنتهج في سياستها الخارجية لا من موقع أنها جزء من أمة يقتضي الانتماء إليها واجبات والتزامات بل من موقع الدولة الأمة فتنظم علاقاتها الخارجية على ضوء ما تقدره من مصالح وموازين القوة'' (الشرق الأوسط 2003/5/23) لذلك أحجمت في تقديره عن ''نصرة'' الفلسطينيين و''العراق المحتل'' والشيشان الشهيد...والحال أن التقيد بالمصلحة الوطنية وبموازين القوة كما يحددها صناع القرار الحديث هو لب العقلانية السياسية.

الغنوشي ليس وحده بين قادة الإسلام الجهادى الذي يحرم التقيد بموازين القوة بل أيضاً الحركات الجهادية التي تدين بدورها التقيد بموازين القوى ''العلماني'' باسم التدخل الرباني في التاريخ وتوغل في الهذيان عندما ادعي أن المسلمين لن ينتصروا إلا إذا كانوا قلة لأنهم لم ينتصروا في الغزوات الأولي إلا عندما كانوا قلة ويوم كانوا أكثرية في غزوة حنين هزموا : ''ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم من الله شيئاً''. هزم المسلمون في حنين رغم أن جيشهم كان يعد بين 12، 16 ألف مقاتل لأنهم تنافسوا فيما بينهم على أسلاب العدو بدلاً من قتاله حتى الاستسلام. ''وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله'' (249/البقرة) أصحاب النبي كانوا قلة وكان لابد من تشجيعهم على الجهاد بحوافز مادية ودينية : ''الغنيمة والجنة ''، ونعرف من القرآن نفسه أن النبي دخل معهم في نقاش حاد جاء بصدد تقدير ميزان القوة العسكري انتصر فيه رأي أصحابه : ''يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائة، وإن يكن منكم مائة يغلبون ألفاً من الذين كفروا..'' (65/الأنفال) لكن أصحاب النبي ''استعظموا''، كما

يقول المفسرون هذا التقدير المبالغ فيه لميزان القوة العسكري ورفضوا الامتثال له فنسخت الآية فوراً بالآية التالية لها : ''الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبون مائتين..'' (66/الأنفال) لنقارن هذه الروح الواقعية عند الصحابة الذين رفضوا تقديراً لموازين القوة غير واقعي بهذيان ''حماس'' الذي يدفعها كل يوم أكثر إلي تدمير إمكانية - مجرد إمكانية تزداد مع عمي القيادات الفلسطينية نقصاناً - حصول الشعب الفلسطيني على دولة في الضفة وغزة باسم قراءة حرفية إيمانية وأسطورية للنص الديني متناقضة تناقضاً صارخاً مع حقائق عصرنا العسكرية والسياسية : والحال أن المعتزلة منذ إثني عشرة قرناً استبدلوا القراءة الحرفية، الإيمانية والأسطورية للقرآن بقراءة رمزية مرنة تكيفه مع حاجات المسلمين في كل عصر ومصر فقالوا : إن الجنة والنار مجرد رموز عكس ما يوحي به ظاهر النص... مثلاً القلب بحجم الكف فهل يحتاج إلي نار موقدة تتطلع على الأفئدة ؟ كلا، النار إذن رمزية...

لماذا تنكر اليوم قطاع عريض من المسلمين نخباً وجمهوراً لواقعية الصحابة وبعد نظرهم، عندما رفضوا الامتثال للنص المتعارض مع الواقعية العسكرية أو مع مصالحهم كما يفهمونها هم، باسم يقين ديني اعمي تكذبه حقائق الواقع المعيش وللقراءة الإعتزالية للنص ولعلوم الحداثة التي تساعد على قراءة مثمرة له تصالحه مع متطلبات عصره وحاجات معاصريه ؟ بسبب جرحهم النرجسي، الذي جعل منهم ثأريين لا يقيمون وزناً لموازين القوة أي للواقعية والعقلانية في السياسة والحرب كما جعل منهم متعصبين عاجزين عن قراءة النص الديني قراءة تاريخية تقرأ حساباً لمتطلبات الزمان والمكان وهو ما يتعارض، مع نرجسية دينية بدائية تصدم قوانين العقل والحياة جميعاً.

الجرح النرجسي والنرجسية الدينية الجمعيين جعلا كثيراً من المسلمين ذوى مزاج متقلب : الجرح النرجسي يقنعهم بهوانهم ويلقي بهم في حداد اكتئابي عضال، ونرجسيتهم الدينية تقنعهم بالعكس : بأنهم سرة الكون وسر الوجود وأن جهادهم ماض إلي قيام الساعة وأن إرادتهم واتكالهم على الله اقوي من موازين القوة. تذكروا حديث صدام لـ (سي إن إن) عشية حرب تحرير الكويت : ''سأنتصر على بوش لأن الله معي وسيهزم لأن الشيطان معه'' وكان يؤمن بكل كلمة قالها ! هذا هو السبب النفسي لغياب الواقعية والعقلانية لدي كثير من صانعي القرار السياسي والعسكري في العالم العربي.

هل سبق السيف العذل كما يعتقد د. شاكر النابلسي، عميد الجامعيين الأردنيين في الولايات المتحدة ؟ ربما فالعوامل التي تناضل لصالح هذا الاحتمال ليست قليلة. لكن الرهان على السيناريو المتفائل ليس ساذجاً، إذا تخلصت نخب العالم العربي - تحت ضغط الدبلوماسية الدولية والإعلام العالمي والمجتمع المدني العالمي - من جبنها المزدوج السياسي والفكري فأعادت هيكلة التعلىم والإعلام الدينيين لرصدهما لمكافحة عقدة الدونية الإكتئابية لتصوغ وتعيد صياغة شعور ولا شعور الأجيال الصاعدة كيما تنظر نظرة نسبية إلي إخفاقاتها وكيما تتخلص من نرجسيتها الدينية كما تخلصت منها شعوب العالم الأخرى فتعتبر دينها واحداً بين الأديان لا يمتاز عنها بشيء وأنه كجميع الأديان قابلاً للدرس والتحليل العلمي والقراءة التاريخية التي تنزله في سياقات الزمان والمكان التي لا يستطيع أي دين أن يتمرد علىها دون أن يورد المؤمنين به موارد الهلاك.

ساعة تغيير الاتجاه لم تفت بعد ولكن الساعة الخامسة والعشرين التي لا يجدي معها أي إصلاح تقترب.

عبادة الأسلاف أقامت سدا لدخول العقل إلى أرض الاسلام

في مدخل كتبته لكتاب جان بوتيرو البالغ الاهمية ''بابل والكتاب المقدس'' الذي ترجمته ونشرته دار كنعان الدمشقية بنصيحة مني، قلت التالي : حضور رواسب الفكر الاسطوري في فكرنا المعاصر مازالت ايضا مقروءة في رفض فكرة الزمن الدنيوي أي مفهوم الزمان المستقبلي، مما يجعله أسيرا للماضي الذي لا يفتأ يجتر نفسه عودا على بدء كعودة الفصول الرتيبة : زمن بداية أسطورية، أو عصر ذهبي يرمز لحقبة تخييلية أو تاريخية تسامت بها الرغبة إلى مرتبة المثال المحتذى، والقابل للتكرار في عصرنا. الدستور الايراني ينص على أن الولي الفقيه يحكم في انتظار عودة المهدي المنتظر ''عودة الإمام الغائب عجل اللـه فرجه''.

هذه العبادة الصوفية للماضي راسب من رواسب عبادة الأسلاف السحرية - الايحائية. تاريخ الاديان المقارن يعلمنا ان هذه العبادة قامت في المجتمع العشائري، حيث تسود الروابط الدموية بين أعضاء العشيرة، الممارسين لعبادة الأموات. كان الإحيائيون ومازالوا يتوهمون انهم يتصلون بأسلافهم الذين بانتقالهم إلى السماء وبتحولهم إلى أرواح صافية غدوا يملكون قوة هائلة لا يمتلكها الأحياء، مما جعل هؤلاء في حاجة لحماية الأسلاف في حياتهم اليومية. في الصين القديمة، الاحيائية، كان كل نشاط ذو معنى : خطوبة، زواج، سفر بعيد، الحصول على مهنة، يتطلب حكماً تنبيه الأسلاف إليها ليباركوها ويحموها من وراء قبورهم، وكل نشاط لا يحاط به الأسلاف علما يفتقد معناه، أي يفقد شرعيته الأسطورية فيغدو بدعة وضلالة.

هذا الرق النفسي للأسلاف يحقق به الاحيائي القديم أو المعاصر رغبة جامحة تهزأ بحقائق الواقع. وبما هو عصاب استحواذي يدفع ضحيته إلى تحقيقه مهما بدا عبثيا وكارثيا للوعي العقلاني المعطل. يصف مرسيا إياد انتظار عبدة الاسلاف في جزر الاقيانوس والكونغو كالتالي : عبّاد سفن الشحن في جزر الاقيانوس يبررون عبادتهم لها بما تقول أساطيرهم، من ان هذه السفن سيعود عليها قريبا أسلافهم من قبورهم حاملين معهم كل ما لذ وطاب، لتوفير المخازن الكافية التي تتسع للثروات الطائلة القادمة مع الأسلاف العائدين من قبورهم كانوا يأمرون بقتل حيواناتهم الداجنة التي لم يعودوا في حاجة إليها .. في سنة 1961 حدث في الكونغو حدث مشابه : في إحدى القرى : أزال السكان سقوف أكواخهم لتسهيل تساقط سبائك الذهب التي سيرسلها إليهم الأسلاف. وفي قرية أخرى أهملت جميع المسالك إلا المسلك الوحيد المؤدي إلى المقبرة لتسهيل عودة الموتى إليهم محملين بالخيرات بما أن سلف الاحيائيين الصالح أعرف بمصالح الأحياء من الأحياء أنفسهم، فإن رق هؤلاء النفسي حيال موتاهم يحول أنشطتهم القابلة مبدئيا للتعقل، إلى شعائر

عصابية قهرية لا يسعهم حيالها إلا أن يتمتموا : سمعنا لأسلافنا وأطعنا. يقول مرسيا إياد : ''عندما كان المبشر الإنثروبولوجي ''سيترابهلو'' يسأل قبيلة أرنتا الاسترالية عن سبب إقامة بعض الشعائر، كان أعضاؤها يجيبونه : لأن أسلافنا أمرونا بذلك (..)
في غينيا الجديدة يرفض أعضاء قبائل الكاي تغيير أنماط حياتهم قائلين : لأن الأسلاف كانوا يفعلون ذلك ونحن نتصرف مثلهم (..) كما ذبحوا كذلك يجب أن نذبح وكما فعل أسلافنا هكذا يجب علينا أن نفعل اليوم. نفس هذا الادعاء نجده عند الهندوس علينا أن نفعل ما فعلته الآلهة في البداية.. في قبائل الهنود على النساء أن يجلسن على أرجلهن القرفصاء وعلى الرجال أن يجلسوا وأرجلهم متقاطعة أمامهم لأن المرأة الاولى ''حواء'' والرجل قاتل الوحش ''آدم'' جلسا بهذه الطريقة في البدء.. تقول تقاليد قبيلة كرادجري الاسترالية : في زمن الحلم علمتنا كائنات خارقة للطبيعة طريقة طبخ الحبوب وصيد الحيوانات والوضع الخاص الذي يجب اتخاده عند التبول''.

ألا تذكرنا هذه الطقوس القهرية بفرض الحجاب على المرأة أو ضرورة دخول المرحاض بالرجل اليسرى والمسجد بالرجل اليمنى عند جماعة التبليغ والدعوة ؟.

الرق النفسي للسلف الصالح في تراثنا الإسلامي هو استعادة لعبادة الأسلاف التي كانت شائعة في الجزيرة العربية قبل الاسلام. القرآن يخبرنا بذلك، فقد احتج المشركون لرفضه بأنه مخالف لتقاليد أسلافهم، ''قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا'' (104 المائدة)، ''وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا''(28 الأعراف)، ''قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا'' (78 يونس)، ''بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون'' (74 الشعراء)، ''ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين'' (24 المؤمنون).

هذا الوعي العربي الجاهلي الجمعي المشبع بعبادة الأسلاف أي الرافض للتهجين، أي رفض كل جديد على تقليد الأسلاف الذي واجه به العرب الاسلام الجديد على تقاليدهم هو الذي كيفوا به الاسلام بعد دخولهم فيه لكن بتغيير بسيط في هوية الأسلاف فلم يعودوا أسلافهم في الجاهلية بل غدوا أسلافهم في الاسلام. الدراسة الاثنية للقبائل البدائية كشفت أن الخاصية الاساسية لوعيها هو رفض التهجين، أي التعلق الهستيري بنقاء الدين ونقاء الثقافة ونقاء اللغة ونقاء العرق. بعض القبائل البدائية كلما ألمت بها أزمة كالجفاف مثلا تطهر القبيلة من جميع الأدوات الحديثة التي أدخلها إليها بعض أعضائها وتقتل هؤلاء الاعضاء أنفسهم عسى أن يرضى عنها الأسلاف.

الوعي السلفي الذي ساد لدى عرب الجاهلية ثم ساد لدى عرب الاسلام هو هذا الوعي المغلق على عبادة الأسلاف الرافض لكل وافد لها لا يتفق مع تقاليد السلف الصالح أي مع أقوالهم وأفعالهم.

عمليا ساد الأثر على النظر والمنقول على المعقول في كل تاريخ الاسلام العربي. فالوعي الاسلامي صاغه رواة الحديث والوعاظ الذين كانوا على صلة يومية بالعامة أما الفكر الاعتزالي والفلسفي، فلم يدخل قط الى هذا الوعي العربي الاسلامي المغلق وظل حبيس دوائر النخبة الضيقة التي كانت تحمي المعتزلة والفلاسفة من الفقهاء والعامة الذين رفضوهم ورفضوا فكرهم الذي لم يكن في نظرهم إلا ''بدعة'' وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. وبما ان النخبة المستنيرة نادرة في تاريخ الاسلام قد لا يتجاوز عدد الخلفاء فيها اصابع اليد الواحدة في بغداد والاندلس أو في القاهرة فقد تحالف الحكام والفقهاء طوال تاريخنا ضد العقل الوافد من اليونان.

منذ القرن الثاني عشر الميلادي الموافق للقرن السادس الهجري، أصدر المنقول من الاندلس الى بغداد فتوى بمنع المعقول من الدخول الى أرض الاسلام. وقد نظمت المحارق في بغداد لآثار ابن سينا والفارابي وفي قرطبة لآثار ابن رشد وغيره من الفلاسفة والعلماء حتى إن الكتب الفلسفية والعلمية العربية التي ترجمتها أوربا الساعية للنهوض لم تصل اليها إلا عن طريق المسيحيين الاسبان المستعربين الذين كانوا يعيشون في الاندلس وعن طريق يهود الاندلس الذين أخفوا هذه الكتب لكي لا تصل إليها ألسنة النيران وسلموا نسخا منها الى جامعة طليطلة المسيحية التي كانت منكبة منذ القرن الحادي عشر على دراسة التراث الاسلامي وترجمته.

هذه الفتوى بمنع المعقول من الدخول الى أرض الاسلام مازالت سارية المفعول حتى الآن.

فتدريس الفلسفة الحديثة في التعليم الثانوي غائب في دول الخليج ربما باستثناء الإمارات التي قرأت في صحيفة تونسية أنها طلبت أساتذة للفلسفة من تونس لكن لست أدري ما إذا كان ذلك للمدارس الثانوية أم للتعليم الجامعي، وفي الدول العربية الأخرى تدرس في الثانوي لكن كتلقين وهو ما ينفي الفلسفة لأن التلقين والفلسفة ضدان لا يجتمعان. وحدها تونس ترجمت البرنامج الفرنسي للفلسفة ترجمة والحق يقال فيها نظر. البرنامج الفرنسي يستبعد طبعا كل تلقين فبرنامج الفلسفة عبارة عن نصوص لمختلف الفلاسفة من الإغريق حتى الآن يطلب من التلميذ ان يفكر فيها بنفسه بعيدا عن التلقين وغسل الأدمغة، وفي تونس تدرس الفلسفة في السنتين الاخيرتين من التعليم الثانوي لتدريب نخب الغد على التفكير بنفسها لا بأقوال وأفعال أسلافها.

ما العمل لرفع هذه الفتوى ضد المعقول التي عمرها ثمانية قرون إذن للتحرر من رق الأسلاف ؟

لا توجد وصفة جاهزة بل فرضية متفائلة تتمثل في صياغة مشروع مجتمعي عربي الحداثة رائده والعقلانية منطقه يطبقه كل بلد حسب خصوصياته وتجربته يستهدف أولا تحديث التعليم والاعلام الدينيين وتحريرهما من عبادة الأسلاف لفتح الوعي الاسلامي لأول مرة في تاريخه على الوافد من الأفكار والقيم والعلوم الحديثة وخاصة الفكر النقدي.

هذا المشروع كفيل خلال عقدين بتخريج نخبة ذات وعي غير سلفي وفي العقدين التاليين تخريج نخبة ذات وعي معاصر تماما لعصره.

ابن تيمية أدان المنطق لأنه إذا كان الانسان حسب المنطق - كما يقول ابن تيمية - لا يفكر تفكيرا سليما الا إذا تعلم قواعد المنطق فذلك يعني ان السلف الصالح، كما يقول ابن تيمية دائما، لم يفكروا تفكيرا سليما لأنهم لم يتعلموا المنطق. إذن السؤال ليس ما اذا كانت توجد فلسفة عربية أو لا توجد أو ستوجد، بل لماذا عجزت الفلسفة قديما وحديثا وجميع تيارات الحداثة الفكرية والسياسية الاخرى على ان تتغلغل في الوعي الجمعي العربي الاسلامي ؟ طبعا بسبب انغلاق هذا الوعي عن كل وافد وخاصة إذ كان وافدا من الغرب أي من الذين سماهم ابن تيمية في كتابه الشهير "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم" : أصحاب الجحيم. وقد استبطن الوعي الاسلامي السائد الى الآن كراهية الآخر الرهابية وخاصة اليهود والنصارى الى درجة أن الشهير د. عبد الصبور شاهين أشرف سنة

2000 على رسالة جامعية تطالب بتطهير تفسير الطبري من الاسرائيليات. وتبعا لهذا المنطق الهستيري فليس مستبعدا أن يشرف د. شاهين على رسالة أخرى تطالب بتطهير القرآن نفسه من الاسرائيليات. خاصة أن القرآن نفسه يعترف بالأبوة الإبراهيمية التي تشترك فيها الديانات التوحيدية الثلاث "إن هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى" (18 الأعلى).

علينا انطلاقا من التعليم ةالاعلام أن نعلم الاجيال الطالعة ان الاسم الحقيقي لـ"أهل الجحيم" هو الشعوب المتحضرة. وأن تقليدهم في مؤسساتهم وفلسفاتهم وعلومهم وقيمهم فرض على كل مسلم ومسلمة.

جميع تيارات الحداثة الفلسفية والفنية والعلمية تغلغلت في الوعي الجمعي الأوربي، لانه لم يكن مغلقا بمفتاح رق الأسلاف النفسي. لكن هذه التيارات مرت على الوعي العربي الإسلامي كما يمر المطر على ريش البط لأنه وعي سلفي مغلق وتاليا رافضا للتهجين Mètissage. المطلوب إذن ليس الثرثرة بفلسفة عربية اسلامية يسمع بها الجميع و لا يراها أحد بل فتح الوعي السلفي بمفتاح الحداثة الغربية التي يتبارى الجميع في هجائها بكل ثراء اللغة العربية في الهجاء وفقرها المدقع في معجم الفكر النقدي الذي مازال يطرق بابها.

والسلام على من استمع القول فاتبع أحسنه.

"الاحدات المغربية" 23 يناير 2004

العقل كلي أم جزئي، كوني أم قومي ؟

رد على الجابري وحماقة "العقل العربي"

إذا صدقنا نيتشه فـ "الضغينة هي قوة الضعيق" ثقافيا في حالة الفيلسوف القومي العربي محمد الجابري، المؤشرات تتضافر على أن مقالي "الراية"، (ما العقل وما "العقل العربي ؟") قد صب الملح على جروح ضغينته النرجسية. أعادت مشكورة اليومية المغربية المستقلة "الاحداث المغربية" نشر مقالي ونشرت مشكورة ايضا وايضا في 13/8/2003 ردا عليه بعنوان "عن العقل العربي، العقل والمعرفة" بتوقيع "مرشدي كريم" الذي قد لايكون أكبر الظن إلا طاقية إخفاء اعتمرتها الضغينة الطعينة لغير ضرورة ولغير حكمة، سواء اكان الاسم حقيقيا أم مستعارا، فبصمات الجابري الفكرية والانفعالية مقروءة على كل جملة فيه، وقد طلبت من "الراية" نشره مع ردي تدشينا لتقليد النقاش المتعارض الذي مازال يثير رهاب النخب الفكرية والسياسية.

أثار الرد الذي يفتقد للترابط المنهجي عديد من القضايا، التي تحتاج كل منها الى معالجة يضيق المقام هنا عنها، سنكتفي بملامسة بعضها مركزين على موضوع النقاش المركزي الذي أدعو القراء الى المشاركة فيه، "هل العقا كلي أم جزئي، كوني أم قومي عربي ؟" راجيا ألا يحدوهم في ذلك إلا الهم الثقافي الذي تتصاغر حياله جميع الهموم، التوضيح النظري للإشكالية لاهوس أخد ثأر جروحنا النرجسية، الذي قادنا نخبا وجمهورا الى حيث نحن، في الدرك الأسفل من التخلف الفكري والعلمي والسياسي والاقتصادي والأخلاقي.

هل مسألة الجابري أمام محكمة العقل جريمة ؟

استهل "مرشدي كريم" رده : "ما كان للعفيف الاخضر أن يحكم وينعت مشروع فيلسوف ومفكر من طينة محمد عابد الجابري بالحماقة (...) وما كان عليه أن يحاول هدم -بجرة قلم في مقال لا يتعدى ربع صفحة- كل ما أسس له عبر عقود وكتب مئات من الصفحات مما يعتبر تجاوزا لاموضوعيا في حق مفكر له وزنه العالمي. إن قيم الحداثة (...) استبعاد أحكام القيمة والاستنتاجات القبلية وهو الشيء الذي لم ينتبه إليه العفيف الأخضر (...) مثل هذه الاحكام على أعمال كبيرة تتطلب عملا نقديا كبيرا وجهدا علميا وموضوعيا يناسب العمل المقروء ويتجاوز الجريدة والمجلة والمقال".

لاشيء في تقاليد النقد ولا قوانين العقل يمنع من وصف عنوان كتاب بـ "الحماقــة".

السؤال المشروع عقلا هو هل كان الوصف مطابقا للموصوف أم لا ؟ أي إلى أي درجة تطابق الحكم مع الواقع ؟ ليس من معايير سداد الفرضيات كمية الكلمات المرصودة لنقدها بل كيفية الطريقة التي أدت إلى اكتشاف خطئها، أي الافكار الزائفة التي ظننتها حقائق

وقدمتها بها هي كذلك، والى اكتشاف عوائقها المعرفية، أي الأحكام المسبقة اللاشعورية التي ظللت الباحث. أما ''هدمـــــي'' لمشروع الجابري الفلسفي ''بجرة قلم'' فهوالتخيل المعتاد لضحايا عقدة الاضطهاد، من صدام إلى الجابري ومن لف لفهما، الذين ماهوا دائما النقد بالهدم والاعتراض بالمعارضة والمعارضة بالخيانة : أين الهدم في مسألة عنوان - فقط عنوان- كتاب الجابري عن شرعيته العقلانية أما محكمة العقل ؟ بدلا من أن يرد، كما يليق بفيلسوف، بقوة الحجة، رد، كما يليق بفقيه موتور، بحجة القوة، بتزوير أقوالي كما سنرى ذلك في المكان المناسب ! ما هو ''وزن الجابري العالمي'' في ميزان عدالة محكمة العقل ؟ وأية شرعية عقلية لهذا الاحتجاج بـ ''وزن الجابري العالمي'' عن الحجاج المنطقي ؟ وما هو المحرم الضروري اجتماعيا الذي كسره نقد ''فيلسوف من طبقة الجابري'' ؟ وأي قانون من قوانين العقل انتهكه نقدي لـ ''العقل العربي'' ؟ اللهم إلا أن تكون محرمات وقوانين هذا ''الفعل'' بالذات الذي اعتقلته العوائق المعرفية فما عاد قادرا على التفكير المنطقي ولا على تقبل النقد الذي يعرف في قرارة نفسه أنه موضوعي.

أما تهمتا ''أحكام القيمة'' و''الاستنتاجات القبلية'' الموجهتان لنا فإحداهما مشروعة مبدئيا أما الثانية فخطأ معرفي يضاف الى مسلسل الاخطاء المعرفية الملازم لقلم الجابري. السؤال الجدير بالطرح في هذه الحالة هو التمييز بين إصدار أحكام القيمة التعسفية أو الاخلاقوية وبين عملية التمييز بين الخطأ والصواب المحايثة للعقل النظري من جهة والتمييز بين الخير والشر المنوطة بالعقل العملي (الاخلاقي) من جهة أخرى، فما هو الخطأ ؟ هو فكرة خاطئة ظنناها حقيقة الى أن اكتشفنا بأنفسنا أو بغيرنا خطأها. إذن ليس الخطأ خطيئة فهو لاشيء آخر سوى ''الذاتي الذي تصورناه موضوعيا'' (كانط). أفضل من ذلك الخطأ كما يثبت تاريخ العلوم هو الطريق الى الصواب، فالحقيقة كما يقول باشلار هي خطأ تم تصحيحه.

المشكلة اذن مع الجابري ليس في خطأ مفهوم ''العقل العربي'' بل في الإصرار عليه بعد اقتناعه بينه وبين نفسه، بسداد نقدنا كما سنرى ذلك بعد قليل، في هذه الحالة يستحيل الخطأ إلى خطيئة معرفية مميتة والضلال الى تضليل. وحتى تتوضح الإشكالية كفاية نقدم للقارىء التعريف المتعارف عليه للعقل : ''هو القدرة على إصدار الاحكام الصائبة والتمييز بين الخطأ والصواب والخير والشر''.

العقل الذي يحلم !

تهمة ''أحكام القيمة'' موجهة إلى قولي ''انتشرت عبارة (العقل العربي) رغم جرعة الخطأ القاتلة التي تنطوي عليها (...) ومن اين جاء الجابري بهذه الحماقة الفلسفية''. فهل وصف الخطأ بالقاتل وحماقة مفهومية مثل ''العقل العربي'' بالحماقة حكم قيمة أم هو استنتاج من وصفنا للعقل الكلي والكوني تعريفا ولفضيحة الفضائح، مسخه من كلي الى جزئي ومن كوني الى قومي واثني وعشائري وطائفي طالما الانتماءات الخصوصية لا حصر لها ؟

سيرى القارىء عندما استشهد بالفقرة كاملة إنني لم امارس إصدار أحكام القيمة بل مارست التمييز بين الخطأ والصواب : بين العقل الكلي والجزئي والكوني والقومي الجابري الذي رماني بحجر أحكام القيمة نسى أن بيته من زجاج هو الذي لاتكاد تفارق أحكام القيمة قلمه مثلا -ومثلا فقط إدانته للشيعة اعتمادا على ''منهاج السنة'' الذي هو أكبر موسوعة تكفيرية- مع الفتاوي- في الفقه الاسلامي بل حتى في الفقه الوهابي. فماذا عن تهمة الاستنتاجات القبلية. أو بما هو أدق المعرفة/المفهوم/الحجة/القضية القبلية. ''قضية ما

تسمى قبلية إذا كان بالامكان تحديد حقيقتها أو زيفها من دون لجوء إلى التجربة..."، ومفهوم "العقل العربي" يندرج ضمن المفاهيم التي يمكن تحديد حقيقتها أو زيفها دونما لجوء لتجربتها في المخابر.. هذا الخطأ الفلسفي يندرج في ما اسماه ريل Ryle ، الحائز على جائزة نوبل في الفزياء الفلكية "خطأ التصنيف"، أي تصنيف مفهوم أو مقولات بين مفهوم أو مقولات أخرى لاتنتمي إليها والحال أن "التقدم في الفلسفة" كما يقول، يتطلب اكتساب نظرية صائبة للمقولات اجتنابا لتقديم وقائع تنتمي الى مقولة في لغة مقولة أخرى. وهو ما فعله "مرشدي كريم" ويفعله الجابري كثيرا !.

خطأ معرفي آخر يطول سلسلة جبال الأطلس : "أول خلط وقع فيه السيد العفيف الاخضر هو أنه أضفى صفات المعرفة على العقل فتحدث عن العقل عوض الحديث عن المعرفة (....) إن القول بكونية المعرفة أمر لا يناقش باعتبار عملية الانتشار التي تتميز بها" والحال أن العقل محدود الانتشار ! " لست أدري ما إذا كانت توجد حالة نفسية يمكن تسميتها "التسمر Fixation الجغرافي". صاحب براءة اختراع مفهوم "العقل العربي" واليوناني والأوروبي ولماذا لا الكوري الجنوبي والكوري الشمالي والسيرلانكي والينجافوري إلخ، يعرف كلية المعرفة بـ "انتشارها" في كل المكان ! والحال ان المقصود بكونية أو كلية المعرفة أو الحقيقة هي أن الجميع يمكن ان يتأكدوا من صحتها فالحقيقة التي لا تكون مقبولة من جميع العقول السليمة ليست حقيقة. فكوني او كلي هو نقيض الخاص. إذا كان العقل قوميا فمعرفته وحقيقته قومية بالنتيجة أي لاتشمل إلا قومه. عندما تطالب الحركات الظلامية (المعادية للعقل) بعلوم انسانية اسلامية وحتى بطب اسلامي فهي تقع في الفخ الذي وقع فيه الجابري : اختزال الكلي، العلم، إلى الخاص، الاسلام، الجابري نفسه اقترح اختراع "علم مستقبليات عربي يعطينا الأمل ويحثنا على العمل" لأن علم المستقبليات الكوني بإحالتنا إلى حاضرنا يقول لنا، نحن العرب، إننا بدون مستقبل مجلة "الوحدة العربية".

يستشهد المقال بفقرة للجابري تعرف "العقل العربي" بأنه "تلك القوة أو الملكة أو الأداة التي يقرأ العربي ويرى ويحلم ويفكر ويحاكم إنه العقل العربي ذاته"1 : إذن، إذا كانت القراءة من وظائف العقل العربي فالمجنون من أكبر العقلاء العرب وإذا كانت الرؤية من وظائفه فجميع الحيوانات بما فيها الذبابة رزقها الله تعالى عقلا عربيا وإذا كان "العربي يحلم" بعقله فالحيوانات، وقد أثبت العلم أنها تحلم، تتمتع مثلنا بنعمة العقل العربي، إياه والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه !.

لا يوجد انسان عربي أو أعجمي يحلم بعقله بل بـ "لاعقله" بلا شعوره، خلاف العقل، والذي قال عنه فرويد، الذي اكتشفه وتأكد من هيمنة المسارات اللاشعورية على المسار الشعوري، "العقل ليس سيدا في بيته" أي ان الحياة النفسية اللاواعية تتحكم في مناشط النفس البشرية وفي الوعي (العقل)، باشلار يعرف العوائق المعرفية التي تعتقل عقول العلماء والباحثين فلاتعود قادرة على التفكير، بانها "عوائق لاشعورية" حسب العالم أن يعيها ليتلخص - أو يحاول التخلص - منها.

الجابري يجهل ما العقل

تعريف الجابري للعقل العربي دليل على جهله لما هو العقل سايكولوجيا وأيضا بايلوجيا. "قشرة الدماغ هي مكان التحكم في الحركات الارادية، الاحساس الواعي والعمليات الفكرية المعقدة"(موسوعة لاروس الطبية). هذا الجهل هو الذي يقف وراء قوله شاكيا :

"عقل عربي لم يتحرر بعد من سلطة الخرافات والغيبيات ولم يفصل بين سلطة العقلانية (؟) وادلة الدين والعقل الانبهاري الفارغ الاعمى". هذا التوصيف للعقل "العربي" لاشرعية عقلانية أو علمية له. "الخرافات" هي بنت الفكر السحري الذي يطلب من الواقع نتائج مخالفة لقوانينه، فهي إذن ليست من إنتاج العقل. بل من إنتاج اللاشعور المتحرر من عقال العقل الخرافي يسقط بواعثه النفسية اللاشعورية على الواقع الخارجي. الغيبيات، وهي كلمة لم تدخل المعاجم بعد، استخدمها إن لم يكن نحتها البعثيون في طورهم العلماني كتسمية خجولة للدين أي الايمان بعالم الغيب كالحشر والنشر والحساب والعقاب والجنة والنار. والدين، العصاب المعمم كما عرفه فرويد، ليس انتاج العقل، كل ما ينتسب الى الوحي والسماء هو من انتاج اللامعقول : اللاشعور.

لو ارتقت معظم النخب الفكرية والسياسية الى مصاف العقل الكلي لما ضارها أن تتعايش مع بقايا الخرافات والغيبيات. علماء وحتى فلاسفة غير قليلين يؤمنون بالخرافة والغيب لكن ذلك لم يعتقل فيهم "العقل العارف". نيوتن وانشتاين مارسا، جنبا لجنب مع الفيزياء الفلكية، التنجيم، نيوتن كان مسيحيا تقيا وانشتاين كان شبه يهودي. فهات لي ياجابري بنيوتن وانشتاين عربيين وأهلا بالخرافات والغيبيات وسهلا.

مشكلة العرب ليست في كون "العقل العربي" الشهير مازال رهينة الخرافات والغيبيات إلخ... مشكل سواد نخب المجتمعات العربية أنها ترفض أن تكون واقعية بالرغم من قوانين الواقع هي قوانين العقل وهكذا ترفض التكيف مع متطلبات موازين القوى الاقليمية والدولية فتهرب منها الى الارادوية الارهابية التي بدأت -بدأت فقط- تدفع فاتورتها الباهضة.

وهكذا ايضا تتعامى عن رؤية مهامها المكتوبة على ارض الواقع لتفر منها إلى احلام يقظة عصابية بل وذهانية (جنونية) في أغلب الحالات مثل حلم صدام باستعادة عربستان من ايران والكوت من آل الصباح.. وحلم حافظ الاسد بضم لبنان تدريجيا.. وحلم حماس بـ "تحرير فلسطين حتى آخر ذرة تراب وتحويلها وقفا على جميع المسلمين في العالم" كما ينص قانونها الأساسي وحلم الجابري بإحياء "الكتلة التاريخية" الجرامشية، التي لم تبرهن على نجاعتها في زمانها ومسقط رأسها، ليعمل في إطارها القوميون والاسلاميون على "العودة إلى دولة الخلافة الراشدة" كما يحلم الاسلاميون أو إلى امبراطورة هارون الرشيد كما يحلم القوميون !!

متى نبلغ سن العقل الكلي ؟

مشكلتنا أن هذا القطاع السائد من النخبة بدلا من التفكير في مشاكل مجتمعاته بالعقل الكلي الذي يشارك به جميع العقلاء في العالم، يفكر بالعقل الجزئي الذي لايشاركه فيه إلا أكثر اعداء العقل تطرفا وتمسكا بأسوأ ما في تراث لوثر "العقل مومس الشيطان". ويغرغر مع الجابري أسطورة "العقل العربي" الوهمي الذي يشارك به الأحياء غير المفكرة ولكنها حسب الجابري "تقراء، ترى وتحلم" حتى تستيقظ من حلمها على كابوس كغزو الكويت أو انتفاضة العمليات الانتحارية اللذين حياهما الجابري ومن لف لفه بلا مسؤولية نادرا في تاريخ النخب في العالم.. وكإرهاب الإسلام الظلامي في مصر والجزائر ونيويورك وواشنطن والدار البيضاء وجدة والبقية تأتي..

مشكلتنا ان هذا القطاع والجابري أكثر ممثليه شعبية، مازال دون سن العقل الكلي لذلك

مازال يفكر بعواطفه وانفعالاته وتخييلاته وغرائزه ونرجسيته الدينية وثاراته العشائرية، مما جعله عاجزا عن إنتاج مشاريع فكرية جديرة بهذا الاسم أي مطابقة لحاجات ومهام مجتمعاته الحقيقية لا تلك المسطورة في سجل إيديولوجيا "الوحدة والاشتراكية والحرية" الهادية.

يوم نبدأ في وعي وتحليل مشاكلنا الحقيقية بعقلانية وواقعية، يومئذ نرتقي من الحالة الانفعالية إلى الحالة العقلانية، يومئذ ندشن حقبة التفكير بالعقل الكلي، الموضوعي والواقعي وفق مبدأ الواقع الراشد لا على هوى مبدأ اللذة الصبياني، والتفكير المنضبط بقوانين أو مبادىء العقل، كمبدأ السببية وخاصة مبدأ عدم التناقض الذي لا معرفة ولا عقلانية ولا سياسة ولا اقتصاد ولا حداثة ولا صناعة متطورة للقرار من دونه. يومئذ نبدأ الإقلاع من التخلف إلى التنمية الشاملة انطلاقا من تحديث الاقتصاد والتعليم وخاصة الديني ومن الاعتراف بحقوق المواطنة للنساء وغير المسلمين ونزع فتيل الانفجار السكاني التي تحكم بالإعدام على التنمية بسبب التهام معدل النمو الديمغرافي لمعدل النمو الاقتصادي حتى لو تضاعف مرتين وهو هدف بعيد المنال.

هذه التنمية، التي هي بالنسبة لمجتمعاتنا قضية حياة أو موت، لاسبيل إليها إلا بالتخلص بالداخل أو الخارج أو بتضافرهما معا من النخب السياسية العاجزة من صنع قرار واقعي وشجاع -لا متهور- تخلف صناعة القرار كنتيجة لجبن وجنون وعدم تداول النخب والأجيال السلمي على الحكم، هو المسؤول الأول عن تخلف السياسة والاقتصاد والتعليم والعلم والفكر والدساتير والقوانين والبنية التحتية وحماية البيئة.. صدام اتخذ قرار غزو الكويت، الذي جر عليه وخاصة على العراق والشرق الاوسط مآسي مازالت لم تتم فصولا، في رؤيا : "هل تعتقدون أن قرار استعادة الكويت، قال "القئد الضرورة"، كان قراري الشخصي ؟ لا.. إطلاقا.. لآ.. إنها رؤيا في المنام وجدت نفسي ملزما بالاستجابة إليها.. إنها إرادة الله ودورنا هو أن ننفذها وحسب" (سعد البزاز : الجنرالات آخر من يعلم ص 101)، صاحب براءة اختراع "العقل العربي" صفق لهذا القرار ونصب نفسه مستشارا مجاملا عن بعد للمجنون السريري الذي اتخده وتاذي كافأه عن استشاراته المشجعة بالأنعام عليه بجائزة سنية ودسمة ! بدورهم قادة حماس وزعيمهم الشيخ أحمد ياسين صنعوا قرارهم الانتحاري باسم أكثر "الخرافات والغيبيات" كارثية :تأويل آيات توراتية وقرآنية خيلت إليهم ان "تحرير فلسطين حتى آخر ذرة تراب" موعود بالتحقيق في 2027.. ناقد "العقل العربي" فرط هذا "العقل العربي" الإسلامي في أكثر تمظهراته مأساوية وجنونا ونحرا لحق الشعب الفلسطيني في وطن ودولة ! أدعو مؤرخي الافكار إلى نقد العقل الذي انتج "نقد العقل العربي" كشرط لفهم تهافت هذا الاخير.

يبدو أن الجابري وعى بعد قراءة مقالي عن العقل فداحة الخطأ المعرفي الذي اقترفه من نحت مفهوم "العقل العربي" المفارق. بدلا من التراجع عن خطئه كما يليق بفيلسوف تصرف كأي سيلسوي فلجأ إلى تزوير الاستشهاد بنصي على نحو يرقى حقا إلى حجم الفضيحة ليوحي للقارىء بان نقدي متهافت وغبي - لماذا ؟ لأنه من دون هذا التزوير سيذهب "العقل العربي" إلى المكان اللائق به في تاريخ الافكار : سلة المهملات. كيف زور نصي ؟ بجعلي أخلط بين العقل والعقلية (الذهنية) فاصف العقل "اليوناني" بأنه مجرد عقلية يونانية والعقل "الاوروبي" بأنه عقلية أوروبية إلخ... والحال أني قدمت فرضية أن يكون الجابري نفسه ترجم خطأ، وهو سيد الترجمات الخاطئة، العقل بـ "العقلية" Mentalité، إقرأوا صي كما زوره الجابري ثم نصي كما هو لتقتنعوا بأن الجابري إقتنع أخيرا بأنه ارتكب فعلا خطأ معرفيا مميتا لو ارتكبه تلميذ فرنسي في

امتحان الباكالوريا (الثانوية العامة) لسقط في الامتحان. يقول الجابري : ''إن تحجيم كلمة عقل وردها إلى عقلية أمر فيه كثير من العشوائية، فإذا كان العقل يميز الأمة الواحدة ذات التاريخ أو الأفق المشترك''، حقا هذا هو التعريف المفقر والمبتور للعقلية لا للعقل الذي يميز أمة قومية دون سواها بل جميع عقلاء الارض. ويضيف الجابري مزورا استشهادي : ''فإن العقلية مصطلح انثروبولوجي لا يستعمل إلا عندما يتم الحديث عن مجموعة إثنية لا تشكل أمة بالضرورة'' أقطع الاستشهاد المزور لأثبت مدى جهل الجابري للمدلول الانثروبولوجي للعقلية، ليعرف معجم فرنسي ''مصطلحات الفلسفة والعلوم الاجتماعية'' العقلية بأنها : ''مجموعة من المعتقدات ةالآراء والعادات اللاشعورية قليلا أو كثيرا التي تميز مجتمعا ما أو مجموعة ما (...) مثلا العقلية الفرنسية أو العقلية الفلاحية'' ص313.

فهل الامة الفرنسية يافيلسوف ''العقل العربي'' : ''مجموعة إثنية لا تشكل بالضرورة أمة'' ؟ سأعطيه الكلمة ليواصل تزوير استشهادي : ''لا أتصور أن أحدا، يقول الجابري، من فلاسفة اليونان ينزل بحضاراته إلى مستوى العقلية، ولن يرضى الاوروبيون إذا اختزلت كل معارف وعلوم وفلسفات أوروبا من ديكارت إلى اليوم في كلمة العقلية الأوروبية''.. من لم يطلع على نصي أو من نسيه -والنسيان حليف مزوي النصوص- سيقتنع بأني من الجهالة إلى درجة عدم التمييز بين العقل والعقلية !..

وهذا ما أراده الجابري من جريمة التزوير التي يستحق عليها صفرا في النزاهة الفكرية. إليكم الآن نصي كما نشرته في الراية ثم أعادت ''إيلاف'' و''الأحداث المغربية'' وصحف أخرى تونسية وعراقية نشره : ''العقل التاريخي أي الخاضع لمتطلبات الزمان والمكان، هو وسيلة الإنسان الوحيدة إلى التفكير السليم وإعادة التفكير في تفكيره لأنه ليس، كما تدعي الاسطورة، معصوما من الخطأ بل إن الخطأ جزء لا يتجزأ منه (..) لكن ما يميز العقل عن جميع مناشط الدماغ البشري هو أنه الوحيد القادر على إنتاج معرفة موضوعية (...) يستطيع كل عقل سليم أن يمتحنها ويتأكد منها ويسلم بها. العقل نسبي وخطاء ومع ذلك (...) فهو كلي وكوني يسلم به ذوو العقول السليمة على اختلاف انتماءاتهم الخصوصية. وهكذا يبدو مصطلح ''العقل العربي'' الذي طرحه الجابري (...) تناقضا في الحدود كقولنا نهار مظلم، فالعقل ليس له انتماء اثني أو جغرافي وإلا كف عندئذ عن أن يكون عقلا (...) من أين جاء الجابري بهذه الحماقة الفلسفية (...) أكبر الظن من ترجمة خاطئة الـ Mentalité التي تعني العقلية أو الذهنية. هنا يجوز، رغم اعتراض الانثروبولوجي ليفي شتروس، أن نتحدث عن عقلية عربية في مواجهة عقلية غربية و عن عقلية تونسية وقطرية، لأن العقلية تشير الى الثقافة أي مجموع التصورات والسلوكيات والآراء والمعتقدات التي تتميز بها مجموعة دون سواها في ملبسها ومأكلها ومشربها وأفراحها واتراحها وتقاليدها إلخ..، حتى في هذه المجالات فالفوارق نسبية وثورة الاتصالات والسياحة جعلت توحيد العقليات مسألة وقت لا أكثر''.

أطروحتي إذن هي أن العقل كلي وكوني والعقلية جزئية وخاصة بكل مجموعة بشرية مستدركا، اعتمادا على معاينات الانثروبولوجيا، إن خصوصية العقلية نفسها نسبية ومؤقتة فما بالك بزعم الجابري بان العقل جزئي وخاص - مثل العقلية، بكل أمة ! بل إن الجابري يقسم ''العقل العربي'' نفسه إلى عقلين : مشرقي لاعقلاني ومغربي عقلاني !

قدم جورج طرابشي في كتابه ''مذبحة التراث'' نمودجا فظا لتزوير الجابري لنصوص ابن سينا ليقدمه -على عكس حقيقته- لا عقلانيا، غنوصيا، خرافيا، غيبيا.. لهدف وحيد :

لتكييفه مع مزاعمه المجانية ضده. والغاية تبرر الواسطة حتى في الفلسفة ؟ فكر نقدي هزيل ونزاهة فكرية في الحضيض هذا أكبر الظن ما سيكون مكان الجابري في تاريخ الأفكار.

بصدد كلية العقل - وهي الرهان ''الأساسي لردي - كتب الفيلسوف الفرنسي E. Weil في موسوعة ''يونيفرساليس'' الفلسفية في مادة ''العقل'' مايلي : ''العقل هو إذن الملكة التي تحكم وتميز بين الخير والشر اعتمادا على البراهين العقلانية التي يسلم يها الجميع أو التي يمكن أن يسلم بها الجميع باستبعاد جميع العوامل التي لا تخضع للعقل مثل الأسطورة والحدس والأهواء أي كل ما هو ذاتي وعاجز عن إنتاج معرفة موضوعية''. خطاب العقل منطقي، ملزم، كلي وضروري (...) هذا الخطاب المنطقي ولد في الرياضيات، في الأكسيوم أو المبادىء الأولى التي لم تر النور إلا في اليونان (...) العقل الذي يشكل هذا الأصل تشترك فيه الكائنات الانسانية. ما يفرق بينهم عرضي، غير أساسي (...) المطلوب هو أن نكتشف بواسطة العقل ما هو متماثل للجميع، ما هو واحد وضروري (...) لاشك أن العقل واحد ولكنه واحد تحت تمظهرات مختلفة : فهو عقل نظري (يبحث في ما هو موجود) وعقل عملي لا يهتم بالموجود بل بالمنشود، بما يجب أن يكون (...) استقلال ووحدة العقل. قي هذين المجالين لا وجود إلا لكلية العقل سواء في العلم أو في الأخلاق''.

هذا ما يقوله الفيلسوف الفرنسي لاقدر اللـه - فيلسوف ''العقل الفرنسي'' أما فيلسوف ''العقل العربي'' فيؤكد بكل يقين : ''فلا يمكن القول بان العقل الكوني (...) عندما نتحدث عن العقل العربي فنحن نميزه عن العقل اليوناني والاوروبي'' ! كان اللـه في عون طلابه وقرائه.

عن ''الاحداث المغربية''

الجابري يكتب عن العقل ولايكتب به

مشكلة عقل الجابري هي عوائقه المعرفية التي تعتقله فلا يعود قادرا على التفكير العقلاني حتى، أحيانا، بتعريف الحد الأدنى، التماسك المنطقي.

لا مجال هنا لتحليل هذه العوائق. حسبي الإشارة لعائق أو لعائقين مثلا خطأ التصنيف أي تصنيف وقائع خاصة بمقولة في لفة مقولات أخرى. وهو الخطأ الذي قال عنه ريل Ryle إنه يشكل عائقا للتقدم الفلسفي الذي يتطلب تدقيق المفاهيم حتى لا تتشابه، كما يتشابه البقر في الليلة الظلماء. وهذا ما فعله الجابري بصدد العقل والعقلية (الذهنية) اللذين أصبحا عنده مفهومين متداخلين كلعبة العرائس الروسية، والحال أن الفرق بينهما جلي. العقل كلي وكوني يسلم به كل ذي عقل سليم والعقلية خاصة بجماعة معينة (قبيلة، أمة، طبقة اجتماعية مثلا) صاغت وعيها الثقافي بعادات وتقاليد وأنماط في السلوك خاصة بها. إذا كان العقل تفكيرا عقلانيا فالعقلية، خاصة لدى الثقافات التقليدية، تفكير فبعقلاني خلافا لفرضية السوسيولوج الفرنسي Levy Bruhl الذي افترض في كتابه "العقلية البدائية" أن التفكير البدائي ليس تفكيرا ....أي واعدا بالتطور إلى تفكير عقلاني، بل رأى فيه تفكيرا من طبيعة مختلفة، صوفيا خاليا من أية نواة عقلانية، لماذا ؟ لأنه لايقوم على مبدأ عدم التناقض العقلاني : استحالة اجتماع النقيضين، بل يقوم على منطق آخر لايعد بأي تطور إلى العقلانية هو "المشاركة "Participation أي أن جميع الموجودات التي تبدو من منظور التفكير العقلاني مختلفة أو متناقضة تشترك في المنطق الصوفي، في وجود واحد يقبل باجتماع النقيضين. بعد سنوات راجع برول، شأن العلماء الذين يتعالون على نرجسيتهم، فرضيته وانضم للفرضية القائلة، بأن العقلية البدائية تنطوي على بذرة عقلانية، وإن كان يوجد الآن من يتبنى فرضيته الأولى.

لنرى الآن كيف يخلط الجابري بين العقل، الذي إما أن يكون عقلانيا أو لايكون، والعقلية التي يتغلب فيها الموروث على المكتسب والمسكوت عنه على المفكر فيه : "ما يجمعنا نحن العرب بباقي العالم، هوالاختلاف : اختلاف آليات وميكانيزمات العقل الذي ننظر به إلى الآخر وإلى ذواتنا، لعل الإنسان العربي عندما يزور أوروبا أو أمريكا (الغرب بصورة عامة) سوف لن ينظر إليها بعقل كوني، بل سينظر إليها على أنها شيء مخالف له لما ألفه ولما يشبهه، وسيعرف أن هذه الحضارة التي يزورها لن تكون أبدا ناتجة عن عقل كوني هو طرف منه أبدا، إن الاختلاف هو الذي يجعل من العقل عربيا أويونانيا أو أوروبيا ولا أظن أن السيد العفيف الأخضر ينتمي إلى العقل الأوروبي طالما هو ابن العقل العربي (لا قدر الله) وما حديثه عن العقل بهذه الصفة إلا نتيجة لكونه اكتسب عقلية أوروبية وليس عقلا أوروبيا" (مرشدي كريم : "الأحداث المغربية 13/8/2003" : الإنسان العربي" الذي قد لا يكون إلا إسقاطا لعقلية الجابري عليه، سينظر أكبر الظن لـ "الحضارة الغربية كشيء مخالف لما ألفه" من عادات وتقاليد خاصة بعقليته العربية

الإسلامية، لأنه بالضبط لم ينظر إليها بعقله الكوني العام يرى الأوروبيين "يُجاهرون ب (المعاصي) : يشربون الخمر، ويتبادلون القبل علانية.. وهي عادة مخالفة لما ألفه في ثقافته الخاصة التي لقنته المسكوت عنه : "وإذا عصيتم فاستتروا". لا شك أن عقلية هذا الإنسان العربي، التي مازالت رهينة المحرمات الغبية وفقه القرون الوسطى المعادي للمرأة وغير المسلم والعقل والحرية مازالت بعيدة -إلا عند قطاع من الشباب- عن عقلية الإنسان الغربي التي تحررت من عقلية القرون الوسطى فتعقلنت وتعلمنت. لكن الإنسان العربي إياه إذا كان سليم العقل وذا فضول معرفي فسيزور المؤسسات العلمية والإعلامية والثقافية والصناعية وهناك سيلتقي بعقل كوني يتعرف عقله على نفسه فيه وسيشعر أن هذا "العقل النظري" لا يختلف عن العقل النظري في بلده إلا في درجة التطور، وسيفكر في الوسائل الكفيلة بجعل بلده يلحق بالغرب بالمثل سيجد أن "العقل العملي" الذي مازال في بلده يتمتم، قد بلغ في أوربا التي يزورها لأول مرة درجة متقدمة من التطور : فكل شيء تقريبا في الحياة الاجتماعية مفكر فيه والأفراد والجمعيات والطبقات الاجتماعية يمارسونه في ما بينهم بقدر معقول لا يثير عجبه بقدر ما يثير إعجابه.

هذا "الإنسان العربي" زار فرنسا وكان اسمه رفاعة رافع الطهطاوي فراعت عقله الكوني "شموس الفكر فيها لا تغيب" وروعت عقليته الإسلامية "وليل الكفر فيها ليس له صباح" وزارها بعده طه حسين وتوفيق الحكيم وسلامة موسى ومنصور فهمي ومحمود السعدي ومصالي الحاج والحبيب بورقيبة والمهدي بن بركة وعشرات غيرهم فتماهوا بعقلها الكوني ولقحوا عقليتهم الشرقية التقليدية بعقليتها الحديثة المتحررة بفضل تأثير العقل الكوني السائد فيها والذي مازال هامشيا في بلدانهم. لاشك أنهم وجدوا قدوة حسنة في ابن رشد الذي لم ير في شرحه لـ"جمهورية" أفلاطون، غضاضة في إشاعة النساء على الرُضى منهن الأسمى أخلاقيا من بيعهن، كجوار في أسواق النخاسة، لاغتصابهن أو تزوجهن رغم أنوفهن. وهكذا فقد تعالى عن عقليته الدينية التي تحلل الاغتصاب فلم ينظر لأطروحة أفلاطون إلا بعقله الكوني الذي يرى أن "الحسن ما حسّنه العقل والقبيح ما قبّحه العقل" كما علمه العقل الذي لا يقبح علاقة غرامية بين راشدين راضين. وبالمناسبة فليعلم السيد محمد عابد الجابري أن "السيد العفيف الأخضر" مثل أخيه طه حسين لا تثير عقلية الفرنسيين المتحضرة ولا يثير عقلهم الكوني فيه إلا الرغبة في التماهي بهما، وزيارته الدائمة لفرنسا إن هي إلا فترة نقاهة من العلل التي أصابته بها عقلية ولا عقل "شرقنا المجتر أوهاما وأحلاما كسولة/شرقنا الباحث عن كل بطولة في أبي عدي وقصي" مع الاعتذار الحار من نزار قباني.

الجابري يكتب عن العقل بل لا يكاد يكتب إلا عنه، لكنه قلما يفكر به مثلا عندما يقيم تماثلا لا عقلانيا بين "العقل واللاعقل" أي العقل اللاعقلي أو "العقل العرفاني" أي، في نظره، العقل المضرب عن التفكير العقلاني. وهكذا ينتهك مبدأ عدم التناقض الذي لا يستقيم العقل النظري والعملي- وهما في الواقع عقل كلي واحد-إلا به، لأن القضية لا يمكن أن تكون في وقت واحد حقيقية وكاذبة بالمثل. لا يجوز أن يكون العقل لا عقلا. هذا اسمه العبث المرفوض من قوانين العقل أي مبادئه، العقل إما أن يكون عقلا أو لا يكون، أمام اللامعقول إما أن نكون أمام عقل لم يولد بعد كما كانت اليونان قبل القرن السادس قبل الميلاد، حيث كانت الأسطورة والدين سائدين أو أمام عقل -في الحالات الفردية- مريض هو من اختصاص الطب العقلي لا الفلسفة. انتهاك الجابري لمبدأ عدم التناقض الذي أطاح بكل عمارته الفلسفية سببه مفهومه الميكانيكي، لأنه غير مهضوم، للعقل الذي خيل له أن الإنسان إما يكون ابن رشد أو بن لادن، وجميع الإمكانيات الأخرى مرفوعة، وهي إمكانيات واقعية : عقل موجود بالقوة أو نواة عقل واعد وعقل موجود بالفعل، عقل يشتغل

بكل أو بجل إمكانياته وعقل تعتقله العوائق المعرفية (التي اكتشفها باشلار لدى العلماء). ولا شك أن درايته الضعيفة وغير المهضومة بعلم نفس الأعماق لم تساعده على فهم الإنسان بما هو كائن في منتهى التشعب والتعقيد تتعايش في رأسه ثلاثة أدمغة : ''دماغ الزواحف حيث (ترقد الغرائز البدائية)، القتل والاغتصاب، و(الدماغ الانفعالي)، حيث الأهواء و(الدماغ المعرفي)، حيث العقل والعمليات الذهنية المعقدة'' مثلا كشفت الأبحاث العلمية أن الطفل عند الولادة شبيه جدا بسلفه الإنسان منذ عشر آلاف عام في : سرعة التصديق، غياب الحس الأخلاقي، الجبن، الجهل، الميل إلى العنف وروح القطيع. التنشئة الاجتماعية في الأسرة والمدرسة هي التي تصنع منه إنسانا عقلانيا يحب الحياة والأحياء أو مشروع شهيد إسلامي كل همه أن يكوون قاتلا وقتيلا. ذهول الجابري، بالمفهوم الخلدوني للذهول، عن فهم الإنسان ككائن يتعايش فيه المعقول واللامعقول : العقل في أكثر صوره تطورا في خانة ''دماغه المعرفي'' واللامعقول السحري في خانة ''دماغه الإنفعالي'' وإلا كيف نفهم مثلا أن نيوتن وإينشتاين مارسا الفزياء الفلكية بالدماغ المعرفي : العقل النظري، ومارسا التنجيم بالدماغ الانفعالي : الفكر السحري الفصامي. تركا في مجال التفكير التراث الضخم الذي غير مجرى حياة البشرية والذي يسلم به أو يمكن أن يسلم به كل عقل سليم ولم يتركا في مجال التفكير ''العرفاني'' أية معادلة تنجيمية ولو تركاها لما سلم بها العقل السليم الذي يسلم بمعادلاتهما الفزيائية. فرويد العقلاني قلبا وقالبا والذي اكتشف اللاشعور أو ''اللاعقل'' وحلله إلى عوامله الأولية ومع ذلك كسر، في لحظة ضعف، تمثالا صغيرا خوفا على حياة ابنته! الغزالي الذي كتب ''مقاصد الفلاسفة'' عقلاني والغزالي الذي كتب ''التهافت'' لاعقلاني والغزالي الذي قال مايلي هاذ" ''يجوز للجبل أن ينقلب حصانا بإذن الله تعالى'' (القسطاس)، ''وقد أعود إلى بيتي فأجد أن كتابا من كتبي قد تحول إلى حصان فأكل وراث وبال'' (المنقذ)، و''توضأت للظهر في بغداد وصليت العصر في مكة'' (الاحياء). هذه حالة تعود للطب النفسي ولم تعد موضوعا للتأمل الفلسفي أو حتى الفقهي، واختراع مفاهيم متناقضة ولاشرعية فلسفية لها لتشخيصها مثل ''العقل اللاعقلاني'' و''العقل العرفاني'' التي هي من أسماء الأضداد وتناقض في الحدود (نهار مظلم) وتجاهل يكتسي شكل الفضيحة لمبدأ (عدم التناقض) في التفكير المنطقي. عقلانية الجابري المكانيكية أي غير المفكر فيها والملغومة فضلا عن ذلك بالأخطاء والتناقضات الابستمولوجية وبتجاهل التقدم الفلسفي والعلمي جعلته عاجزا عن فهم آليات اشتغال المعقول واللامعقول في الإنسان الواحد. أحد الأطباء النفسيين أكد أن كل إنسان ''سوي'' قد يمر بنوبة هذيان (جنون) مرة في الأسبوع على الأقل عندما ينخرط، وحيدا، في نوبة ضحك، أو يحدث نفسه، أو يردد كلمات مسجوعة مثلا.

إذن يمكن وصف شخص بالعقلاني عندما يكون التفكير أو التدبير العقلاني سائدين- لاوحيدين - فيه خاصة في مجال اختصاصه. تعايش العقلاني واللاعقلاني في الإنسان الواحد، الفيزياء الفلكية والتنجيم، التحليل النفسي العقلاني والفكر السحري مثلا هو الشرط الإنساني بالمعنى الفلسفي أي هشاشة الإنسان وقسوة الحالات والمواقف والظروف التي تفرض نفسها عليه فرضا.

فكر ماركس في تغيير الشرط الإنساني بالثورة الاجتماعية أي إنهاء استغلال الإنسان للإنسان وقسوة الإنسان على الإنسان، وفكر فرويد في تغييره ب''الثورة البداغوجية'' أي بالتحليل النفسي الذي يضع حدا للعصاب ولإعادة انتاجه عبر التربية الأسرية.. لكن الثورتين الموعودتين مازالتا وعدا. أما الجابري فقد قرر لاشعوريا إلغاء الشرط الإنساني بجرة قلم. عنده الإنسان، إما ''برهاني'' وإما ''عرفاني'' ولاشيء ''غير ذلك''، لكن وقائع الحياة، وهي أصدق أنباء من الكتب، تقول له إن الإنسان شيء غير ذلك، إنه كائن يشبه

الإله الروماني، جانوس، ذا الوجهين المتعارضين اللذين يشكلان معا حقيقته. السؤال هو كيف ومتى يستطيع العقل أن يتصدى بنجاح لإغراءات اللاعقلاني ومتى وكيف يستطيع أن يعي عوائقه المعرفية فيتجاوزها ؟ وضمن أية شروط يحقق استقلاله ؟ لامجال لاجابة مفصلة هنا. حسبي أن أقول أن العقل المطلع بما فيه الكفاية بفضل إعادة تحيين معارفه للتخلص من المعارف التي تجاوزها التقدم المعرفي يملك حظوظا من النجاح لكي لايسقط بسهولة في إغواء اللاعقلاني أو يقع في فخ العوائق المعرفية.

لايبدو من كتابات الجابري المكتظة بالمعارف التقريبية وتلك التي انتهت صلاحيتها، إنه يجدد معارفه. وهذا من بين الأسباب التي جعلته يكتب عن العقل لكن قلما يكتب به، مثلا، بين عشرات، يؤكد الجابري أن "الإنسان العربي يحلم" بعقله. هكذا متجاهلا كل التقدم العلمي في حقل الدراسات النفسية والطبية، العقل لم يعد، كما كان عند ديكارت، مصدر الحب والكراهية وغيرهما من الأهواء والانفعالات، بل هو حصرا مصدر التفكير العقلاني بشهادة "علوم الجهاز العصبي" Neurosciences التي تدرس الدماغ ووضائفه وطريقة اشتغاله وعلله. لديكارت عذره فهذه العلوم لم توجد في عصره. أما الجابري فلا عذر له. لو كان مطلعا على معارف عصره في مجال بحثه الفلسفي لكفي نفسه وقراءه شر المفاهيم الساذجة التي افقدت خطابه شرعيته العقلانية مثل "العقل العربي" و"العقل اللاعقلاني" و"العقل العرفاني" إلى آخر السلاطات المشكلة التي زج فيها تعسفيا بالعقل. ولو كان عقله أقوى من أهوائه السياسية، التي تشكل العوائق المعرفية الأساسية التي اعتقلت عقله فلم يعد قادرا على إنتاج معرفة موضوعية، لما سقط ضحية نرجسيته القومية العربية التي جعلته يسقط على غير العرب، خاصة الفرس، تخييل "الفرقة الشريرة" (وهو بالمناسبة تخييل ملازم للإثنية المركزية وتجلياتها العنصرية والنرجسية الدينية) جريرة نقل عدوى "العقل العرفاني" إلى الخطاب العربي الإسلامي العقلاني بما هيته ويسقط على العرب المسلمين تخييل "الفرقة الناجية" من "العقل العرفاني" الشرير.. ذاهلا هكذا عن واقعه تاريخية تفقا العيون، وجود "العرفان" إياه في النص المؤسس للخطاب العربي الإسلامي : القرآن والحديث. هل الإيمان بالإسراء والمعراج والملائكة والجن والشياطين وبسؤال القبر والحشر والنشر والجنة والنار وبقاء الشهيد حيا.. من مسلمات "العقل البرهاني" ؟ الفصل بجدار صيني بين العقلاني واللاعقلاني في الخطاب العربي الإسلامي الكلاسيكي ليس سديدا إذ أن العلوم الإنسانية تؤكد لنا أن الفوارق بينهما في الدرجة لافي النوع وأن العقلاني واللاعقلاني ملازمان تقريبا لكل ما انتجه الدماغ البشري الثلاثي الأبعاد، الغريزي، الانفعالي والعقلاني، في عصور ما قبل الحداثة وحتى بعدها وإن بدرجات متفاوتة. أليس التيار الفلسفي شبه السائد اليوم في العالم هو التيار اللاعقلاني ؟ العقلاني، عندما لا يجتاح حقول العقلاني الخاصة، السياسة، الاقتصاد، العلوم، التعليم، القوانين،... لاضير منه. بل قد يكون مصدر إلهام العقلاني. ألم يستعر أفلاطون عالم المثل، الذي أسس عليه عمارته الفلسفية التي مازالت تطرح أسئلتها على الفلسفة المعاصرة، من الهندسة بقدر ما استوحاه من الأساطير البابلية والإيرانية القائلة بأن كل شيء في الأرض له نظيره في السماء فدجلة والفرات يناظرهما نهران سماويان وجبال إيران لها جبال سماوية.. ؟ وهل ضارت الخطاب العربي "البياني والبرهاني" تخييلات ألف ليلة وليلة الجامحة التي تخاطب اللاشعور الجمعي لا العربي الإسلامي وحسب بل أيضا اللاشعور الجمعي للبشرية بلغة الرمز ؟ ألم يتمن العقلاني فولتير أن يفقد الذاكرة ليقرأها مرة ثانية ؟ أليس الهذيان، قمة اللامعقول، هو الذي يتحفنا بالفن الذي هو حسب علم نفس الأعماق "هذيان منظم" ؟ لكن الهذيان يولد الكوارث خارج حقله في السياسة مثلا، كما في حالة "الأخ" صدام الذي اتخذ قرار غزو الكويت الشهير بناء على رؤيا في المنام ومع ذلك فـ" العقل العربي البرهاني" صفق لهذا القرار الهاذي !

مراهنة على ضبط تلاقح الثقافات والحضارات

صدام وحوار الحضارات امنيتان لا تعبران، كما هو حال الاماني كثيرا وغالبا عن الواقع التاريخي المحيط والمعقد الذي لا تحيط به الشعارات السهلة التي لا وظيفة لها سوي اعفاء العقل من مهنته : التعقل.

صدام وحوار الحضارات فعلان اراديان والحال ان التاريخ تحكمه اتجاهات عفوية موضوعية أي مستقلة عن القصد البشري. صدام المصالح بين الدول ـ لا صدام الحضارات ـ هو الذي ساد البشرية التي كابدت سبعة آلاف عام حربا من تاريخها المكتوب الذي لم يعرف إلا 375 عاما من السلام لم تكن في الواقع إلا هدنة بين حربين. اما حوار الحضارات فلم يتحكم في التاريخ قط الذي حكمته دائما لعبة موازين القوي بين الدول والمجموعات. رهاني هو علي تحويل تلاقح الحضارات والثقافات العفوي إلي تلاقح واع أي الي حوار خلاق.

مهمة المثقف ليست هجاء او مدح ما يجري في العالم أي تقبيحه او تجميله لانهما فعلان عبثيان، بل المطلوب هو تحليل الواقع وفهمه عسي ان يغدو التدخل الواعي في صيروراته ومساراته ممكنا.

تفاديا للبلبلة المترتبة عن سوء استخدام المصطلحات، سأوضح مفهومي الثقافة والحضارة المترادفين في الواقع. الثقافة تشير الي الانتقال من الخام، الطبيعي، الغريزي، والبايلوجي إلي المحول، المصنوع، المكتسب والواعي. وهو ما تشترك فيه الثقافة مع الحضارة التي تعني الانتقال من البادية الي المدينة ومن البداوة الي التحضر. لكن الحضارة تفترض مفهومي التقدم والتطور : التقدم من الخصاصة الي الرفاهية ومن الماضي الي المستقبل ومن الخرافة الي العقل. اما التطور فيعني صيرورة الاشياء والاحياء والمجتمعات من البسيط الي المعقد ومن الادني الي الارقي سواء في الآداب او الفنون والعلوم والتكنولوجيات او في السلوك والعادات. بعض السيولوجيين خص الحضارة بالعمل والتكنولوجيا بينما قصر الثقافة علي الملامح الخاصة بكل جماعة بشرية. وعندما يقول هؤلاء ان الحضارة اليوم واحدة والثقافات شتي فانهم يريدون بذلك القول ان العلوم والتكنولوجيات التي تقوم عليها هذه الحضارة اليوم واحدة في مناهجها ومعاييرها نظرا إلي ان المفاهيم العلمية بما هي معرفة عقلانية للانسان والعالم، معرفة كونية يسلم بها كل ذي عقل سليم مهما كان انتماؤه الثقافي او الجغرافي. يفضل بعض السيولوجيين والانثروبولوجيين تخصيص الثقافة بالبني الاجتماعية والفنون والمعتقدات وعادات الملبس والمأكل والمشرب والمنكح. الحضارات والثقافات محكومة بقانون التلاقح اي

التـأثير والتـأثر المتبـادلين وهكـذا كانـت الحضـارة الاغريقيـة تلاقحـا مـع الحضـارات المصرية، البابلية والهندية. بدورها كانت الحضارة العربية الاسلامية محصلة التلاقح مع الحضـارة الاغريقيـة، الهنديـة، الفارسـية والرومانيـة. اليهوديـة كانـت بنـت التلاقـح مـع الديانتين التوحيدية المصرية (في ظل حكم اخناتون الذي تسميه التوراة ابراهيم) والوثنية البابلية.

تلاقح سريع

فـي الحضـارات والثقافـات القديمـة كـان التلاقـح بطيئـا لبـطء الاتصـالات. امـا فـي الازمنـة الحديثة فقد تسارع التاريخ فتسارعت وتائر التلاقح بفضل تقنيات الاتصال والبث والتبـادل والسياحـة والهجـرة واختـلاط السكـان. وهكـذا شيئـا فشيئـا اطاحـت الثـورة الصناعيـة علـي امتداد ثلاثة قرون بكل اشكال الحمائية الاقتصادية والثقافية. وصف البيان الشيوعي عملية توحيد الرأسمالية للعـالم بـهذه الكلمـات : علـي انقـاض الانعـزال القطـري والقومـي القـائمين علـي الاكتفـاء الذاتـي تنمـو تجـارة عالميـة وتبعيـة متبادلـة بيـن جميـع الامـم. مـا هـو صـحيح بصـدد الانتـاج المـادي لا يقل صـحة بخصـوص الانتـاج الفكـري. فالاثـار الفكريـة لأمـة مـا تصبـح ملكـا مشتركـا لجميع الأمم ويغدو قصـر النظـر والتقوقـع القوميـان مستحيليـن اكثـر فاكثر ويولد من جميع الآداب القومية ادب عالمي واحد. تبدو هذه الفقرة كما لو انهـا كتبت اليوم لوصـف تأثيرات العولمة علي اعادة هيكلـة العـالم وثقافاته بينمـا هـي كتبت منـذ 154 عاما. منذ الآن المشاكل القومية الاساسية غدت مشاكل عالمية ومتكافلة. لم يعد فـي امكـان أيـة أمـة ان تحـل بمفردهـا مشاكـل مثـل الايدز، المجاعـة، الجفـاف وتلـوث البيئـة. عولمـة المشاكل تتطلـب عولمـة حلولهـا وتاليـا حـوارا عالميـا لتنظيـم وضبط التبعيـة المتبادلـة بيـن الأمم كافـة التـي اوجدتها السـوق العالميـة منذ القـرن الثـامن عشر. الاداة التـي حملـت هـذه التبعيـة العالميـة المتبادلـة هـي التلاقـح بيـن الحضـارات والثقافـات بجميـع صـوره. علـي مـر العصـور كانت الحضارات تتزاوج ويخصب بعضها بعضـا. التهجين لا النقـاء هـو القـانون الـذي يحكم ومـا زال فـي الحضـارات والثقافـات. الثقافـات النقيـة اي المنطويـة علـي نفسهـا تنقـرض وفـق قـانون الانتخـاب الطبيعـي. وحـدها الثقافـات الـتي تنفتـح علـي الثقافـات والحضارات الاخري فتعيرها وتستعير منها هي التي تتجاوب مع حاجات النـاس وتنتصـر في معركة الانتخاب الطبيعي اي التكيف مع المحيط. وهكذا فـالعجز عن التكيف مـرادف للانـدثار. كمـا ان الطفـل يتعلـم بالتقليـد فكـذلك الانسانيـة. وهـذا مـا وصـفه ابـن خلـدون : المغلـوب مولـع بتقليد الغالـب. وهـذا مـا فعلـه اليابـانيون بعد هزيمتهم امـام الامـريكيين فـي الحـرب العالميـة الثانيـة عندما تخلـوا عن جوهـر تـراثهم الـذي لـم يعد متكيفـا مـع حاجـات العصـر فأعـاق دخـولهم الـي الحداثـة السياسيـة فنبـذوا الفاشيـة واستبدلوا بهـا الديمقراطيـة محولين امبراطورهم من إله لا يسأل عما يفعل الي ملك يملك ولا يحكم علـي غـرار ملكـة المملكـة المتحـدة. وهكـذا قلـدوا غـالبهم الامريكـي فـي حداثتـه اي ديمقراطيتـه وعلومـه التكنولوجيـة وثقافتـه. التلاقـح الحضـاري الـذي يتخلـي بـه المغلـوب عمـا يعيـق دخولـه الـي حداثة الغالب لم يتحقق الا في الامم اللقيطة حضاريا اي تلك التي لم تمتلك تراثا تليدا يلعب دور الضمير الاخلاقي الطاغي الذي يردعها عن تقبل قيم وعلوم حداثة لـم يعرفهـا تراثهـا. اليابـان وبعض بلـدان جنـوب شـرق آسيا انخرطـت فـي الحداثـة مـن دون مقاومـة مريـرة او شعـور ساحـق بالذنب، لكـن الصين العريقة حضاريا قاومتها ومـا تزال خاصـة فـي مـا يتعلـق بالديمقراطيـة وحقـوق الانسـان. لمـاذا؟ لان تـراث الاسـلاف اي عبـادتهم بـالتعلق بتراثهـم يهيكـل المخيـال الجمعـي بضـرب مـن الرق النفسي يجعـل الاسلاف يحكمون عبر تـراثهم من وراء قبورهم حياة الاحياء فيملون عليهم نمط تفكيرهم وحياتهم مقدمين لهم اجوبة ماضيهم علـي اسئلـة حاضرهم. وهـي الـي ذلك اجوبة يقينية تسد باب التساؤل واعادة النظـر والتجديـد

والابداع علي غير منوال الاسلاف. يقول مرسيا الياد : (عندما كان المبشر الانثروبولوجي (ستريلهو) يسأل قبيلة ارنتا الاسترالية عن سبب اقامة بعض الشعائر، كان اعضاؤها يجيبونه لان اسلافنا امرونا بذلك (..) في غينيا الجديدة يرفض اعضاء قبائل الكاي تغيير انماط حياتهم قائلين : لان الاسلاف كانوا يفعلون ذلك ونحن نتصرف مثلهم كما روي ذلك منذ خلق الارض : كما ذبحوا كذلك يجب علينا ان نذبح وكما فعل اسلافنا في سالف الازمان كذلك يجب علينا ان نفعل اليوم).

هذا لا يعني ان قانون التلاقح الثقافي لا يسري علي الثقافات التي يحكمها الاسترقاق النفسي للاسلاف بل يعني فقط ان التلاقح الثقافي فيها يكتسي شكل الصدام الدموي احيانا بين القديم والجديد، بين الوافد والاصيل، لكن الاتجاه التاريخي العام هو الي تقارب الثقافات وتلاقحها وتوحيدها وهو اتجاه ازداد اليوم اتساعا وعمقا بفضل ثورة الاتصالات (التلفون، الفاكس، الانترنت، الراديو، التلفزيون، الفضائيات، اوتوسترادات المعلومات..) التي جعلت التلاقح الثقافي جاريا بكثافة غير مسبوقة علي مدار الساعة. وهكذا يدمر كل يوم اكثر الانغلاق الثقافي الذي فقد مبرر بقائه بعد انهيار الحمائية الاقتصادية امام دفق الرساميل، السلع، الخدمات، الافكار، والاشخاص. كما لم يعد ممكنا اقامة حواجز جمركية ضخمة في وجه الواردات الاقتصادية المنافسة للمنتجات المحلية كذلك لم يعد في الامكان اقامتها في وجه الواردات العلمية، الفكرية والثقافية الحمائتان الاقتصادية والثقافية هما منذ الان من الماضي.

التلاقح الحضاري والثقافي ظاهرة تاريخية موضوعية مثل الظواهر الطبيعية من العبث مقاومتها. بفارق واحد : الظواهر الطبيعية لا سبيل لكبتها اما الظواهر التاريخية فيمكن كبتها لبعض الوقت لتندفع بعد ذلك كالاعصار اي في صورة ثورة عشوائية بدلا من التطور الطبيعي والسلمي المتدرج وهو ما شاهدناه في الكتلة الشرقية التي فجرها من داخلها تلاقح الثقافات بالاذاعات والتلفزيونات العربية. ويبدو ان الظاهرة علي وشك ان تكرر نفسها في إيران حيث تلفظ اديولوجيا المحافظين المنغلقة علي نفسها أنفاسها الاخيرة. السبب؟ استحالة القطيعة مع حضارة العصر العلمية والتكنولوجية والثقافية والفنية. لان هذه القطيعة تعادل انتحارا جماعيا. صين ماو تسي تونج احتفلت بقبولها بعد طول انتظار في المنظمة العالمية للتجارة، قلعة العولمة وتلاقح الاقتصاديات والثقافات وايران الخميني ما زالت تناضل لتصبح عضوا فيها. لا الصين الملحدة ولا ايران الاسلامية راضيتان عن عولمه الاقتصاديات والقيم الثقافية. ولكن مكره أخاك لا بطل. التلاقح الحضاري والثقافي قانون عام لا يصد ولا يرد. فما هي اشكال تحققاته التاريخية؟ عديدة. التوفيق (سانكريتيزم) وهو ما تحقق مثلا في الصابئة التي كانت مزيجا من العرفان اليهودي والمسيحي والمانوي والمجوسي. وبالمثل كانت اليهودية تجميعا لعناصر من ديانه اخناتون التوحيدية واخري من الديانة البابلية الوثنية. الصورة الاخري التي يأخذها التلاقح الثقافي هي التمثل اي هضم عناصر من الثقافات الوافدة مع الاحتفاظ بما هو جوهري في الثقافة الاصلية.. المثال الاشهر لذلك هو الحضارة العربية الاسلامية التي تمثلت فلسفة وعلوم الاغريق والهنود والفرس الوثنية لكنها احتفظت بجوهرها الخاص : التوحيد، الشكل الثالث هو اتحاد الثقافة الوافدة بالثقافة الاهلية الي درجة طغيان الوافد علي الاصيل. وهو ما نعاينه اليوم في ما يسميه السسيولوجيون (أمركة العالم) اي تبني تكنولوجيا، وقيم وانماط السلوك والاستهلاك والحياة الامريكية خاصة من لدن الاجيال الشابة المتلهفة علي الجديد واللامألوف والموضة. امريكا، اوروبا واليابان هي الاقطاب الثلاثة المؤثرة في العالم اليوم اقتصاديا وعلميا وتكنولوجيا وثقافيا ومنتجاتها علي اتصال دائم بالثقافات الاخري الاقل تطورا وانتشاراً وتنافسية. 90 في المائة من اخبار العالم

تنقلها اربع وكالات انباء غربية. وهكذا يكون التأثير في الثقافات الاخري اكثر من التأثر بها. لماذا؟ بسبب ضعف تنافسية الثقافات الاخري العلمي والتكنولوجي وايضا الثقافي. مثلا الفكر النقدي، الديمقراطية، حقوق الانسان والمواطن، حقوق المرأة، المساواة بين الجنسين وبين جميع الاجناس، الفصل بين المؤمن والمواطن بالمساواة في حقوق المواطنة وواجباتها بين المواطنين المختلفين دينيا واثنيا او لغويا، الاعتراف بالجسد وبالفرد الذي يختار قيمه باستقلال نسبي عن المجتمع وفصل الديني عن السياسي والفصل بين الدين والبحث العلمي والابداع الادبي والفني والفصل بين المطلق الميتافيزيقي والنسبي التاريخي وحماية البيئة.. هذه القيم الفلسفية هي جميعا بنت الحضارة الحديثة حصرا. بالتأكيد وجدت في الحضارات والثقافات السالفة ملامح منها لكنها لم توجد ككل متماسك إلا في الحضارة العالمية المعاصرة. هذه القيم كونية لان كل عقل سليم في اي مكان كان يقبلها. تشربتها معظم الثقافات الاخري. لكنها ما زالت تواجه مقاومة في ثقافتنا العربية الاسلامية. عدم اقتباس ثقافتنا لها وبالاحري انتهاكها يجعلها متورطة في صدام مزدوج خارجي وداخلي : خارجي مع منظمات حقوق الانسان في العالم، مع منظمة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة مع الاعلام العالمي والرأي العام العالمي والدبلوماسية الدولية : اقدم مثلا علي ذلك من عشرات الامثلة، النزاع المتواصل بين لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة وحكومة السودان في عهد الترابي بخصوص مسألة اعادة الرق. وتجد نفسها في صدام داخلي مع قطاعات متنامية من السكان خاصة النساء والشباب والمثقفين والاقليات ومنظمات حقوق الانسان القومية، والمثل الابرز علي هو الصراع المحتدم الان بين الاصلاحيين والمحافظين في الجمهورية الاسلامية الايرانية والذي قد يتطور الي حرب أهلية. كل ثقافة تنغلق اليوم علي نفسها لا تفعل غير نشر اعلان مضاد لنفسها وتحريض اتباعها علي الانغماس العشوائي في الحداثة عملا بالقانون النفسي : الرغبة في انتهاك المحرم : (احب شيء الي الانسان ما منع). في هذا السياق قال انتوني ليك رئيس مجلس الامن القومي في ادارة كلينتون الاولي : (بفضل الثورة الاسلامية في ايران غدا اسلوب الحياة الامريكية هو المثل الاعلي للشباب الايراني) وتنبأ بان الشباب الجزائري سيصنع صنيع الشباب الايراني اذا حكمت الجبهة الاسلامية للانقاذ الجزائر).

تلاقي متدامج

تلاقي الاقتصاديات القومية في اقتصاد عالمي متدامج جري حتي الان علي نحو عفوي ومتوحش : استفاد منه البعض وسقط البعض ضحايا له. الاخصائيون في العالم متفقون علي ان ما تفتقده عولمة الاقتصاد هو مؤسسات الضبط علي الصعيد العالمي لان الدولة القومية ليست قادرة علي ضبط ما يجري خارج حدودها. وظيفة مؤسسات الضبط هي التحكم في مسار وتائر التدفقات الاقتصادية لتقليص آثارها الجانبية والتضامن مع ضحاياها بتقديم التعويض لهم. البعض اقترح الاكفاء بتعزيز المؤسسات القائمة واعادة توجيهها والتنسيق بينها لتشتغل كجهاز عالمي متكافل في التجارة والمال والعمل والصحة والثقافة بحيث تغدو معاييرها في هذه المجالات ملزمة للجميع. المأخذ الاساس علي هذا الاقتراح هو ان هذه الهيئات تقنوقراطية لا ديمقراطية لان اصحاب القرار فيها غير منتخبين. قدم الباحث الفرنسي في المستقبليات جاك اتالي مشروعا ينطلق من نموذج الاتحاد الاوروبي لتأسيس حكومة عالمية تضطلع المنظمة العالمية للتجارة فيها بدور لجنة بروكسل في ضبط المتبادل التجاري منعا لصدام الدول اي منعا للحرب التجارية التي قادت الامم الي الحرب العالمية الثانية، يقوم مجلس الامن بعد تعديله بتمثيل بلدان الجنوب فيه بدور الحكومة العالمية التي تسهر علي منع الصدامات السياسية بين بلدان المعمورة.

وأخيرا ينتخب سكان العالم برلماناً عالميا يعبر عن آراء ومصالح البشرية كافة لفرض رقابة ديمقراطية علي باقي هيئات الحكومة العالمية. لكن جاك اتالي المهتم بالثقافة سها عن هيئة مركزية في الحكومة العالمية هي منظمة ثقافية عالمية اي اليونيسدكو المحسنة لتتفرغ منعا لصدام الثقافات لمعالجة التعليم والاعلام والثقافة في العالم. مهمتها تجنب احدي صور هذا التلاقح وهو المحو الثقافي بضبط التلاقح الثقافي العفوي المتروك لقانون الانتخاب الطبيعي اي البقاء للاصلح : للاقوي والاكثر قدرة علي المنافسة وسيطرة علي وسائل ثورة الاتصالات اي ثقافات الشمال. كما ان قوانين السوق ليست قادرة ـ بدون ضبط ـ علي حسن تدبير الاقتصاد العالمي فلذلك قوانين التلاقح الثقافي العفوي تتطلب ضبطا ملائما لطبيعتها حتي لا تندثر الثقافات الاقل تنافسية. اليونيسكو الجديدة هي التي ينبغي ان يوكل اليها ضبط التلاقح الثقافي ببرنامج اعلامي وتعليمي يضمن درجة معقولة من التنوع الثقافي في العالم. كيف؟ باعادة هيكلة المؤسسات التعليمية في العالم لمجانسة برامجها في ما خص القيم الكونية مثل الديمقراطية وحقوق الانسان باعتبارها قيما ثقافية عابرة للقوميات يتعرف فيها العقل الانساني علي نفسه لتخريج اجيال انسانية ذات وعي متجانس لا ينتهك حقوق الانسان ولا يسكت علي انتهاكها ومتشبع بقيمة التضامن البشري وباحترام البيئة باعتبار الارض وطن الانسانية الحقيقي المهدد بكارثة ايكولوجية مميتة. ذلك سيكون ولا شك اهم مكسب اخلاقي تحققه الانسانية في كل تاريخها مثل هذا البرنامج الاعلامي والتعليمي العالمي يساعد شباب العالم علي استيطان كل ما هو ديمقراطي وعقلاني وانساني وكوني ومحرر وحافز للانسان علي التفكير بنفسه واللجوء للحكمة بدل القوة ويساعد علي غلغلة هذه القيم في الوعي العام. بالتوازي مع هذا البرنامج العالمي الموحد تنفرد كل مدرسة قومية ببرنامج حديث يعلم النشء عناصر ثقافتها الخاصة بشرط شارط ان لا تتعارض مع القيم الكونية اي لغتها وفنونها وتاريخها وادابها. وفي كل الجامعات يدرس الطلاب برنامجا ادبيا مهجنا يزودهم بنبذ من روائع الاداب والفنون في جميع الامم وجميع العصور لتخريج اجيال ذات تكوين ثقافي تعددي. في فرنسا يدرس التلاميذ مادة جديدة هي الذوق لحماية المطبخ القومي من الاندثار لحساب الاكلات السريعة المنمطة. لا تستطيع اليوم اية ثقافة ان تصمد الا اذا حدثت نفسها ويسرت نفسها لتحبب نفسها لابنائها.

خلال تسعينيات القرن الماضي قررت الحكومة الالمانية تحديث اللغة الالمانية لتصمد في وجه الانكليزية والفرنسية داخل اوروبا الموحدة. ورشة المطالبة بتحديث الرسم الفرنسي لتبسيطه اكثر فاكثر مفتوحة.. البعض يدعو الي كتابة صوتية لتيسير الفرنسية علي متعلميها. أما ورشة تحديث العربية فما زالت لم تفتح بعد رغم ان طه حسين طالب بتسير النحو واحمد امين طالب بالغاء الاعراب اي تغيير اواخر الكلم وهو ما حققه هادي علوان في كتاباته الاخيرة. نحونا شديد التعقيد وتجاوزه التطور. معظم خريجي الجامعات واساتذتها يرفعون بحروف الجر ومع ذلك فان فصاميتنا الثقافية التي تمارس عكس قناعاتها وسياسة النعامة ما زالتا تشكلان عائقين ذهنيين يعوقاننا عن التفكير في تيسيره لتكييفه مع تطور النطق فاللغة ليست استثناء من سنة التطور. لماذا لا نبدأ بمجانسة البرنامج التعليمي في ما يخص القيم الكونية في الفضاء العربي؟ ولماذا لا نفعل ذلك ايضا عبر شراكة متوسطية علما بان الشراكة الاقليمية والعالمية هي من اولويات حقبتنا. شراكة اقتصادية، علمية، تكنولوجية، وثقافية لجعل التبعية المتبادلة بين بلدان كل اقليم وبلدان العالم مضبوطة ولجعل العلاقات بين البلدان تقوم علي التضامن لا علي موازين القوي التي هي صورة محسنة من قانون الغاب.

الشراكة الاقليمية والعالمية هي منذ الآن الاداة الاساسية للتحكم في التغيرات الكبري

واعادة التفكير جماعية في التحديات الجارية التي لم يعد بامكان اية امة ان تواجهها بمفردها مثل الانفجار السكاني، الاوبئة، الفقر، تهميش الشباب، الهجرة، الامية، المخاطر النووية والايكولوجية. توجد الآن بداية شراكة متوسطية اقتصادية فلماذا لا نطالب بتوسيعها لتغدو شراكة حضارية ثقافية ايضا فيتحاور المثقفون والمجتمعات المدنية في الضفتين الشمالية والجنوبية للمتوسط حول المشاكل والتحديات المشتركة والمشاكل والتحديات لم تعد منذ الآن قومية بل اقليمية وعالمية. التلاقح الحضاري والثقافي المضبوط في اطار شراكات اقليمية وشراكة عالمية سيكون تلاقح القيم الكونية قيم الديمقراطية وحقوق الانسان، اما التلاقح المتروك لقانون الانتخاب الطبيعي فسيكون انتصارا للقيم السلعية والاستهلاكية الغربية علي جميع قيم العالم. هل آن لانسانية القرن الحادي والعشرين ان تشرع في التفكير في صنع تاريخها بنفسها بدلا من مكابدته من موقع المتفرج السلبي؟. محاضرة القيت في مؤتمر (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) عن (في عالم متغير : الحضارات صدام ام حوار؟. الذي عقد في القاهرة خلال شهر نيسان (ابريل) 2002

"الزمان" 2002/6/19

لماذا يرفع سيزيف العربي الحجر الثقيل ليقع على قدميه؟

في تاريخ الأمم أيام بيض وسود. البيضاء من أيامها هي تلك التي أسعفتها بأساطيرها المؤسسة أي الأحداث التاريخية أو الرمزية التي هيكلت مخيالها الجمعي كالثورة الفرنسية أو هيكلت مخيال الإنسانية الجمعي كالاعلان العالمي لحقوق الإنسان. هذه الأساطير المؤسسة لا بديل لها لإلهام الخيال وتحريك الطاقات الخلاقة. أما السود من أيامها فهي تلك التي حلت بها فيها الهزائم التي عجزت عن هضمها نفسيا وذهنيا بأخذ الدروس الحقيقية منها. في هذه الحالة تنطوي على نفسها كحلزون خائف لتجتر أفكارها السوداء أي نكباتها وهوسها الجماعي بأخذ الثأر محولة له الى قرارات سياسية وعسكرية انتحارية بدلا من التسامي به في مآثر جماعية خلاقة تسترد بها ثقتها في نفسها وتسمو بها الى مستوى المنتصرين عليها.

افتقر المخيال الجمعي العربي في تاريخه الحديث الى أسطورة مؤسسة بريئة وملهمة. بل كابد الهزائم التي كذبت أوهام العرب عن أنفسهم كخير أمة أخْرِجَت للناس وإصابتهم بجنون الثأر المستحيل لهزائمهم المتواصلة منذ هزيمة المماليك أمام نابليون في نهاية القرن الثامن عشر الى هزيمة عرفات وحماس أمام شارون في بداية القرن الحادي والعشرين فضلا عن هزائم قرنين من الاستعمار تركت جروحا لا تني تتعفّن.

ثقافة الثأر العشائري الراسخة في الوعي الجمعي عامل أساسي جعل هذا الوعي يحول نكباته الى اجترار ذهني ثأري بدلا من تحويلها الى تفكير بعيد النظر في نقد الذات يهديها الى وعي ضرورة التماهي بالعدو أي التشبه به في حداثته العلمية والفكرية والقانونية والسياسية لإعادة صياغة الشخصية التقليدية لتكييفها مع متطلبات عصرها كما فعلت اليابان غداة نكبتها في سنة 1945 التي لم يعرف لها تاريخ البشرية مثيلا. ثقافة الثأر العشائري لا تلاحقنا كلعنة الفراعنة في علاقتنا مع الآخر وحسب بل أيضا في علاقتنا مع أنفسنا بين البلدان العربية وداخل كل بلد منها من جرائم الشرف الى التوترات والحروب القبلية والطائفية. عن صواب أطلق محمد حسنين هيكل على حرب العشرين عاما بين الجماعة الاسلامية والجهاد الاسلامي من جهة والدولة المصرية من جهة اخرى، "حرب الثأر الصعيدي بين قبيلة البوليس وقبيلة الاسلاميين".

كان لهيستيريا الثأر من الغرب و"ربيبته إسرائيل" نتائج كارثية ليس أقلها رهاب النخبة التقليدية من الحداثة الغربية التي ما تلتها بالاستعمار الغربي وعجزها عن ممارسة العقلانية السياسية بما هي اقتراحات بنّاءة، مراهنة على أهداف واقعية مدروسة، تنظيم عقلاني لقواعد اللعبة السياسية، قراءة واقعية لموازين القوى والتقيّد بها في إتخاذ القرار،

إدارة ذكية للصراعات لإنضاج شروط حلها سلميا. وأخيرا صناعة متطورة للقرار.

السياسة الثأرية السائدة اليوم خاصة لدى النخب النافذة في فلسطين وسورية والعراق طردت كل سياسة عقلانية من صناعة القرار الداخلي : في سياستها الداخلية ترفض الحوار وفي سياستها الخارجية ترفض التفاوض. وهكذا تزيد من احتمالات الانفجارات الداخلية والحروب الخارجية. وهذا ما يفسر انتقالها من انفجار داخلي الى آخر ومن حرب الى أخرى أشد ضراوة.

حدث لهذه القيادات ذات الثقافة التقليدية المشبعة بالنرجسية الجمعية ما يحدث عادة لبعض المصابين بالاكتئاب عندما يدفعهم شعورهم الساحق بالذنب الى سلوكيات عقابية ذاتية قد تصل في منتهاها الى الانتحار.

يتجلّى هذا العقاب الذاتي الجماعي في أعراض عديدة اقتصر منها على عرضين : سياسة كل شيء أو لاشيء وعبادة التسلح والعنف لرد الاعتبار للنرجسية الجمعية الجريحة بانتصار عسكري حصرا تغسل به عار هزائمها العسكرية.

سياسة كل شيء أو لاشيء كانت وراء رفض الحاج أمين الحسيني لقرار لجنة بيل Peel اعطاء الفلسطينيين 80% من فلسطين في 1939 وكذلك رفض قرار التقسيم الأممي الذي أعطاهم 45% منها في 1947. كما كانت أيضا وراء رفض حافظ الأسد سنة 2000 ، في اخر قمة مع بيل كلينتون، استرداد الجولان باستثناء 200 متر على ضفاف طبرية مبررا ذلك بانه غطّس رجليه في مائها وأكل من سمكها عندما كان في الجيش ! فماذا كانت النتيجة : صعوبة استرداد خليفته لمتر واحد من الجولان في المستقبل المنظور الا بثمن تنازلات لم يكن قادة إسرائيل يحلمون بها.

عبادة التسلح بأسلحة الدمار الشامل دفعت صدام الى قرارات داخلية وخارجية هاذية : ضرب الأكراد بالأسلحة الكيماوية وضرب المتظاهرين بالقنابل المسيلة للدموع المصنوع من مادة الافلاتوكسي التي تؤدي الى الاصابة بسرطان الكبد بعد خمس سنوات كما كشف ذلك لاسبوعية فرنسية مستشاره العالمي السابق د. حسين الشهرستاني، الى شن الحرب على إيران وضربها بالأسلحة الكيماوية وشن حرب على الكويت والتسبب، بعدم استقالته، في الحرب الطاحنة الدائرة اليوم في العراق والمفتوحة على مجاهيل كثيرة قد تكون كارثية على العراق والشرق الأوسط. وفضلا عن ذلك فقد أهدر طوال 35 عاما موارد بلاده المادية والبشرية على مذبح جنونه الثأري وهوسه بالانتصار العسكري. والحال ان موارد العراق المحتوى على الاحتياطي النفطي الثاني في العالم ترشحه ليكون اقتصاديا وعلميا يابان العالم العالم العربي لا أن يغدو من أكثر بلدان العالم فقرا واستبدادا دمويا.

التشبث العصابي بكل شيء أو لاشيء وبالانتصار العسكري كانا دون شك وراء مشروع حماس "تحرير فلسطين حتى آخر ذرة تراب واعادتها وقفا على جميع المسلمين في العالم" ورفضها الجنوني لدولة فلسطينية في الضفة والقطاع والقدس الشرقية. فماذا كانت النتيجة بعد فشل العمليات الانتحارية في تحقيق هذا الهدف المستحيل؟ توجيه زعيم حماس الروحي الشيخ احمد ياسين، الشهر الماضي، نداء لشارون يستجديه هدنة لمدة 10 سنوات وبعدها لكل حادث حديث.

هذه السياسة الانتحارية كانت أيضا وراء انتقال عرفات المفاجئ من خيار التفاوض

الواعد الى خيار الكفاح المسلح العقيم والانتفاضة التي لا تقل عنه عقما. لماذا ؟ لأنه غار من "اخراج" حزب الله الجيش الإسرائيلي من الشريط الحدودي، فقرر بين عشية وضحاها تغيير الاتجاه من المفاوضات الى طرد جيش الاحتلال واعلان الدولة الفلسطينية كاملة السيادة من طرف واحد أي بلا ثمن الاعتراف بإسرائيل على غرار مصر والأردن. فماذا كانت نتيجة هذا القرار الثأري الانتحاري ؟ عقابا للذات غير مسبوق : عودة جيش الاحتلال الى الـ 42% من الارض الفلسطينية التي حُررت بالمفاوضات. بالمنطق ذاته رفض عرفات مقترحات كلينتون التي عرضت عليه 97% من الأراض المحتلة مع وعد بـ 40 مليار دولار لتوطين اللاجئين في الدولة الفلسطينية الموعودة. فماذا كانت نتائج هذا القرار الذي لم يقر أي حساب للمصلحة الوطنية الفلسطينية في وطن ودولة قابلة للحياة ؟ أن يجد عرفات نفسه وشعبه اليوم على كف عفريت.

أراد آخر أبطال "الأمة العربية والاسلامية" الوهابي بن لادن بـ "غزوتي" نيويورك وواشنطن أخذ ثأر أمتيه "الصليبيين". صدّقه العرب والمسلمون جمهورا ونخبة وصفقوا له. فماذا كانت النتيجة؟ عكسية تماما : غزت أميركا افغانستان طاردة بن لادن وحماته، طالبان" منها وعاقدة العزم على استئصالهم. فضلا عن ذلك قدم "بطلنا" للمحافظين الجدد في الادارة الامريكية الفرصة التي كانوا في انتظارها لوضع رؤاهم الجيوسياسية موضع التطبيق : اعادة تعريف وترتيب أولوياتهم باستقلال عن حلفائهم الاوروبيين، الاستغناء عن شكليات القانون الدولي التي طالما احتمى بها "المستضعفون" الذين نصّب بن لادن نفسه ناطقا بإسمهم، وضع نهاية لإمكانية ظهور أوروبا موحدة سياسيا وعسكريا كقطب عالمي طالما حلم به العرب يقظة ومناما، وأخيرا ساعدهم من حيث لا يدري على اعادة صياغة العلاقات الدولية وفق موازين القوى الدولية التي جعلت من الولايات المتحدة أقوى قوة اقتصادية وعسكرية في العالم مصرّة على الانفراد بسلطة القرار الدولي في محاولة لوقف انتشار أسلحة الدمار الشامل والقضاء على الارهاب الاسلاموي بمطاردته وبالتحكم الفعال في الدول المنتجة له بالتعليم الديني الجهادي وهي- باستثناء تونس – باقي الدول العربية الاخرى وبتغيير الانظمة التي قد تسلحه أو تأويه.

هذه هي العواقب الوخيمة التي صنعها العرب، بجنونهم الثأري، لأنفسهم بأنفسهم. منطقي : لأن الثأر لا يصنع سياسة بل مغامرات انتحارية حقيقة ومجازا أغرت قادة "القاعدة" وسورية وفلسطين والعراق برفع حجر ثقيل ليسقط في النهاية على أقدامهم وشعوبهم التي طال ليلها وعذابها.

إيلاف 2003/03

الديمقراطية تقتضي الفصل بين المواطن والمؤمن

صرح الخميني يوم عودته من منفاه الفرنسي سنة ١٩٧٩ للجموع التي كانت تكبر له : "ولاؤنا ليس لإيران بل للإسلام". نص قانون حماس الأساسي على "تحرير فلسطين حتى آخر ذرة تراب وتحويلها إلى وقف على جميع المسلمين في العالم".

هذان التصريحان : الشيعي والسني يكشفان عن اللاشعور الجمعي السياسي- الديني التقليدي السائد، الذي لايعترف بوطن آخر غير الإسلام ولابقيم أخرى غير القيم الدينية : الحلال والحرام.

فماهي العواقب السياسية لهذه الهوية التي تعتبر الدين جنسية؟

١- اعتبار الدين وطنا للمسلم، مما يؤدي إلى إنكار ضرورة الفصل بين الوطن بماهو انتماء سياسي إلى دولة أمة أي إلى قوانين ومعايير عامة يشترك فيها جميع المواطنين تضمن لهم الأمن والحرية والحقوق المدنية، وبين "دار الإسلام" بماهي ذكرى امبراطورية تتطلب من المسلم أن يكون مسلما، قبل أن يكون بل دون أن يكون مواطنا ذا هويات متعددة ومنفصلة لكن غير متناحرة.

٢- عدم الفصل بين المواطن المنتمي إلى وطن يتمتع فيه بحقوق المواطنة بلا استثناء وبالمساواة مع باقي المواطنين دونما اعتبار للإنتماءات الخاصة كالدين، والمؤمن بماهو ينتمي إلى دين مالا يعطيه حقوقا مدنية ولايحرمه منها.

٣- تأييد الطابع التيوقراطي والتمييزي للدولة الإسلامية الذي يقصي من حقوق المواطن غير المسلم والمسلمين من طوائف أخرى والمسلمين العلمانيين والنساء. إيران يعرفها دستورها بأنها جمهورية إسلامية، شيعية، جعفرية. وهكذا تقصي من مواطنتها غير المسلمين، المسلمين السنة والشيعة غير الجعفريين، كما تتضمن معظم الدساتير الأخرى - عندما يوجد دستور أصلا- في الدول العربية السنية مادة تنص على اعتبار الشريعة "مصدرا رئيسيا للتشريع" يقصي أيضا مواطنيها غير المسلمين وغير السنة والنساء من مزايا القانون الوضعي الذي حول الإنسان من رعية إلى مواطن، ومن عضو في طائفة إلى فرد. كما تفرض تمييزا دينيا مرفوضا في عصر حقوق الإنسان والمواطن على مواطنيها غير المسلمين عندما تحرمهم من الترشح لرئاسة الدولة أو تقلد وزارات السيادة كرئاسة الحكومة ووزراء الخارجية، الداخلية، العدل، التعليم والدفاع، وقيادة الجيش. أو عندما تعامل المرأة المسلمة كنصف رجل في الإرث والشهادة وصفر رجل في الحقوق

المدنية وحقوق الإنسان، بل إنها تحرمها من حقوقها الأولية كأهليتها المدنية لعقد زواجها بنفسها ومشاركة الزوج في رئاسة العائلة وحماية نفسها من الطلاق والحصول على جواز سفر والسفر بدون إذن زوجها.

أما المرأة غير المسلمة فالقوانين المستمدة من الشريعة تعاملها بدونية أكبر : إذا كانت المسلمة لاترث في البلدان العربية -باستثناء تونس- إلا نصف ثروة أبويها إذا لم يكن لها أخ والنصف الآخر يذهب إلى أقرب ذكر إليه أو للخزينة، فإن غير المسلمة لاترث زوجها أو أبناءها المسلمين ولايحق لها حضانتهم في حالتي الطلاق والترمل!

ضحايا القوانين المستمدة من الشريعة ليس المواطنون غير المسلمين أو المسلمين من طوائف أخرى الذين يعاملون كطابور خامس، وليس النساء وحسب، بل أيضا المسلمون العلمانيون الذين تعاملهم كمرتدين لمجرد ممارسة حقهم في التعبير والتفكير باستقلال نسبي عن المجتمع. مثلا منع الأزهر آلاف الكتب منها "أولاد حارتنا" لنجيب محفوظ، الذي حاول إرهابيون إسلاميون اغتياله بفتوى من عمر عبد الرحمن، وحكمت المحكمة الشرعية المصرية بالردة على نصر حامد أبو زيد، وبذلك أفتت ضمنيا لأي مسلم متعصب بقتله، وحكم القضاء الإيراني على الجامعي هاشم أغاجري بالإعدام بسبب مطالبته في إحدى محاضراته بإصلاح الإسلام وأدين الفيلسوف والمتصوف السوداني محمد محمود طه بالردة ونفذ فيه حدها : الإعدام. ضحية أخرى -لا أخيرة- لهذه القوانين المستلهمة لامن قوانين العقل بل من قوانين الغاب هي حقوق الإنسان التي تشكل الأسطورة المؤسسة للمجتمع المدني العالمي الناشيء وللقيم الإنسانة الكونية المعاصرة. القصاص ينافي احترام الحق في الحياة، الحدود الشرعية أو العقوبات البدنية تتنافى مع الحق في السلامة الجسدية، حد الردة، قطع رأس المرتد، يتنافى مع حرية التعبير والتفكير والإبداع الأدبي والفني، التفاوت الجوهري بين الرجل والمرأة يعارض المساواة بين الجنسين، اللامساواة، بين المسلم وغير المسلم تتنافى مع المساواة بين المواطنين في الحقوق كافة. وباختصار فالمحرمات الشرعية تعارض حق الفرد الحديث في التصرف الحر في رأسه وفرجه وحقه في اختيار قيمه ونمط حياته وملبسه ومأكله ومشربه ومنكحه.

هذا الإسلام الإقصائي لغير المسلم وللمسلم من طوائف أخرى وللمسلم العلماني وللمرأة وللفرد الحديث وللحقوق المدنية ولحقوق الإنسان الضرورية جميعا للديمقراطية بتعريف الحد الأدنى، حق كل مواطن في أن يتمتع بحقوق متساوية مع جميع مواطنيه وفي أن يكون ناخبا ومنتخبا، يشكل عائقا بنيويا للديمقراطية بل حتى لمجرد العيش معا.

وحدها تونس شرعت غداة الاستقلال ١٩٥٦ في إصلاح الإسلام انطلاقا من تحديث خطبة الجمعة وقوانين الأحوال الشخصية فألغت "مفسدة تعدد الزوجات" كما أسماها الإمام محمد عبده، الطلاق التعسفي، الزواج المبكر الذي يمنع الفتاة من إتمام تعليمها الثانوي، وأعطت للمرأة الحق في الإجهاض والحد من النسل وأهليتها القانونية في عقد زواجها بنفسها والرئاسة المشتركة للأسرة بالتشاور مع الأطفال وإرث كامل ثروة أبيها إن لم يكن لها أخ ذكر.

الجدير بالذكر أن عالمين طبقت شهرتهما آفاق العالم الإسلامي هما الشيخان محمد الطاهر بن عاشور مؤلف تفسير "التحرير والتنوير" ونجله محمد الفاضل بن عاشور، أول مفتي لتونس المستقلة، شاركا في تحضير هذه القوانين، الأول باعترافه بتطابقها مع مقاصد

الشريعة والثاني بصياغتها. ووحدها تونس شرعت منذ ١٩٩٠ في إصلاح تعليمها وخاصة تعليمها الديني إصلاحا عميقا باستبعاد كل النصوص المعادية للمرأة ولغير المسلم وللعقل وبإدخال دراسة الفلسفة الحديثة إلى السنتين الأخيرتين من التعليم الثانوي وإدخال الفلسفة والعلوم الإنسانية إلى جميع الاختصاصات العلمية في التعليم العالي وإلى التعليم الديني لتدريب الأجيال الصاعدة على استخدام الفكر النقدي الذي يسائل الأفكار عن شرعيتها العقلانية. أما النخب السياسية العربية الأخرى، الفاقدة للشجاعة السياسية وبعد النظر، فلم تتبن هذه الإصلاحات الضرورية ومازالت تدرس القرآن، لاكنص روحي حصرا، بل ككتاب تاريخ وجغرافيا وبايلوجيا وفزياء فلكية واقتصادية وسياسية واستراتيجيا وجهاد.. مما ألحق أفدح الضرر بالقرآن ودارسيه معا.

ما العمل لمساعدة العالم العربي على الخروج من أزمة الحداثة العاصفة التي يجتازها ؟ بالتدخل الخارجي الذكي والفعال لدعم النخب الإصلاحية بالضغوط الدبلوماسية، الإعلامية والإنسانية على النخب التقليدية السياسية والدينية لإصلاح التعليم الديني وقوانين الحالة الشخصية على الطريقة التونسية ولتبني التقدم التدريجي، لكن الحقيقي إلى الديمقراطية انطلاقا من الاعتراف بحرية الإعلام والبدء بتطبيق حقوق الإنسان بتعريف الحد الأدنى : مساواة المسلم بغير المسلم والمرأة بالرجل، فلم يعد وعي الإنسانية الجمعي اليوم يقبل بحرمان المرأة من قيادة السيارة -كما في السعودية- والحال أنها كانت في عهد النبي تقود الجمل وهو أصعب مراسا من السيارة كما قال الأمير طلال بن عبد العزيز. ماهي القوى المؤهلة لممارسة هذه الضغوط؟ المجتمع المدني العالمي الصاعد والديناميكي مثل منظمة العفو الدولية ومنظمة حقوق الإنسان الأمريكية وغيرها من المنظمات الإنسانية الأخرى ولجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة، والإعلام العالمي ودبلوماسية البلدان الديمقراطية.

أذكر السادة الحساسين لمثل هذا التدخل الخارجي باسم مبدأ السيادة المتقادم بالبديهيات التالية : بأن كل مشكل قومي لايحل في الوقت المناسب يتحول إلى مشكل دولي لأن الحدود بين الداخل والخارج آخذة في التلاشي، فالسوق الدولية المتدامجة والعولمة وثورة الاتصالات، عمقت التبعية المتبادلة بين جميع الأمم، وتعجز النخب العربية عن حل مشكلاتها المزمنة من الصحراء الغربية إلى حرب جنوب السودان ومشكلة الجزر بين الإمارات وإيران، ولولا التدخل الخارجي لكان الاحتلال العراقي مازال في الكويت. وأذكرهم أخيرا بأن الجمهورية الإسلامية الإيرانية لم "تعلق" حد الرجم، الذي ذهب ضحيته في العقد الأول للثورة ١٢٠٠ امرأة إلا بفضل تدخل الاتحاد الأوربي. ولم ينس شيوخ الأزهر اعتراضهم منذ ثلاثين عاما على دمج المرأة في سلك القضاء بأنها "عاطفية" إلا عندما أحسوا بضغوط خارجية قوية، فلم يعترضوا على تعيين امرأة في مجلس الدولة والحال أن ٢٣٪من القضاة التونسيين نساءإصلاح العالم العربي والإسلامي دينيا، سياسيا، اقتصاديا، تعليميا، مهمة فوق وسائله، إذا ترك لوحده ومصلحة مشتركة بينه وبين الإنسانية، التي يهمها قطع الطريق على فوضى عالمية دامية باسم "الجهاد إلى قيام الساعة" أو امتلاك أسلحة الدمار الشامل أو غيرها من التعلات.

مداخلة في مؤتمر قطر الثالث لـ "الديمقراطية والتجارة الحرة" أبريل 2003

لماذا النرجسية الدينية عائق ذهني لاندماجنا في الحداثة ؟

خلال مشاركتي في المؤتمر الأخير للمجلس الأعلى للثقافة في القاهرة بين 1و3 يوليو - تموز - الجاري طلب مني إعلاميون شباب بينهم طالب أزهري يعد رسالة جامعية، يتابعون ما أنشره في "إيلاف" العودة إلى توضيح أكثر لكيفية شل النرجسية الدينية للفاهمة العربية الإسلامية التي أبت الاندماج في الحداثة.

النرجسية، كمرض ذهني، هي حب الذات الجنوني الذي يجعل الأنا تحتقر الأنوات الأخري ؛ استلهمها علم نفس الأعماق من الأساطير الإغريقية التي تعبر عن رغبات وتخييلات لا شعور البشرية الجمعي. فماذا تقول الأسطورة النرجسية ؟ إن نارسيس [نرجس] كان فتى جميلاً افتتن به الفتيات والفتيان دون أن يبالي بحبهم. إحدى الفتيات التي احتقرها دعت عليه فاستجابت الإلهه نمسيس لدعوتها فقضت عليه بالنظر إلى صورته المنعكسة في غدير. كلما نظر إلي صورته ازداد حباً لنفسه. تمكن منه هذا الهوى العقيم فقضي أياماً منكباً على الغدير إلى أن تلاشى ومات. حولته الألهة إلى زهرة : النرجس.

الرسالة : كل رفض للعلاقة بين الأنا والآخر، كل حب نرجسي قاتل

الانطواء النرجسي على الذات واللا اهتمام بالعالم الخارجي مع إفراط في تقدير صورة الذات الجليلة (هو في الواقع تعويض لصورة الذات المستبطنة سلباً) هو عرض الإصابة النرجسية.

تجليات النرجسية الدينية الإسلامية عديدة منها حظر زواج المسلمة بغير المسلم "غير المكافئ لها". أما لا شعورياً فيعبر عن الرغبة في نكاح المحارم عبر الزواج من داخل العشيرة Ondogène المعروف بين بعض القبائل البدائية التي تحرم الزواج من خارج القبيلة Exogène ؛ كما تجلي في تقديس اللغة العربية التي تماهت بالقرآن وهو ما أعاق تطوير رسمها ونحوها وإثراء معجمها بالمصطلحات الغربية علي غرار العبرية التي عبرنت 90 % من مصطلحاتها. العرب، كما لاحظ مالك بن نبي، فتنتهم لغتهم الجميلة فحولوها إلى وثن يعبدونه. مؤخراً أفتى القرضاوي بتحريم كتابة القرآن بغير الرسم العثماني الهيروغليفي والحال أن ابن خلدون حبذ تغييره لأن "الصحابة كانوا أشباه أميين" كما قال ؛ ومنها أخيراً نسخ الإسلام لجميع الديانات !

الإعلام والتعليم خاصة الديني يعيدان الإنتاج الموسع لهذه النرجسية. الإعلام بما هو مدرسة بلا جدران يدخل التعصب والهذيان النرجسي إلى كل مكان، كما ينتج التعليم

الديني بالتسلسل أجيالاً من المهووسين بنقاء الهوية الدينية مثل هوس النازيين بنقاء الهوية العرقية، كما استولى على النازيين رهاب تمازج القوميات والثقافات بالأمس أصيب اليوم دعاة النرجسية الدينية برهاب تلاقح الإسلام مع الديانات والثقافات الأخرى. النرجسية الدينية تخضع لنفس منطق النرجسية القومية : تحويل التفاوت التاريخي بين الثقافات والقوميات إلى تفاوت طبيعي، جوهراني وأخيراً حتمية سحق العرق الآري "الأعلى" لجميع الأعراق "الدنيا" في النازية وحتمية انتصار الإسلام "الدين الوحيد الحق" على جميع الديانات "الباطلة" في النرجسية الدينية.

باستثناء التعليم الديني التونسي الذي تصالح مع واقع وذهنية وقيم عصره، مازال التعليم الديني، الذي أعد مناهجه وكون المكلفين بتنفيذها الإخوان المسلمون ومن لف لفهم، صناعة تفبرك فقهاء الإرهاب وتحقن أدمغة التلاميذ والطلبة بسعار النرجسية الدينية : "الأديان التي يتبعها الناس كثيرة (..) لكن الدين الحق واحد هو دين الإسلام أما الأديان الأخرى فهي باطلة" (محمد بن عبد الوهاب "التوحيد" ص 33، الدرس الثالث عشر طبع وزارة التعليم، الرياض) "الأديان الأخرى مهلكة لصاحبها" (نفس المصدر) الإسلام ليس مستقبل البشرية المحتوم وحسب بل مستقبل الجن أيضاً : "العالم كله من إنس وجن يجب عليه أن يدخل في الإسلام ويترك أديانه الباطلة وإلا فان مصيره النار" (نفس المصدر ص 34).

النرجسي يستثمر طاقته الشبقية في جسده، لكنه أيضاً قد يركزها على عضو واحد فقط. كذلك الأمر في النرجسية الدينية فقد تستثمر في الإسلام ككل أو في فرقة منه فقط كما فعل م.ب.عبد الوهاب الذي اعتبر الوهابية هي "الفرقة الناجية" ففي كتابه "منهاج السنة" (الذي وزعته هذه الأيام، كما قالت د. إقبال الغربي، أستاذة علم النفس بالجامعة الزيتونية، سفارة السعودية في تونس على جميع أساتذة الجامعة وسبق لسفارة المملكة في الرباط أن وزعت فتاوى ابن تيمية على جميع ثانويات المغرب ! ترى هل يوجد في وزارة الخارجية خلية مختصة في الدعاية الوهابية ؟) الذي هو في الواقع كتاب للفتنة الطائفية : تكفير للشيعة وتلميح شفاف بتفسيق أول أئمتهم، علي، الذي "قاتل علي الولاية وقتل بسبب ذلك خلق عظيم ولم يحصل في ولايته لا قتال للكافرين ولا فتح لبلادهم ولا كان المسلمون في زيادة" (ج 3. ص 175) و"إن علياً كان مخذولاً وقاتل على الرئاسة لا على الديانة" (ج 2. ص 203) إلخ.

لا عجب من أن تكتب هذه الشخصية السايكوباتيه، التي هدمت قبور الصحابة وقبر الحسين في كربالاء وقتلت شيعتها بمن فيهم النساء والأطفال، هذا الهذاء النرجسي الإقصائي. المذهل حقاً أن ‘يلقن للأطفال في الإعدادية ليبث فيهم العجز عن الإعتراف بمبدأ الواقع، الإنطواء على الذات، الحب الحصري للذات، الإقصاء الراديكالي للأخر، قيادة الناس إلى الجنة بالسلاسل، الهوس بنقاء الهوية، جنون العظمة، التعصب، الطائفية والإرهاب.

الأطفال والمراهقون سريعوا التصديق. أما عندما يتعلق الأمر بنداء النرجسية الاثنية أو الدينية فالراشدون لا يقلون سرعة تصديق عن أطفالهم. عندما قال شيخ الأزهر "المسلمون أمة من الرعاع" هاجوا وماجو. لكن لو قال لهم "المسلمون أمة السيف والقلم" لداعب نرجسيتهم الجمعية..

لعبت هذه النرجسية في نظري، دور العائق الذهني الذي ساهم في ردع نخب وشعوب

العالم العربي عن الاندماج في الحداثة. منذ تحول العرب المسلمون من أمة فاتحة إلى أمة مفتوحة وبدأ الفقه الإسلامي ينطوي على نفسه أكثر فأكثر ويتحول إلى فقه جهادي ضد "الكفار" محرماً التشبه بهم وتقليدهم والتبادل معهم. بلدانهم "دار حرب" لم يعد يسمح للمسلم دخولها إلا بفتوى. قادة الإسلام السياسي _ الجهادي اللاجئون في الغرب برروا لجوئهم إليه بفتاوى. عد ابن تيمية "مخالفة الكفار قصداً من مقاصد الشريعة" طبقاً للقانون النرجسي النمطي : الذات لا تحب إلا ذاتها والمسلم لا يقتدي إلا بالمسلم. "وجوب مخالفة الكفار" أقام حاجز نفسياً بين العربي المسلم والحضارة الحديثة وجعله يستبطن تكفير كل ما أنتجه "الكفار" من مؤسسات وعلوم إنسانية وقيم كونيه وتكنولوجيا حتى غدا كل ما يستورده من خارج العالم العربي يحتاج إلى فتوى تسوغه. القهوة، الحنفية، البرنيطا، الكوكاكولا، التلفزيون، علوم الحداثة، حقوق الإنسان، الديمقراطية..

هذه النرجسية الدينية الهاذية أنتجتها ظروف تاريخية : حروب النبي مع اليهود، الحروب الصليبية، الحروب ضد المغول، الإستعمار الأوربي وقيام الدولة اليهودية. هذان الحدثان الأخيران أحدثا زلزالاً في النفسية العربية الإسلامية فردت عليهما بردين عقيمين : الإنطواء على الذات النرجسية الجريحة وجنون المطالبة بأخذ الثأر. الرد الأول مثلة الإسلام الطرقي الذي فر من المواجهة والثاني مثله الإسلام الجهادي المهووس بأخذ الثأر من "اليهود والصليبيين" لإزالة الجرح النرجسي مهما كان الثمن ولو كان "علي وعلى أعدائي يارب" ! الممثل النموذجي لهذا الإسلام الإرادوي، الجهادي والإستشهادي هو "القاعدة"، في العالم، وحماس، في فلسطين و"الدولية الإسلامية" التي تتعاطف سراً مع الأولى وتدعم علانية الثانية. لا يملك أي من هذين التنظيمين هدفاً استراتيجياً قابلاً للتحقيق. هدف القاعدة، كما عرفه الظواهري في كتابه "فرسان تحت راية النبي" هو نشر عقيدة "الولاء للمسلمين والبراء من الكافرين ومعبوداتهم" أي القطيعة الراديكالية مع الغرب والإنسحاب من الأمم المتحدة واعادة الخلافة الإسلامية. هدف حماس لا يقل عبثية عن هدف القاعدة : "تحرير فلسطين حتى آخر ذرة تراب وإعادتها وقفاً على جميع المسلمين في العالم". الدافع الحقيقي الكامن وراء هذين الهدفين الهاذيين هو الثأر ولا شيء غير الثأر. النرجسي الجريح لا تجد الراحة إليه سبيلاً إلا عندما يثأر لكرامته الممرغة في الوحل. الرد السليم على التحدي الغربي كان الاندماج في حضارته لولا استبطان "وجوب مخالفة الكفار". لماذا لم ترد ألمانيا ويابان ما بعد الحرب على جرحهما النرجسي بردين مماثلين لردينا ؟ غياب النرجسية الدينية المستبطنة في ثقافتهما المعاصرة. سأل الكاتب المصري، السيد ياسين، مضيفيه اليابانيين عن موقف الدين من سياستهم فكان الرد : "وما دخل الدين في ذلك ؟". علمانية كل من اليابان وألمانيا حالتا دون الردود الهاذية عن جرحهما النرجسي. هما قلدتا الغرب واندمجا في حضارته ونحن خالفناه وصارعناه وانغلقنا على قيمه كحلزونه مفزوعة.

إسلام السعار النرجسي، إسلام "مخالفة الكفار" وأخذ الثأر العسكري منهم فقد صوابه بمعني أنه فقد القدرة على طرح المشاكل الحقيقية والبحث لها عن حلول واقعية. "مخالفة الكفار" في اقتصادهم وسياستهم ومؤسساتهم وعلومهم وقيمهم وأساليب حياتهم هو النواة الصلبة للنرجسية الإسلامية السائدة وموكبيها من ماضوية وتعصب وإرهاب..

ما العمل لتحرير الشعور واللا شعور الإسلاميين من "وجوب مخالفة الكفار" و"غزوهم الفكري" ؟ هناك إمكانيتان : الأولى تحققت في إيران التي حققت بثورتها الإسلامية نرجسيتها الدينية حتى آخر فانتازم، فخالفت الكفار في كل شيء : حرمت موسيقاهم وقيمهم وأغلقت المؤسسة المدرسية أربع سنوات لأسلمة المعرفة وهكذا، وفي نفس الوقت،

تجاوزت نرجسيتها الدينية عبر تحقيقها. فتحرر مسلموها من الحنين إلى دولة المهدي المنتظر بعدما أحبطهم ظهورها فلم يتعرفوا على أحلامهم وأوهامهم في الجمهورية الإسلامية التي حولت بلادهم إلى سجن كبير غلق إيران في وجه الحضارة الغربية أوجد شهية انتهاك المحظور.

شيعة إيران هم اليوم أكثر شعوب العالم الإسلامي استغراباً وعلمانية. وهو ما حصل بدرجة أقل في كل من السودان وأفغانستان الإسلاميتين لكنها كافية لشفاء قطاع عريض من سكانها من الحنين إلى دولة الخلافة الراشدة التي لم يتعرفوا عليها في دولتي حسن الترابي والملا عمر.

الإمكانية الثانية، الأقل ألماً ودماً، تمر بإعادة ثقة العرب المسلمين بأنفسهم بما فيه الكفاية لينفتحوا على الغرب. وكلما انفتحوا أكثر وحققوا تنمية أكثر كلما تعزز إحترامهم لأنفسهم وثقتهم فيها.

إحلال تعليم ديني تنويري محل تعليم النرجسية الدينية السائد هو الطريق الملكي لبلوغ هذا الهدف : اكتساب احترام الذات والثقة في النفس لإقامة الحداد على وجوب مخالفة الكفار والولاء والبراء وآيات السيف والجهاد إلى قيام الساعة وتطبيق الشريعة واحتقار العقل والمرأة وغير المسلم والحنين إلى دولة الخلافة الراشدة وتحرير فلسطين حتى آخر ذرة تراب واستعادة الأندلس وإقامة حكم إسلامي في فرنسا في الخمسين عاماً القادمة !

فماذا عسى أن يكون هذا التعليم الكفيل بوضع حد لاستبطان النرجسية الدينية وإعادة هيكلة المخيال العربي الإسلامي ؟ سيكون بلا شك تعليماً لا يعلم التلاميذ والطلبة النصوص التي تغذي النرجسية الدينية وكذلك النصوص التي تغذي الهذيان كالإيمان الحرفي بالجن والملائكة وإمكانية إقامة علاقات أو أحلاف عسكرية معهم. في الثمانينات استخدم مهندسون إعلاميون عرب ومسلمون مقيمون في أمريكا الكمبيوتر لإحصاء عدد الملائكة فاتضح أنهم شعب تعداده 120 مليون نسمة وطالبوا الحكومات العربية بالإستعانة بهم في محاربة إسرائيل كما استعان بهم المسلمون في غزوة بدر.

تعويض النصوص الظلامية في التعليم الديني :

1 - بنصوص عقلانية من المعتزلة والفلاسفة والمصلحين والكتاب المعاصرين تدربهم على التفكير بأنفسهم وعلى الانفتاح والحوار والتآخي الإنساني كما فعلت المناهج التونسية.

2- تدريس حقوق الإنسان والفلسفة في جميع مستويات وفروع التعليم الأدبي، العلمي، المهني والديني، كما هو الحال في تونس، لفتح الوعي الإسلامي للقيم الكونية والفكر النقدي الذي يعلمه رد الفعل الصحي بوضع نفسه موضع تساءل. وهكذا يغدو قادراً على تخريج أجيال لا تبدأ خطابها بفرضيات غبية ولا تنهيه بأحكام قطعية.

"إيلاف" يوليو 2003

العلمانية الفرنسية ليست ضد الدين

ما هي العلمانية ؟ هي التنظيم السياسي للمجتمع الذي لاتمارس فيه الدولة أية سلطة دينية ولاتمارس فيه الكنائس أية سلطة سياسية كما يقول معجم روبير الفرنسي. في الواقع تقوم العلمانية على ثلاثة مباديء اساسية: حياد الدولة في الشأن الديني، حياد المدرسة إزاء الدين، احترام حرية الضمير والاعتقاد.

حياد الدولة في الشأن الديني يعني إنها لا تتخذ دينا من أديان مواطنيها دينا رسميا لها كما كانت تفعل الدول الأوروبية الاقطاعية التي كانت تجعل من دين هذه الكنيسة أوتلك دينا رسميا لها ولذلك تُقصي المؤمنين بالديانات الاخري من حقوق المواطنة جاعلة منهم مجرد مقيمين فيها أو مجرد ذميين كما كانت تفعل دولة الخلافة الاسلامية.

كما ان الدولة العلمانية تمنع نفسها من التدخل في الدين فانها تحظر على رجال الدين سواء أكانوا كهنة أم شيوخا التدخل في السياسة حتي لايسخرها كل منهم لخدمة دينه ضد اديان المواطنين الأخري مما قد يؤدي الي اضطهاد ديني لباقي الاديان او إلي الحروب الدينية. وهكذا فالمبدأ العلماني الأول هو كما لخصه محمد عبده لادين في السياسة ولاسياسة في الدين أو كما كثفه الازهري سعد زغلول: الدين لله والوطن للجميع .

حياد المدرسة ازاء جميع الاديان. عندما كانت الكثلكة هي دين الدولة في فرنسا العهد البائد كانت المدرسة تغسل أدمغة روادها بمباديء وقيم وطقوس الدين الرسمي، غيرت الثورة الفرنسية الكبري هذا الوضع. لكن فقط في ظل الجمهورية الثالثة ولدت المدرسة العلمانية التي غدت بوتقة تصهر جميع الخصوصيات الاثنية والدينية والطائفية في كل واحد هو المواطنة، التي تمثل القاسم المشترك الأعظم لجميع مكونات الأمة الفرنسية، التي تتعالي على جميع الخصوصيات دون ان تضطهدها أو تلغيها. كيف وصلت المدرسة العلمانية الفرنسية الي هذا الانجاز الحداثي الهائل ؟ بحظر كل دعاية دينية في تعليمها. لا تقدم لتلامذتها وطلبتها الا المعارف العلمية والقيم الانسانية الكونية التي لاتنتمي تعريفا لأي دين كان ولاتعادي أي دين كان. العلوم لا تعادي الاديان وانما تدرسها بموضوعية لفهمها كما تدرس أية ظاهرة اجتماعية - تاريخية لاكتشاف آلياتها ووظائفها وقوانينها الخاصة. لماذا حظرت المدرسة العلمانية الدعاية الدينية فيها ؟ لقطع الطريق على اضطهاد دين لدين وعلى النزاعات الدينية وعلى ظهور المواطن الذي يقدم دينه على مواطنته ومصالح وطنه كما تفعل الحركات الاسلامية المتطرفة اليوم.

المبدأ الثالث للدولة العلمانية هو السهر بعين لاتنام على ضمان حرية الضمير والاعتقاد، أي انها تضمن لجميع مواطنيها حقهم في اقامة شعائرهم الدينية والايمان بأي دين شاؤوا أو عدم الاخذ بدين من الاديان، فالدولة الفرنسية، كباقي الدول العلمانية، لاتفتش في

القلوب والضمائر كما يقول حديث نبوي ولاتعطي لنفسها أي سلطان على عقول مواطنيها او المقيمين فيها ولا تسألهم عن مشاعرهم ونواياهم وافكارهم وانما على أعمالهم اذا انتهكوا القانون. شعار الدولة العلمانية في فرنسا والعالم هو الآية القرآنية لا إكراه في الدين (2/256) وتتبني تفسير محمد عبده لها في تفسير المنار: من شاء أن يدخل فيه فليدخل ومن شاء أن يخرج منه فليخرج . المفارقة هي ان اتحاد الجمعيات الاسلامية الفرنسية التابع للاخوان المسلمين يرفض هذا المبدأ القرآني-العلماني حرية الاعتقاد لانه قد يؤدي الي الردة عن الاسلام في فرنسا ! متناسيا ان الدولة العلمانية لاتقول لمواطنيها ما هو حلال وما هو حرام في دين كل واحد منهم، فهذا شأن خاص بالمؤمنين، بل تقول لهم حصرا ماهو مسموح وما هو محظور قانونيا لا دينيا. القانون عام ينطبق على جميع المواطنين والمقيمين بقطع النظر عن انتماءاتهم الخصوصية العرقية او الطائفية او الدينية، اما الحلال والحرام الديني فخاص بكل جماعة دينية والالتزام به موكول لضمير كل مؤمن ولا علاقة للدولة وقوانينها به.

لم تصبح فرنسا علمانية اختيارا بل اضطرارا. فصل الطوائف، المتصارعة على السيطرة على الدولة خاصة الطائفتين الكاثوليكية والبروتستانتية، عن الدولة كان شرطا شارطا لبقاء فرنسا كأمة وبطاقة لدخولها الي الحداثة كما قال الفيلسوف الفرنسي المعاصر اندريه كلو غسمان. وضع فرنسا بالامس هو الوضع الذي توجد فيه معظم دول ارض الاسلام اليوم مثل ايران والعراق والسعودية والمخرج من الاضطهاد الديني واحتمالات الحرب الدينية هو الحل الفرنسي الذي تبنته اليوم الدول المتحضرة أو السائرة في طريق التحضر.

كيف اصبحت فرنسا علمانية ؟ بالمدرسة العلمانية التي لاتدرس الدين لروادها بل تدرسهم العلوم الحديثة التي تساعدهم على فهم الدين علميا وتحررهم بالتالي من التعصب الديني المؤدي الي الإرهاب والفتنة.

الوثيقة التاريخية الأولي في العالم التي قسمت الادوار بين الدولة والكنائس وحددت مجالات تدخل كل منها في ميدانه الخاص هي الميثاق العلماني الذي اصدره البرلمان الفرنسي في 1905 والذي وضع حدا فاصلا لكل التباس في علاقة الدولة بالكنيسة. المادة الأولي في هذا الميثاق تنص على : تضمن الجمهورية حرية الضمير كما تضمن حرية ممارسة العبادات (...) المادة الثانية: لا تعترف الجمهورية ولا تدفع اجرا ولا تقدم مساعدات مالية لاي دين(...) بيد انه يمكن ان تدرج في ميزانيات (الدولة والمحافظات والبلديات) النفقات الخاصة بممارسة جمع الصدقة والمرصودة لتأمين حرية ممارسات الشعائر الدينية في المؤسسات العامة مثل المدارس الثانوية والمتوسطة ودور اليتامي والمستشفيات والسجون . الدولة العلمانية الفرنسية لا تعترف بأي دين، الكثلكة في قضية الحال، وتعترف اذن على قدم المساواة بحق جميع الاديان بما فيها الإسلام. في تنظيم نفسها وممارسة شعائرها بحرية. بحكم هذه المادة الغت الدولة الفرنسية قانونا قديما كان يعتبر المطارنة الكاثوليك اعضاء بالوظيفة في مجلس الشيوخ لكنها لا تتردد اليوم، كما يقول الكاتب والصحفي الفرنسي، الان غريش A.gresh في اشراكهم في لجان التفكير مثل لجنة التفكير في اداب السلوك حيث يمكن لهم تقديم مساهمة ايجابية. كما ان الدولة العلمانية الفرنسية لطفت في التطبيق من التزامها بعدم تقديم المساعدات المالية للمؤسسات الدينية فوضعت على ذمة الكنيسة الكاثوليكية 300 الف عقار وتكفلت في 1920 بالانفاق على جامع باريس الشهير الذي اقامته احتراما للجنود المسلمين الذين تطوعوا في الحرب العالمية دفاعا عن فرنسا. هذا وحده شاهد على ان العلمانية الفرنسية ليست ضد الدين بل انها تقدم خدمات لجميع ديانات مواطنيها عندما يكون ذلك ضروريا وتضمن لهم جميعا

حرية ممارسة شعائرهم في جميع الظروف شرط عدم الاخلال بالامن العام ومحاولة انتهاك حياد الدولة او المدرسة في الشأن الديني مثلما فعلت وما تزال بعض الجمعيات الاسلامية الظلامية التي غررت ببعض الفتيات المسلمات الفرنسيات او المقيمات دفعتهن الي الحجاب والنقاب كتحد لقانون منع الدعاية الدينية في المدرسة العلمانية.

يوجد في فرنسا خمسة ملايين مسلم مليونان منهم فرنسيون ونصف مليون منهم يمارس الشعائر الدينية. لنقارن هذا بوضع الشيعة في العراق في عهد صدام حسين، في 1976 قصفت الطائرات افواج الشيعة الذين توجهوا الي كربلاء لاحياء ذكري امامهم الحسين فقتلت منهم 100 حاج ثم حظر صدام عليهم منذ ذاك التاريخ زيارة كربلاء في ذكري الامام الحسين ولم يرفع هذا الحظر الا بعد سقوط نظامه الدموي هذه السنة، وفي الجمهورية الاسلامية الايرانية يكابد ملايين المسلمين السنة الاضطهاد الديني الوانا. مثلا سنة طهران طالبوا دون جدوي الجمهورية الاسلامية منذ ظهورها بالترخيص لهم في بناء جامع خاص بهم لاداء صلاة الجمعة وعندما اقاموا جامعا غير مرخص هدمه مجهولون ! كما يكابد شيعة السعودية 10% من السكان، اضطهادا لا يقل بشاعة عن اضطهاد السنة في ايران حيث يدرس اطفالهم يوميا تكفير محمد بن عبدالوهاب وابن تيمية لهم من شك في كفرهم فقد كفر كما يقول في الفتاوي . القرآن احل للمسلم كل ذبائح اهل الكتاب، اليهود والنصاري.. لكن علماء السعودية حرموا منذ بداية التسعينات اكل ذبائح الشيعة !

حتي لا تندلع فتن دينية بين الشيعة والسنة وبين المسلمين وغير المسلمين على امتداد أرض الاسلام، الخيار العلماني هو افضل الخيارات الممكنة لتفادي ذلك. وليس مصادفة ان نجم العلمانية صاعد بين شباب السعودية ومثقفيها وكافة سلك التعليم فيها، وان مشروعا دستوريا عراقيا نشر هذا الشهر ينص على فصل الدين عن الدولة والمساواة بين الرجل والمرأة والغاء عقوبة الاعدام، وان معظم انصار الرئيس سيد محمد خاتمي و300 من ايات الله بينهم اية الله منتظري انضم اليهم يوم 6 من الشهر الجاري مصطفي الخميني حفيد الامام الخميني يطالبون بتحويل الجمهورية الاسلامية الي جمهورية علمانية على غرار الجمهورية الفرنسية اي بتخلي الملالي عن سلطاتهم في الدولة وبالعودة الي حوزاتهم العلمية. السبب ؟ ادراكهم لخطر الجمهورية الاسلامية على الاسلام، منذ 1994 توقف الايرانيون عن اعطاء اسمي علي والحسين لابنائهم مفضلين عنهما اسمين مجوسيين داريوش وأراش. كما يعترف حجة الاسلام علي زم نائب رئيس بلدية طهران بأن 75% من الشعب و 86% من الطلبة توقفوا عن الصلاة. فبماذا ردت الجمهورية الاسلامية عن هذين الخطرين ؟ حظر اعطاء اسماء غير اسلامية مما جعل معظم الاطفال يحملون اسمين، رسمي وشعبي، وتخصيص شهر سنويا لتجنيد وسائل الاعلام لحث الايرانيين على العودة الي الجوامع الفارغة 10 مصلون يشهدون صلاة الفجر و20 صلاة الظهر في كل جامع كان في عهد الشاه يغص بالمصلين.

لكن اتحاد الجمعيات الاسلامية الفرنسية التابع لتنظيم الاخوان المسلمين الدولي ما زال مصرا على رفض مبدأ حرية الضمير والاعتقاد القراني-العلماني.

- للتوسع اقرأ كتاب عزيز العظمة : العلمانية من منظور مختلف مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت.

"الراية"، 11 غشت 2003

عوائق توطين الديمقراطية
في المجتمعات العربية

في العالم الغربي تمر الديمقراطية بأزمة نمو أو أزمة تحول، أما في العالم العربي فالديمقراطية تلمع بغيابها، لكن شبحها بدأ يحوم حول القصور العربية وسط ترحيب النخب والفئات الشعبية المستنيرة في الداخل وضغوط الدبلوماسية الدولية والمجتمع المدني العالمي والإعلام العالمي في الخارج، توطينها يبدو إذن ـ في السيناريو المتفائل ـ مسألة وقت.

دور النخبة ليس تحويل الديمقراطية من إشكالية إلي شعار سهل بل طرح العوائق الفعلية التي تعيق دخولها إلي المجتمعات العربية التي لم تعرف ثقافتها السياسية الفصل بين السلطات الثلاث التنفيذية، القضائية والتشريعية، كما لم تعرف تداول النخب والأجيال السلمي علي الحكم ولم تعرف الفصل بين الديني والسياسي التي تشكل معا العمود الفقري للديمقراطية.

واقع ان المجتمعات العربية لم تعرف حتي الآن بداية تجربة ديمقراطية جدية واحدة هو في حد ذاته مؤشر علي كثرة العوائق السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية وخصوصا الدينية التي تناضل ضد توطين الديمقراطية، لكن يوجد في المقابل، عامل أهم يناضل لصالحها هو الحداثة التي بدأت تتغلغل في وعي النساء والشباب بسرعة غير مسبوقة منذ سقوط جدار برلين دون حرب وقد يزيد توغلها سرعة سقوط بغداد دون قتال.

الديمقراطية، كالحداثة، مشروع لا يكتمل فهي إذن مسار تدريجي. في مسقط رأسها، الغرب، لم تولد كاملة بل مرت ولا تزال بتطورات متلاحقة تتدرج بها في كل مرحلة من الأدني إلي الأعلي، الديمقراطية البريطانية لم تبلغ الدرجة التي تعطيها الشرعية الديمقراطية إلا في 1918 عندما انتقلت من اقتراع الأغنياء (حوالي 3% من السكان) إلي الاقتراع العام والديمقراطية الفرنسية لم تبلغها إلا في 1944 عندما اعترفت للمرأة بحق التصويت والديمقراطية الأميركية لم تبلغها إلا في 1962 عندما اعترفت لمواطنيها السود بحقوقهم المدنية... ومع ذلك فمازال الطريق طويلا أمام هذه الديمقراطية العريقة لتدارك نقائصها والخروج سالمة من أزماتها بحل تناقضاتها الاجتماعية ـ السياسية.

لاشيء إذن يتطلب من المجتمعات العربية الانطلاق من الدرجة التي وصلتها الديمقراطيات العريقة بل حسبها استلهام التجارب الديمقراطية الفتية في جنوب شرقي آسيا وأوروبا الشرقية وأميركا اللاتينية وبعض البلدان الافريقية كالسنغال، تجد النخب والأحزاب المطالبة بالديمقراطية صنعا لو انها تنكب علي دراسة كيفية تذليل هذه التجارب

الديمقراطية للعوائق التي اعترضت طريقها عسي أن نستفيد منها هي في تذليل عوائق الديمقراطية في مجتمعاتها التي لم تعرف منذ خمسة عشر منها إلا شيخ القبيلة والخليفة اللذين لا يعزلهما إلا الموت، هذا العائق من الرسوخ إلي درجة انه مازال مستمرا بقوة حتي الآن، التداول ليس غائبا في الدول وحسب بل أيضا في أحزاب المعارضة التي تطالب به أناء الليل وأطراف النهار دون أن نقدم دليلا حيا علي امكانية هذا التداول داخل مؤسساتها الخاصة.

العوائق الاقتصادية والاجتماعية :الديمقراطية لم تقطع دابر التداول العنيف علي الحكم ولم تقلص العنف السياسي الجماهيري إلي أدني تعبيراته إلا بفعل الحداثة الاقتصادية أي تفوق معدلات النمو الاقتصادي علي معدلات النمو الديمغرافي، بدوره يشكل الفقر عائقا.

معظم سكان البلدان العربية الكبري، أكثر من 50%، يعيشون تحت خط الفقر، الفقراء تعاملوا حتي الآن مع الانتخابات الديمقراطية اما بالاستنكاف عن التصويت (مصر) واما ببيع اصواتهم (المغرب) واما بالتصويت الاحتجاجي لأكثر الحركات ديمانموجية وعنفا (الجزائر)، الديمقراطية لا تتأصل إلا في مجتمعات الوفرة إلي درجة أن رئيس البنك الدولي يقدر ان بلوغ متوسط الدخل الفردي السنوي عشرة آلاف دولار هو الشرط المناسب لتوطين الديمقراطية. عندئذ تتضاءل امكانية التصويت الاحتجاجي والعنف السياسي ويختفي بيع الأصوات. الفقراء هم عادة في معظمهم ضحايا الأمية والجهل وهذا لا يساعدهم علي وعي أهمية الديمقراطية كعامل استقرار سياسي يساعد علي التنمية الاقتصادية باستقطاب الاستثمارات الخارجية وباقناع الرساميل الداخلية بعدم الفرار، ولا يساعدهم فضلا عن ذلك علي وعي أهمية حقوقهم المدنية هم الذين لم يترك مطلب توفير لقمة العيش في رؤوسهم مكانا لأي مطلب سواه.

العوائق الثقافية : ثقافة الاجماع العشائرية الملازمة للذهنية التقليدية التي تعيق ظهور ثقافة الاختلاف الديمقراطي، النقاش المتعارض ضعيف في صحافة الأحزاب الديمقراطية وغائب في صحافة الحركات الدينية، عبادة البطل المنقذ، المعبر عن أسطورة المهدي المنتظر الدينية، الذي يحول بقدرة قادر عجز الشعوب الي قدرة سحرية تجترح بها المعجزات يعيق استبطان منطق المؤسسات التي لا تعترف بالابطال بل بالادوار والتي تقيم علي انقاض العلاقات الشخصية بين الحاكم والمحكوم علاقة المواطن بالمؤسسة، رُهاب النقد المستفحل في النخبتين السياسية والفكرية والموروث عن تربية عائلية مؤنبة ومذنبة تزرع في رؤوس ضحاياها الرعب من الوقوع في الخطأ الذي انجر عنه دائما في الأسرة فقدان حب الأبوين لطفلهما الخاطيء. يسقط هذا الطفل راشدا صورة الأبوين علي الرأي العام، هكذا. يغدو رهينة لصورته في مرآه الرأي العام حسبه أن تتراءي له سالبة حتي يرد بمردود انفعالي، بما أن الثقافة، الديمقراطية ثقافة معارضة ونقد، فالوعي العربي الإسلامي الهش يخشاها خشية الموت خاصة وان الثقافة السائدة مازالت تماهي التحليل الموضوعي للاخطاء السياسية أو الثقافية بالهجاء بما هو تسقط للمثالب الشخصية وترد عليه بالعنف.

العوائق الدينية : عوائق ثلاثة تتغذي من بعضها البعض التعليم والإعلام الدينيان والحركات الدينية. يتجلي عائق التعليم في المناهج الدينية المعادية للعقل وبالتالي للحداثة مؤسسات وقيماً والذي يجد امتداده في الإعلام الديني بما فيه الرسمي الذي هو في الواقع مدرسة بدون جدران. والتعليم والإعلام يتآزران علي قطع الطريق علي مؤسسات وقيم ومباديء الحداثة السياسية.

في الديموقراطية البرلمان هو مصدر الشرعية اما التعليم والإعلام فيعلمان جمهورهما بأن شريعة العقوبات البدنية هي مصدر الشرعية، الديموقراطية تفترض المساواة بين جميع المواطنين بينما التعليم والإعلام يؤكدان بأن المرأة غير مساوية للرجل، القوَّام عليها، وبأن غير المسلم غير مساو للمسلم، سليل خير أمة أخرجت للناس، الحداثة السياسية (الديموقراطية وحقوق الإنسان) تقدس الحرية، حرية الضمير والاعتقاد والتعبير والتفكير فيما الإعلام والتعليم الدينيان الرسميان يعتبرانها ردة عن الإسلام عقابها دق العنق، والديموقراطية. حكم الأغلبية فيما التعليم والإعلام يعلمان ضحاياهما بأن الطريق إلي الحقيقة السياسية ليس تصويت الأغلبية بل الدليل الشرعي الذي يقيمه أهل الحل والعقد : الفقهاء. لا ديمقراطية من دون احترام حقوق الإنسان الأساسية أما التعليم والإعلام إياهما فيوصيان ضحاياهما بأن انتهاك حقوق الإنسان، من الحق في الحياة إلي الحق في المساواة بين الرجل والمرأة والمسلم و غير المسلم، واجب شرعي يساعد علي احترام حقوق اللّه علي الإنسان من العبادات إلي إقامة الحدود. الحركات الدينية تمثل في الواقع مدرسة موازية للإعلام والتعليم الدينيين تعمل ربما بحمية أقوي علي تعميم أحكام فقه القرون الوسطي علي أوسع نطاق، ترفض الحداثة مؤسسات وعلوما وقيما لأن سبب وجودها ذاته هو محاولة قطع الطريق علي دخول الحداثة إلي أرض الإسلام. الحجج التي تبرر بها هذا الرفض مستمدة جميعا من ترسانة الفقه الإسلامي القديم. ترفض الديموقراطية لأنها حكم الأغلبية والشريعة لا تقيم وزنا إلا للدليل الشرعي الأقلوي عادة، الديموقراطية تقليد للكفار والحال ان مخالفتهم واجب ديني فالنرجسية الدينية لخير أمة أخرجت للناس تأبي أن تقلد أهل الجحيم، لأن النظام الديموقراطي يتعارض مع معايير وبنية النظام الإسلامي القروسطي ولأن الانتخابات بدعة لم تعرفها الشريعة الإسلامية.

يقول الشهير علي بن حاج في بحث له بعنوان الدمغة القوية في نسف عقيدة الديموقراطية (نرفض الديموقراطية) لأنها تقوم علي رأي الأغلبية (.....) اما نحن معشر أهل السنة والجماعة فنري ان الحق انما يعرف بالأدلة الشرعية لا بكثرة والفاعلين أو بكثرة الأصوات الغوغائية، ومن هنا كان اتباع الرسل قلة واتباع الطواغيت كثر كاثرة (...) ننبذ الديموقراطية لأن مخالفة الكفار من القواعد الشرعية التي غفل عنها جمهور المسلمين. (القاعدة) هي مخالفة اليهود والنصاري والأدلة الشرعية علي صحة هذه القاعدة أكثر من ان تعرف (...) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم مخالفة أهل الجحيم (0000) ان مخالفة اليهود والنصاري من أصول ديننا (...) ثم هو (النبي) نهي عن التّلقي من غير اللّه ومنهجه الخاص (...) ونهي عن الهزيمة الداخلية وهي التي تندس في النفس لنقلد هذا المجتمع المعين والجماعة الإسلامية قامت لتكون مكان القيادة للبشرية فينبغي لها ان تستمد تقاليدها كما تستمد عقيدتها من المصدر الذي اختارها للقيادة والمسلمون هم الأعلون وهم الأمة الوسط وهم خير أمة اخرجت للناس (الانقاذ 2 صفر 1411) راشد الفتوشي لا يقول شيئا آخر : مطلوب ان نعتمد في فكرنا المستقبلي مبدأ إسلاميا أصيلا طالما تغافلنا عنه وهو اعتبار مخالفة الكفار أي أمة اليهود والنصاري أصلا من أصول فكرنا وتنظيم حياتنا باعتبار ان ذلك مقصد من مقاصد الشريعة كما أكد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ويقول أيضاً الترشح لمنصب من مناصب الدولة سبب كاف للحرمان منه (...) ومن ثم فلا مجال في المجتمع الإسلامي للحملات الانتخابية يخوضها الزعماء، فلا تزكوا أنفسكم، وإنما الأمة هي التي تزكي وترشح من تراه كفوءاً لها (مقالات، دار الكروان، ص 84 باريس).

هذه المواقف التي تحاول قطع الطريق علي توطين الديموقراطية في المجتمعات العربية

يؤطرها جميعا عائق استبداد النخب السائدة التي تطبق في تعليمها وإعلامها وتشريعاتها ودساتيرها برامج الحركات الإسلامية الظلامية، وفي الوقت ذاته تنتهك القانون وحقوق الإنسان في اضطهادها لقادة وكوادر هذه الحركات محولة إياهم إلي شهداء جديرين بالعطف !

كيف يمكن تذليل هذه العوائق ؟بإعادة صياغة الوعي الإسلامي بالقيم الديمقراطية الإنسانية عبر إنشاء إعلام بديل يعلم الجمهور بالمشاكل الفعلية وبالمشاريع المتنافسة لحلها، وهكذا فصحيفة أو إذاعة واحدة مستقلة أجدي للديموقراطية من الاعتراف بمائة حزب معارض، وعبر تعليم حديث بالمقاييس الدولية وتعليم ديني تنويري يلغي تدريس الجهاد والاستشهاد والعقوبات الشرعية الدموية والتحريض علي كراهية الكفار وعداء المرأة والعقل وتعويضها جميعا بتدريس حقوق الإنسان المؤسسة لثقافة اللاعنف المتسلحة بقوة الحجة لا بحجة القوة في العلاقات بين الأفراد والمجموعات والمجتمعات، وعبر تحديث قوانين الأموال الشخصية علي غرار قوانين الأحوال الشخصية التونسية، وتعديل الدساتير حتي لا تتضمن مواد مناقضة للديموقراطية وحقوق الإنسان وتضمن حقوق المواطنة لجميع المواطنين بقطع النظر عن الجنس والدين والطائفة والقومية.. كيف يمكن التقدم إلي الديموقراطية في القرن الحادي والعشرين والنساء وغير المسلمين أنصاف مواطنين وفي بعض البلدان وأصفار مواطنين في البعض الآخر؟ !

هذه معالم في الطريق : طريق التقدم التدريجي لكن الحقيقي إلي توطين الحداثة والديموقراطية في العالم العربي.

"الراية، غشت 2003

هل تقليد العدو هو السبيل إلى الحداثة ؟

الأغنية - النشيد الشهيرة التي لقنتنا وصية سلفية : ''وأبي قال لنا أقتلوا أعدائنا'' والتي طالما ألهبت حماسي أيام حرب السويس والجزائر كم أتمني اليوم، لو كان لي صوت مغنيتها الخلاب، معارضتها بأغنية بديلة : ''وابن خلدون قال لنا قلدوا أعداءنا''، لكن جرحنا النرجسي مازال يأبى علينا ذلك.

الأحداث الجسام تعيد فتح هذا الجرح فينخرط الجميع في البكاء والإستبكاء علي أطلال الذكريات، الشعارات، الأوهام والأبطال الذين صنعوها. لكن النخبتين السياسية والفكرية بما هما الصانعان الرئيسيان للقرار السياسي والقرار الفكري النقدي لمجتمعاتهما ترفضان بوعي الانضمام إلي جوقة الباكين علي الأطلال. بل تفتحان ورشة نقاش صريح بقدر ما هو عميق للأسباب القريبة والبعيدة لهذه الهزائم المتلاحقة والتي يكاد ينسي آخرها أولها. وهذا ما لم يقع قط علي نطاق واسع في الفضاء العربي الإسلامي بسبب هيمنة النخبتين التقليديتين السياسية والدينية - الفكرية علي مصائره.

النخبة السياسية التقليدية مارست دون انقطاع سياستين انتحاريتين: سياسة النعامة وسياسة المشي علي حافة الهاوية. الأولي تتعامى عن رؤية الأخطار الداخلية المحدقة المتمثلة في المشاكل الحقيقية التي تتطلب معالجتها بنجاعة وشجاعة سياسية بعيدة النظر مثل مشكلة التنمية أي تحديث وترشيد الاقتصاد والتعليم وقوانين الحالة الشخصية ونزع فتيل قنبلة الانفجار السكاني وأخيراً إصلاح الإسلام لكي لا يظل العائق الأول للتنمية. أما الثانية فتستدعي الأخطار الخارجية القاتلة بتصريحاتها وقراراتها وممارساتها الخرقاء مقدمة بذلك الأسباب والذرائع لإسرائيل تارة ولأمريكا أو غيرها تارة أخرى لتضرب ضربتها.

بالمثل تمارس النخبة الدينية _ الفكرية نفس السياستين الانتحاريتين مرة بتجاهل تلك المشاكل الحقيقية التي تعامت عنها النخبة السياسية ومرة بإغراق الجمهور عبر وسائل الإعلام التي تحتكرها بالمشاكل البيزنطية الدينية أو الدنيوية كالحجاب وهجاء العولمة وعبادة الشيطان التي تملأ الآن الإعلام وتشغل الناس.. السؤال: هل تستطيع النخبة الحديثة المحدودة عدداً وإمكانيات والمحاصرة إعلامياً أن تسبح ضد هذين التيارين الانتحاريين؟ طبعاً تستطيع، رغم المخاطر التي قد تلامس المجازفة بالحرية، وبالحياة، سلاح النخبة الحديثة في هذا الصراع السياسي - الديني - الفكري هو الفكر النقدي أي توضيح المشاكل التي تطرح نفسها علينا بنقل المسكوت عنه إلي المتناقش فيه. حتى الآن انتصر التكفير علي التفكير والنقل علي العقل فأوصلنا إلي ما نحن فيه: آخر أمة أخرجت لناس. كيف نقلب المعادلة بتغليب التفكير علي التكفير والتحليل علي الفتوى والعقل علي النقل؟ بتقليد النخب الحديثة التي انتصرت علي نخبها التقليدية. باستخدام العلوم الإنسانية في نقد تراثها وصنع قرارها وتحليل مشكلاتها في إعلامها وتعليمها وحياتها الثقافية. ليس مصادفة أن

الغزالي كفر الفلسفة والحنابلة كفروا المنطق والمتأسلمون المعاصرون كفروا العلوم الإنسانية ''لأنها، كما يقول سيد قطب، مناهضة للدين وللإسلام خاصة'' قطعاً للإسلام بما هو دين ودولة وللقرآن بما هو كتاب تاريخ وجغرافيا وبايلوجيا وطب وكيمياء وفزياء لا بما هو ''كتاب روحي فقط'' كما قالت محققة بنت الشاطئ.

باستثناء المدرسة التونسية، مازالت الفلسفة والعلوم الإجتماعية مقصاة كلياً أو جزئياً من التعليم في العالم العربي. أخذ الدرس من هزائمنا منذ قرنين يتطلب منا أن نقصي هذا الإقصاء. لم تنتقل الأمم الحديثة من السلطة السياسية المطلقة إلي السلطة السياسية النسبية التي تقبل أن تعارضها سلطة مضادة إلا بعد أن نقلتها نخبتها الحديثة من سلطة النص المطلقة إلي سلطة العقل النسبية أي التي تعترف بشرعية الاختلاف وبتعددية القناعات والآراء والنظريات وبأن الحقيقة هي دائماً جزء من حقيقة أشمل برسم الاكتشاف.

انتقالنا إلي الحداثة سيمر أيضاً بنفس المسار: تحويل نصنا المقدس إلي موضوع نسائله بالعلوم الإنسانية لمعرفة ماوراء أبعاده الرمزية من عوامل موضوعيه وما وراء حمولته الروحية من مكونات تاريخية. ولنا في النخبة الأوربية الحديثة قدوة حسنة: فقد فصلت منذ ''الرسالة اللاهوتية - السياسية'' في القرن السابع عشر، بين العقل والنقل [الإيمان] وجعل سبينوزا النقل خاضعاً لمساءلة العقل مثله مثل أية ظاهرة طبيعية. وهو مسار توجه في أيامنا جان بوطيرو الذي حلل علي، ضوء تاريخ الأديان المقارن، الجذور الوثنية البابلية للكتاب المقدس وتالياً للقرآن الذي هو استعادة معدلة للعهد القديم.

نبدأ المسيرة الظافرة للخروج من تاريخ هزائمنا الطويل عندما نعطي من المحيط إلي الخليج للعلوم الاجتماعية تأشيرة الدخول إلي مدارسنا وجامعاتنا مثلما دخلت منذ قرون ولا زالت تدخل إلي جميع المؤسسات التعليمية في القارات الخمس.

في نهاية الثمانينات انتصرت الديمقراطية الليبرالية علي ''الديمقراطية الشعبية'' التوتاليتارية. لم تقلدنا، لحسن حظها، نخب أوربا الشرقية المهزومة فتقاطع سلع ورساميل وقيم وعلوم الغرب المنتصر عليها بل قلدته بدقة متناهية عاملة من حيث لا تدري بقول ابن خلدون : ''المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب''. السبب في ذلك أن النفس تعتقد الكمال في من انتصر عليها وانقادت له [..] فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء [..] لذا نري المغلوب يتشبه أبداً بالغالب [..] في سائر أحواله. انظر ذلك في تقليد الأبناء لآبائهم كيف نجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذاك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم''.

لم نتشبه بالمنتصرين علينا من غربيين وإسرائيليين في ''سائر أحوالهم'' الديمقراطية والعلمية لأن نرجسيتنا الجمعية الهاذية أوهمتنا بأننا خير أمة أخرجت للناس : يقلدها الناس ولا تقلد الناس. بل إن رفضها تقليدهم استحال إلي رهاب هستيري. ذكر عكيفا الدار في ''هآرتس'' أن شارون الذي اشترط حكومة يرأسها أبو مازن للتعاطي مع السلطة الفلسطينية قد يجد نفسه في موقف شبيه بموقف سلفه شامير عندما اشترط في 1991 علي الأمريكيين ذهاب سوريا إلي مؤتمر مدريد ليذهب هو إليه مراهناً علي رفض سوريا ''الأمر الإسرائيلي'' لكن حافظ الأسد خيب ظنه و ''كان إعلان سوريا الذهاب إلي مدريد أكثر الأيام سواداً في حياة شامير'' كما كتب الصحفي الإسرائيلي.. متوقعاً لشارون يوماً مماثلاً ليوم سلفه بخيبة رهانه علي الرفض الفلسطيني.

عندما يصل العمي السياسي بنخبة سياسية هذه الدرجة صفر من التفكير العقلاني فعليها

وعلى من أعطوها زمام قيادتهم السلام.

إيلاف ابريل 2003

العلمانية هي مفتاح المواطنة الكاملة بين الرجل والمرأة والمسلم وغير المسلم

ما هو تعريف العلمانية ؟

يعرف معَجم روبير العَلمانية، نسبة إلى العالَم بأنها : ''مفهوم سياسي يقتضي الفصل بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي، الدولة لا تمارس أية سلطة دينية والكنائس لا تمارس أية سلطة سياسية''. وهذا التعريف للعلمانية هو الذي صاغه محمد عبده في قولته الشهيرة ''لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين'' وهو الذي صاغه الأزهري سعد زغول في قولته الشهيرة أيضاً : ''الدين لله والوطن للجميع'' وللتوضيح أكثر أقول توجد ثلاثة أنواع من الدول : الدولة الدينية، الدولة العلمانية، والدولة الإنتقالية. والدولة الدينية هي التي وجدت في العصور الوسطي، ولم تبق منها على أرض المسيحية إلا دولة الفاتيكان، وعلى أرض الإسلام الا الجمهورية الإسلامية الإيرانية والدولة السعودية والسودان ودولة طالبان التي سقطت سنة 2002؛ الدولة العلمانية هي الدولة السائدة اليوم في العالم المتمدن؛ والدولة الإنتقالية من الدولة الدينية إلى الدولة العلمانية وهي السائدة في الفضاء العربي الإسلامي. فما هي الدولة الدينية أي التيوقراطية theocratique كما تسمي في اللغات الأوربية؟ هي كما عرفها المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسف Flavius Joseph ، القرن الأول الميلادي، والذي نحت كلمة التيقراطية : ''موسى (...) هو الذي أسس الثيوقراطية، واضعاً السلطة والقوة بيد الله''، أي أن الحاكمية الإلهية، التي تشكل النواة الصلبة في مشروع الإسلاميين، هي لله وحده. الدولة الدينية، حسب تعريف المؤرخ اليهودي، هي التي تطبق الشريعة التي جاء بها العقل الإلهي، وليس القانون الوضعي الذي وضعه العقل البشري . فما هي الدولة العلمانية؟ هي التي لا تتدخل في الشأن الديني ولا تسمح لرجال الدين بالتدخل في الشأن السياسي، وهي لا تطبق إلا القانون الوضعي. فما هي الدولة الإنتقالية من الثيوقراطية إلى العلمانية ؟ هي الدولة التي ينص دستورها على أن الشريعة هي المصدر الأول للتشريع، ولا تساوي بين الرجل والمرأة وبين المسلم وغير المسلم في حقوق المواطنة وواجباتها. المرأة وغير المسلم في هذه الدول الإنتقالية نصف مواطن وأحياناً صفر-مواطن، إذ لا يحق للمرأة مثلاً الترشح لرئاسة الدولة ولا حتى لمنصب أقل شأناً، فالمرأة مازالت تعامل في كثير من الدول الإسلامية كناقصة عقل في الولاية وناقصة دين في العبادة، والمواطن غير المسلم مازال يعامل كأهل ذمة ليس له من المواطنة إلا الإسم، وهي تطبق القانون الوضعي في مجالات والشريعة في مجالات أخرى. أراهن على أن الدولة الهجينة القائمة اليوم في الفضاء العربي الإسلامي، الدينية نصفاً والعلمانية نصفاً، دولة انتقالية . التاريخ يعلمنا أن العلمانية السائدة في العالم لن تقف عند تخوم الفضاء العربي الإسلامي، الذي لا مستقبل له خارج مستقبل البشرية. لم يوجد في التاريخ استثناء ثقافي قاوم طويلاً الاتجاه التاريخي الفاعل في الحقبة؛ إذن المسلمون،

مثل باقي البشرية، محكوم عليهم بتبني الحداثة وبالتالي العلمانية. تسع على عشر من دول العالم حصرت الدين في المجال الخاص، والشخصي والروحي، تاركة المجال السياسي العام للدولة المهتدية بالعقل البشري ، أي بمؤسساته وتشريعاته وعلومه وقيمه.الدولة الدينية تستشير، في إعداد مخططاتها الدنيوية كالسياسة والاقتصاد ، الفقهاء، إذا لم يكن الفقهاء أنفسهم في الحكم. أما الدولة العلمانية فتستشير ، في الشأن الدنيوي الذي هو مجال اختصاصها الوحيد، الخبراء. وهنا يطرح سؤال أساسي نفسه: لماذا ظهرت الدولة العلمانية في الأزمنة الحديثة فقط؟ لأن الحداثة هي التي عرفت الفصل بين الزمني والروحي، أي بين الاختصاصات الدنيوية والاختصاصات الدينية التي لكل منها فاعلو ها الإجتماعيون: للدين المؤمنون والفقهاء، وللدنيا المواطنون والخبراء. في العصور الوسطي كانت الدولة الدينية تتدخل في كل شيء . لسبب بسيط هو أن كل شيء كان ديناً. لم يعد ذلك ممكناً مع العصور الحديثة، منذ حوالي 5 قرون، التي سجلت، في الفضاء الأوربي، انتصار العقل البشري على العقل الإلهي. وهكذا انتزع العلم الوضعي ، بثمن باهظ وصل أحياناً إلى حرق العلماء أحياء، شيئاً فشيئاً استقلاله عن العلم الديني. وقد قال غاليليو للمحكمة الدينية التي كان يقف أمامها بتهمة الزندقة لأنه ، عكساً للكتاب المقدس، اكتشف إن الأرض مكورة وتدور حول الشمس، وليست مركز الكون بل قد لا تساوى حجم حمصة بالنسبة للكون كله ... قائلا لقضاته : "الكتاب المقدس يعلمنا كيف نمشي إلى السماء لا كيف تمشي السماء". وهكذا بدأ العلم، الذي لا يقبل ضوابط من خارج مناهجه، يستقل. ثم شرع الإبداع الأدبي والفني يستقل عن الكتاب المقدس، الذي كف شيئاً فشيئاً عن أن يكون موسوعة فزيائية وطبية وأدبية وفنية ...إلخ، أخيراً أعاد البابا جان بول الثاني الإعتبار لغاليليو وداروين ... لكن القرآن مازال عندنا موسوعة علمية وطبية وجغرافية وأدبية وفنية وتكنولوجية، وويل ثم ويل للعلماء الذين يتجاسرون على اثبات حقائق علمية تعارض آيات الذكر الحكيم "العلمية" !.

التعارض بين العقل العلمي والعقل الديني، بين حقوق الإنسان [= حرياته] وحقوق الله على الإنسان [= عباداته وأوامره ونواهيه] ، هو الذي قاد الغرب ثم العالم كله إلى العلمانية، إلى الفصل بين ما هو ديني وما هو دنيوي، الذي هو شرط شارط لتقدم الحضارة البشرية. وليس أمام المسلمين طريق آخر للإلتحاق بقاطرة الحضارة بدلاً من الانتظار الطويل على رصيف التاريخ.

الفصل بين المقدس والدنيوي وليد الحداثة. كلما عدنا القهقرى في التاريخ لاحظنا أن الفصل بينهما هو الاستثناء النادر والجمع بينهما هو القاعدة، الذي يصل إلى أعلى درجاته عند القبائل البدائية حيث كل شيء مقدس، تاريخ القبيلة مقدس، أسلافها مقدسون، شعائر الحمل والولادة والجماع والصيد مقدسة، والسلوك اليومي لأفرادها مقدس. الحياة الإجتماعية للقبيلة خاضعة جميعاً إلى شعائر عصابية وسواسية قهرية. عند هذه القبائل انتهاك المقدس عقوبته القتل. لماذا؟ لأن فكرة نسبية المقدس لا يقبلها إلا عقل متطور، أي دماغ معرفي على درجة كافية من التعقيد والاطلاع. أما أدمغة البدائيين فلم تتطور بعد بما فيه الكفاية لتصبح قادرة على هضم نسبية المطلق الديني وقبول أولوية العقل البشري على العقل الإلهي. اقترح على الباحثين انجاز دراسات مقارنة بين تصورات البدائيين للعلاقة بين الديني والدنيوي وتصورات الإسلاميين المعاصرين لها. وسيفاجئون بشبة كبير بينهما يصل أحياناً إلى حد التماثل بخصوص عبادة الأموات والأسلاف واعتبار كل شيء ديناً، والتعلق الوسواسي القهري بالشعائرو بالمطلقات الدينية وتكفير النسبي، والسببي، والعقلي، والمتغير، والتطوري، والتاريخي، والمستقبلي. للبدائيين عذرهم، فخضوعهم للطبيعة يكاد يكون مطلقاً. تحكيم العقل البشري، أي العلم والتكنولوجيا، في الطبيعة

لتحويلها إلى حضارة، تماثل، بالنسبة لمستوى وعيهم السلفي، انتهاكاً لعبادة الأسلاف لن يمر دون عقاب من هؤلاء الأسلاف الغلاظ الشداد والثأريين. رقهم النفسي لأسلافهم يشل عقولهم عن التفكير المستقل. رق الإسلاميين النفسي لأسلافنا ، أي للنبي والصحابة والتابعين،لا يقل شلاً لعقولهم من عبادة الأسلاف لدى البدائيين. العقل الإلهي الذي جاء به الأسلاف هو كل شيء. أما العقل البشري ، الذي جاءت به أدمغتنا ، فهو لا شيء. يقول المودودي السني : ‘‘الإنسان، كما يزعم، لاحظ له من الحاكمية إطلاقاً (...) المسلمون جميعاً، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، لا يستطيعون تشريع قانون واحد (...) والحكومات لا تستحق طاعة، الناس إلا من حيث أنها تحكم بما أنزل الله، وتنفيذ أمره تعالي في خلقه‘‘. بالمثل يقول الخميني الشيعي : ‘‘ليس لهم [الناس] حق في تعيينه [الإمام] أو ترشيحه أو انتخابه. لأن الشخص الذي له من نفسه القدسية استعدادا لتحمل أعباء الإمامة العامة وهداية البشر قاطبة يجب ألا يعرف إلا بتعريف الله [له] ولا يعين إلا بتعيينه. لذلك فليس للناس أن يتحكموا في من يعينه الله‘‘.

الإستشهادان ، السني والشيعي ، أفضل تعريف للدولة الدينية الإسلامية المعاصرة القائمة، في السودان وإيران، أو التي قد تقوم في بلدان أخرى.

متي دخلت العلمانية إلى العالم العربي ومن هم روادها ؟

أول من ترجم كلمة Laicite بالعلمانية هو أحد مترجمي الحملة الفرنسية، لويس بقطر المصرى، في معجم فرنسي عربي طبع لأول مرة في مارس 1828، ثم تبني هذا المصطلح مجمع اللغة العربية بالقاهرة في معجمه ‘‘المعجم الوسيط‘‘ سنة 1960. العلمانية كنظام كامل ومشروع سياسي واع لم تدخل قط إلى العالم العربي. بعد لقاء العالم العربي بأوربا، عبر الاستعمار، بدأت الدول العربية الإسلامية تتخلي عن بعض الجوانب الإستفزازية من الدولة الدينية مثل تطبيق العقوبات البدنية كجلد شارب الخمر وقطع يد السارق ورجم الزانية، وعن جباية الجزية من مواطنيها غير المسلمين. السعودية مازالت تطبق هذه العقوبات البدنية، وقد صدر منذ اسبوعين حكم شرعي ، على كاتب سعودي للأسف لم أعد أذكر اسمه، بالسجن و 200 جلدة !! السبب؟ أساساً لأن السعودية لم تعرف الإستعمار الأوربي وبالتالي لم تدخلها بعض أنوار الحداثة. أما السودان الذي عرف الإستعمار وتخلي في ظله، عن الرق والعقوبات البدنية، لكن الدولة الإسلامية، التي أقامها الترابي بانقلاب عسكري، أعادت إليه الرق والعقوبات البدنية !!

رواد الفكر العلماني في الفكر العربي كثيرون . تقريباً جميع المثقفين الذين ينتمون للأقليات الدينية في العالم العربي كاليهود والمسيحيين خاصة في المشرق العربي، في مصر وبلاد الشام، مثلاً لا حصراً جورجي زيدان وشبلي شميل ويعقوب صروف، وميخائيل نعيمه، وجبران خليل جبران،وفرح أنطون وسلامه موسى إلخ . أما اليوم فالمطالبون بالعلمانية لا يعدون بالأفراد بل بالجموع. من هنا أهمية دمج الأقليات الدينية والقومية في المواطنة الحديثة في الدول العربية. الاعتراف لهم بالمواطنة الكاملة سيشكل رافداً ثرياً للحداثة السياسية، أي العلمانية والديمقراطية وحقوق الإنسان. مثلاً الشيعة في السعودية يطالبون بالعلمانية للخلاص من كابوس الوهابية التي تعاملهم كـ ‘‘كفار‘‘. ألم يقل فيهم ابن تيمية ، المرجع الأول للوهابيه : ‘‘من شك في كفرهم [الشيعة] فقد كفر‘‘ !. كما تمثل الأقلية القومية الكردية في العراق حارساً يقظاً للحؤول دون إقامة دولة ثيوقراطية شيعية. وقد حذر رئيس الجمهورية العراقية، جلال الطالباني، من إقامة دولة دينية في العراق. وقد عبر قادة الشيعة العراقيين بمن فيهم رئيس الحكومة صراحة عن أنهم

سيحكمون العراق كعراقيين لا كشيعة . وهذا هو لب العلمانية. أما رواد الحداثة المسلمون فهم نسبياً كثيرون إذا أحصيناهم في كل بلد عربي إسلامي. لكن ذلك صعب في مثل هذا الحديث السريع. حسبنا أن نذكر بعض الأسماء التي أثرت في النخبة الدينية الفكرية في البلاد العربية مثل رفاعة الطهطاوي ، ومحمد عبده، وقاسم أمين، ولطفي السيد، وطه حسين، وعلي عبد الرزاق، وكامل كيلاني، واسماعيل مظهر، وأحمد أمين، وكيف ننسى فرج فوده الذي، وإن لم يكن من رواد العلمانية، لكنه كان أول شهدائها، وفي تونس الطاهر الحداد، الذي علمن فقه القرون الوسطي بخصوص تحرير المرأة لمنع تعدد الزوجات وإلغاء عدم المساواة في الإرث بين الذكر والأنثى ، والحبيب بورقيبه الذي نفذ وصيته. ولكنه تراجع ، أمام تهديد الملك فيصل له بقطع العلاقات الدبلوماسية مع تونس وبتحريض فقهاء العالم الإسلامي على تكفيره ، عن إصدار قانون المساواة في الإرث.

هل فشلت العلمانية في العالم العربي بسبب مقاومة الإسلام لها أم بسبب ضعف الخطاب العلماني؟

فشلت العلمانية حتى الآن في الدخول إلى العالم العربي أساساً لأن الإسلام لم يمر بعد بالإصلاح الديني الضروري الذي مرت به المسيحية واليهوديةالأوروبيتان . الدين الذي تم إصلاحه هو الدين الحديث الذي يعترف بالفصل بين الاختصاصات والمجالات ، أي يقبل بأن يقتصر اختصاصه على الشأن الديني تاركاً للدولة مجال اختصاصها الذي هو الشأن الدنيوي. السبب الثاني لفشل دخول العلمانية ، كنظام سياسي كامل، هو جبن القيادات السياسية. الإسلام لم يقع إصلاحه في تركيا،والبرجوازية كانت ضعيفة والفلاحون يمثلون 90 % من السكان ، ومع ذلك فإن قيادة المسلم كمال أتاتورك ألغت الدولة الثيوقراطية العثمانية،الخلافة، وأقامت على انقاضها دولة علمانية لا تخجل من هويتها العلمانية.

هل العلمانية ضد الدين؟

رأينا في تعريف معجم روبير للعلمانية أنها الفصل بين الدولة والكنيسة، أي بين الديني والدنيوي ليس إلا. بريطانيا دولة علمانية تماماً كفرنسا، لكن ملكة بريطانيا تحمل لقب ''حامية حمي الكنيسة'' وبإمكان المملكة المغربية أن تكون علمانية ويحمل ملكها، لقب ''أمير المؤمنين''، وبإمكان تونس أن تكون علمانية ويحمل رئيسها ''حامي حمي الإسلام''. يجب أن يكون المرء جاهلاً بتعريف العلمانية في المعاجم الأوربية، لأن أوربا هي أرض ميلاد العلمانية، أو سيء النية ، ككثير من قادة الإسلام السياسي، ليقول أن العلمانية ضد الدين. خاصة وأن العلمانية اليوم في البلدان العلمانية الصافية، كفرنسا، باتت علمانية منفتحة على كثير من الجوانب التي لا تضير في شيء المواطنة الحديثة ، التي تفترض المساواة بين الرجل والمرأة والمؤمن وغير المؤمن في حقوق المواطنة وواجباتها كافة. حياد الدولة العلمانية الفرنسية إزاء الدين لم يمنعها من أن تبني،من مال دافعي الضرائب سنة 1921، جامع باريس الشهير تكريماً لذكري الجنود المسلمين المغاربيين الذين سقطوا في معارك الحرب العالمية الأولي دفاعاً عن فرنسا، ولم تمنع اليوم وزير الداخلية الفرنسي، فيليب دوفلبان، المسؤول عن الشئون الدينية، من تكوين مؤسسة إسلامية خيرية لجمع التبرعات من المحسنيين لبناء المساجد والانفاق على الجامعة والمعاهد الإسلامية التي هي برسم الإنشاء. وقد تلقت هذه المؤسسة بمجرد إنشائها 800 مليون يورو من متبرعين لم يكشفوا عن هويتهم. أما الدولة العربية العلمانية القادمة فإن علمانيتها لن تمنعها من مساعدة ديانات جميع مواطنيها على قدم المساواة. وهذه العلمانية

هي التي ستسود مع الوقت أرض الإسلام. على غرار تركيا العلمانية التي يوصيها دستورها ببناء دور العبادة لمواطنيها على اختلاف دياناتهم. فأي مانع من احتضان الدولة العلمانية للتعليم الديني شرط أن تسهر على جعله تعليماً دينياً إصلاحياً حديثاً يكون مواطني الغد الذين يعرفون المواطنة الحديثة، التي لا تميز بين الرجل والمرأة وبين المسلم وغير المسلم في حقوق المواطنة، ويعترفون بها دون تردد أو شعور بالذنب. ولكي يكون التعليم الديني إصلاحياً وحديثاً يجب أن يدرس التلاميذ والطلبة الدين بمساعدة علوم الحداثة: تاريخ الأديان المقارن، سسيولوجيا الأديان، علم النفس، اللأنثروبولوجيا الدينية، الألسنية، الهرمينوطيقا (علم تأويل النصوص المقدسة)، والفلسفة، لتنمية الفكر النقدي لدي الأجيال الطالعة. في تونس يدرس طلبة الجامعة الزيتونية الدينية الفلسفة الإسلامية والفلسفة الحديثة طوال السنوات الأربع. ويدرس طلبة كليات العلوم بما فيها الطب الفلسفة الحديثة طوال مدة الدراسة الجامعية. فلا شيء كالفلسفة والعلوم الإنسانية لتحصين العقول ضد دعاية الإسلاميين الدينية - السياسية. مثل هذا التعليم الديني الإصلاحي والحديث ليس مستحباً من الدولة العلمانية في الفضاء العربي والإسلامي بل هو فرض وواجب عليها لإعادة صياغة الوعي الإسلامي التقليدي وتحصين وعي الأجيال الطالعة ضد التزمت، والتعصب والإرهاب والتمييز الديني، أي النرجسية الدينية التي تأمر باضطهاد دين لباقي الديانات بل ونسخها.

هل تشكل العلمانية قطيعة مع جذورنا الإسلامية؟

تشكل العلمانية قطيعة مع الدولة الأوتوقراطية والثيوقراطية ، أي الدولة الدينية والمستبدة، دولة الخليفة الذي لا يعزله إلا الموت او الكفر البواح، أي الصريح، دولة جلد شارب الخمر، وقطع يد السارق، ورجم الزاني والزانية حتى الموت، ودق أعناق المفكرين الأحرار باسم الردة، وهضم حقوق المرأة والمواطن غير المسلم باسم الشريعة ، وحظر النحت والرسم والشعر والغناء والبحث العلمي باسم فقه القرون الوسطى ، واستحلال هدر دماء المدنيين الأبرياء وقتل الأجنة في بطون الإسرائيليات كما أفتى القرضاوي واغتيال الرئيس السادات وجميع الحكام المسلمين كما أفتى راشد الغنوشي ، باسم الجهاد وفقه الولاء والبراء الإرهابي ... هذه الفظاعات هي جذورنا المتعفنة التي علينا أن نقطعها ونقطع معها. لكن العلمانية تشكل إعادة اتصال بأفضل ما في جذورنا الثقافية مثل العقل الإعتزالي والفلسفي اللذين أخضعا النص المؤسس للتأويل العقلي، والإسلام الصوفي والدرزي اللذين حققا اختراقاً لا نظير له في العصور الوسطي : إلغاء شريعة العقوبات البدنية والفصل بين الدين والحكم. طبعاً ، العلمانية، بما هي إحدى أهم منجزات الحداثة، لم توجد في دولة القرون الوسطي، التي كانت من حيث الأساس دولة دينية. العلمانية الواعية بذاتها كانت في عداد الأفكار اللامفكر فيها. ومع ذلك ففي تراثنا الإسلامي ملامح علمانية غير واعية بذاتها لكنها واعدة، عندما يأتي زمانها، بالعلمانية الحديثة. مر النبي مثلاً ذات يوم على بعض ملاك بساتين النخيل فوجدهم يؤبرونها [=يلقحونها] فقال لهم لو تركتمها لكان أصلح. إمتثلوا لنصيحته، لكن نخيلهم فسدت، فجاؤوه محتجين. فكان رده عليهم : "ويحكم إنما أنا نبيكم في أمور دينكم؛ أما أمور دنياكم فأنا وإياكم فيها سواء"، أي أن نبي الإسلام أقر بالفصل بين الدين وعلم الزراعة. وفي غزوة بدر أراد أن ينزل بجيشه في موقع ظنه حصيناً، فسأله خبير عسكري من الأنصار : "يا رسول الله، هل هو الوحي أم هي الحرب والخديعة؟"، فأجابه بصدقه المعروف : "بل هي الحرب والخديعة"، فقال له الخبير العسكري : "ليس هذا بموقع فلنجعل البئر وراءنا فنشرب ولا يشربون". فعلاً كان عطش قريش أحد أهم أسباب هزيمتها. هنا أيضاً أقر النبي بالفصل بين الدين والاستراتيجيا. ومعروف أن الإمام علي، مستلهماً هذه السنة التي تفصل بين

الاختصاصات الدينية والدنيوية، قد طلب من ابن عباس، عندما كلفه بمجادلة الخوارج، أن يستخدم في جداله معهم السنة النبوية لا الآيات القرآنية لأن ''القرآن حمال أوجه'' كما قال الإمام ، أي قابل لقراءات تعددية متعارضة نظراً لكثرة الآيات المتشابهات، أي الملتبسات والغامضات ، إذ أن الآيات البينات [الواضحات] لا تمثل إلا 6% من القرآن.

يذكر المؤرخ المصري، حسين مؤنس ، أن الصحابة الذين رفضوا المشاركة في الحرب بين علي ومعاوية الذين كانوا يسمون أنفسهم بـ''الجالسين على الربوة'' ومنهم عبد الله بن عمر، وأبو هريرة الذي ينسب له أنه قال ''أصلي وراء علي فالصلاة وراء علي أفضل، وآكل على مائدة معاوية فالأكل على مائدة معاوية أدسم، وأجلس على الربوة والجلوس على الربوة أسلم''.قد بايعوا معاوية بعد اغتيال علي ، قائلين له، كشرط لمبايعته ، نحن للأمة في أمور دينها وأنت للأمة في أمور دنياها. وهذا التقسيم للعمل بين الخلفاء والفقهاء بذرة علمانية مازالت لم تأتي أكلها بعد.

معاوية نفسه أسس مقدمات العلمانية عندما توقف عن الصلاة بالناس وسمي إماماً يصلي بالناس بدلاً منه. هذا التقسيم بين إمامة الدولة وإمامة الصلاة مشروع دولة علمانية لم يكتمل بعد. وبعد معاوية توقف خلفاء الإسلام عن الصلاة بالناس بينما رؤساء الجمهورية الإسلامية الإيرانية الدينية مازالوا يصلون بالناس، بالطبع، لأنها جمهورية دينية تكابر في التسليم بالفصل الضروري بين الدين والسياسة. تقسيم العمل بين الفقهاء، الذين هم للأمة في أمور دينها، والخلفاء، الذين هم للأمة في أمور دنياها، تواصل لمدة 14 قرناً، خاصة في الشرق، دون استثناء يذكر. الخليفة حاكم شبه دنيوي، بشرعية دينية : شرعية بيعة أهل الحل والعقد وشرعية الدعاء له في صلاة الجمعة، وتدخل تجديداته الدينية في باب ''المصالح المرسلة'' مثل تحريم الحلال . تقليدا لعمر الذي حرم على المسلمين نكاح المتعة المباح بأحاديث يرويها البخاري ومسلم وبالآية : ''فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة'' (24 النساء). يروي الطبري أن هذه الآية جاءت في مصحف ابن عباس، الذي حرقه عثمان فيما حرق من مصاحف : ''فما استمتعتم به من هن [إلى أجل مسمي] فأتوهن أجورهن''. لذلك قال علي، كما يذكر الطبري عن نكاح المتعة : ''لولا أن عمر نهي عنه ما زني إلا شقي''. وحرم عمر أيضاً على الفاتحين المسلمين الزواج من الفارسيات، اللواتي أقبل العرب على الزواج منهن أفواجاً أفواجاً ، حتى لا تبقي نساء الجزيرة العربية عوانس. عموماً كانت مطالب الفقهاء من الخلفاء محصورة في الشأن الديني والأخلاقي مثل مطالبتهم لهم بالسهر على تطبيق الشريعة أو الرفق بأهل الذمة كما فعل أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، في كتابه ''الخراج'' عندما وصف لهارون الرشيد وصفاً مؤثراً التنكيل الذي يكابده الفلاحون عند أخذ الخراج منهم الذي قد يصل أحيانا إلى 90% من محاصيلهم . اعتبار جمهور الفقهاء السنة الشورى مجرد نصيحة غير ملزمة للأمير إقرار ضمني باستقلال الشأن السياسي عن الشأن الديني. بل إن الفقهاء السنة حرموا على أنفسهم التدخل في السياسة بالقاعدة القائلة : ''طالب الولاية لا يولي''. وقد شكلت هذه القاعدة عائقاً في وجه قيام حكومة فقهاء في الإسلام خاصة في المشرق. لم يشذ عن قاعدة طالب الولاية لا يولي، وقاعدة التقسيم الضمني للعمل بين الخلفاء والفقهاء منذ معاوية إلا الإسلام الوهابي الذي انتفض على الخلافة العثمانية باسم فقه شمولي متعصب لا يعترف بالفصل الطبيعي بين المجالين الديني والسياسي. تحالف الإسلام الوهابي مع آل سعود لتكوين المملكة العربية السعودية التي يحاول الجناح الإصلاحي فيها بقيادة الأمير عبد الله والأمراء المستنيرين كطلال بن عبد العزيز،التخلص من العائق الوهابي المتعصب وتحديث التعليم وشرط المرأة والتخلص من فقه ''الولاء والبراء'' الذي يحرم على المسلمين حكاماً ومحكومين تقليد حضارة غير المسلمين في أي شأن جل أو قل إلى

درجة أن مفتي السعودية، آل الشيخ، كفر سنة 2004، بفتوى نشرتها ''الأحداث المغربية'' باعة الزهور لأنهم بذلك ''يتشبهون بالكفار''. كما حرم فقهاء الوهابية ، بمعية الشيخ يوسف القرضاوي ، الاحتفال بالمولد النبوي، الذي تحتفل به جميع بلدان العالم الإسلامي عدا السعودية وقطر الوهابيتين. لماذا حرموا ذلك؟ باسم فقه الولاء والبراءالعنصرى المنطوي على نفسه : ''الاحتفال بالمولد النبوي تقليد للكفار، كما يقول القرضاوي، في احتفالهم بمولد المسيح'' الذي كان يذكره نبي الإسلام محمد بـ''أخي عيسى'' !.

شذ أيضاً عن قاعدة طالب الولاية لا يولي وعن قاعدة الفصل الضمني بين مجال الخلفاء ومجال الفقهاء ، الإسلام السياسي ، متمثلاً في الإخوان المسلمين ومن تناسل منهم، الذين كونوا حزباً دينياً سياسياً هدفه استعادة الخلافة وتكوين حكومة فقهاء لأول مرة في تاريخ الإسلام السني.

لماذا تتعارض الدولة الدينية مع الدولة العلمانية؟ وفي أي المجالات تحديداً؟

تتعارض الدولة الدينية مع الدولة العلمانية، لأن الأولى هي دولة القرون الوسطي حيث كان كل شيء ديناً. والثانية دولة العصور الحديثة القائمة على الفصل المرن بين الشأنين الديني والدنيوي، اللذين لا يتعاديان بل يتكاملان، شرط أن يبقي كل منهما محصوراً في مجال اختصاصه الأساسي. تتعارض الدولة الدينية مع الدولة العلمانية خصوصاً في مجال المواطنة : التفاوت بين الرجل والمرأة وبين المؤمن والمواطن، أي المسلم وغير المسلم، تفاوت جوهراني Essentialiste في الدولة الدينية التي لا تعترف للمرأة بحقوق المواطنة وتعترف للمؤمن بدينها فقط بحقوقه كمؤمن لا بحقوقه كمواطن . أما غير المؤمن بدينها فتعامله كعدو بالقوة أو بالفعل. أما في الدولة العلمانية فالرجل والمرأة ، والمؤمن والمواطن متساوون كأسنان المشط لا فضل لأي منهم على الآخر في حقوق المواطنة. الدولة الدينية تتصرف مع رعاياها بمنطق العصور الوسطي التي تعتبر الإنسان قاصراً، أي عاجزاً عن وضع قوانين ينظم بها قواعد العيش المشترك، أي علاقة المواطنين بعضهم ببعض وعلاقة دول العالم بعضها ببعض.

لماذا يقرن الإسلاميون العلمانية بالإلحاد؟

لتأليب جمهورهم عليها،ولأن مبرر ظهورهم هو محاربة الحداثة . والعلمانية تمثل إحدى أركان الحداثة بما هي ذروة العقلانية الديمقراطية. لماذا يكفر الإسلاميون الحداثة؟ باسم الحاكمية الإلهية، التي هي لب مشروعهم الديني – السياسي و باسم فقه الولاء والبراء الذي يكفر خاصة منذ ابن تيمية التشبه بـ''الكفار''، أي تبني أزيائهم وعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم وعلومهم ومؤسساتهم. لكن علينا نحن العلمانيين أن نمتلك شجاعة قناعاتنا ونصدع بها في وجه الإسلاميين الذين هم في الواقع رد فعل مذعور على الحداثة العالمية واحتمالات دخولها إلى أرض الإسلام. مخاوفهم في محلها. فالحداثة اليوم اتجاه تاريخي لا يصد ولا يرد. وستصل إلينا كما وصلت إلى قبائل الإسكيمو ! بل أجازف بالقول بأن الإسلاميين قد يكونوا أداة التاريخ اللاشعورية لإدخال العلمانية إلى أرض الإسلام. بعد ربع قرن من قيام الجمهورية الإسلامية في إيران، يتباهى طلبة قم بأنهم علمانيون. 75% من الشعب و86% من الطلبة، توقفوا عن أداء الصلاة، حسب احصائيات بلدية طهران.المسلم الذي لايمارس الشعائر الدينية هو مسلم علماني. المساجد والجوامع التي كان يصلي فيها في عهد الشاه 3000 – 5000 مصلي، لا يصلي فيها اليوم صلاة الصبح إلا 10 أشخاص وصلاة الظهر 25 شخصاً. 2 % فقط يصومون رمضان من شعب كان

قبل ظهور الجمهورية الإسلامية صواماً قواماً ! السودان الصوفي، تخلت فيه نسبة مهمة من شبابه عن الإسلام بفضل حكم الإسلاميين . على العلمانيين أن لا يخشوا من استيلاء الإسلاميين على الحكم في أرض الإسلام خاصة في الدول التي تطبق الإسلاموية من دون الإسلاميين. فبعض البلدان لن تنتقل إلى العلمانية بسرعة قياسية، أي لن تتجاوز الإسلام السياسي والجهادي والسلفي إلا إذا طبقته وذاقت طعمه المرير عندئذ ستيأس منه. أطروحة فلسفة التاريخ الهيجيلية القائلة "لا سبيل لتجاوز مرحلة تاريخية إلا إذا تم تحقيقها" برهنت وقائع التاريخ على صحتها. خطأ لينين الكارثي على الحركة الاشتراكية هو قناعته الإرادوية بإمكانية "حرق المراحل"، انطلاقاً من "الحلقة الضعيفة في الرأسمالية" : روسيا. ماركس كان، كهيجل، مقتنعاً باستحالة حرق المراحل التاريخية وبضرورة تحقيق كل مرحلة تاريخية لتجاوزها. لذلك عارض ثورة عمال باريس 1871 لقناعته باستحالة المرور إلى الاشتراكية في فرنسا التي كانت مازالت حينها لم تحقق المرحلة التاريخية الرأسمالية التي ، لم تحققها يومئذ، في تقديره إلا بريطانيا.

العلمانية، كما هي سائدة في العالم، اتجاه تاريخي عارم. الإسلاميون لن يصمدوا طويلاً أمامه . لماذا؟ لأننا كلما عدنا إلى الوراء في التريخ وجدنا أن مساحة المقدس تغطي كل سطح الكرة الأرضية وكل سطح الحياة اليومية . فكل شيء مقدس، والإنسان لعبة الآلهة التي تتحكم في الكبيرة والصغيرة. لماذا؟ لأن العقل البشري ، أي العلم والتكنولوجيا ، كان مازال ، في مراحل تطوره الأولي، عاجزاً عن فهم وتفسير وتغيير العالم الذي يعيش فيه بقوانينه الخاصة. كان لابد له من الاستنجاد بالفكر السحرى الإحيائي، ثم بالفكر الأسطوري ثم بالفكر الديني ليفهم ويفسر ويغير عالمه. لكن في القرن السادس قبل الميلاد حقق العقل البشري، في مسار تطوره، قفزة نوعية فبدأ العقل البشري التحليلي والتجريبي ينافس العقل الإلهي في فهم وتفسير وتغيير العالم. هزم العقل أمام الأسطورة. لكن الحرب بين العقلاني والأسطوري ظلت سجالا . فما لبث أن نهض من هزيمته لينافسه يوما له ويوما عليه. لكن الاتجاه التاريخي كان دائماً متجهاً إلى فتح العقل البشري لمساحات أوسع فأوسع على سطح الكرة الأرضية وعلى سطح الحياة اليومية في مجال الفصل بين اختصاصات العقل الإلهي الروحية واختصاصات العقل البشري الدنيوية. مثلما قيد العقل البشري سلطة الملوك المطلقة ، قيد أيضاً سلطة العقل الإلهي المطلقة لكي تنحصر في المنطق الروحي الحدسي وتتخلي عن الباقي لمنطق العقل التحليلي وللتجربة العلمية . العقل البشري السوي ديمقراطي إذن يعطي ما لله لله وما لقيصر لقيصر. كيف حقق العقل البشري هذه الفتوحات العلمانية في عالمنا المعاصر؟ بالعلم والتكنولوجيا اللذين يساعدان العقل البشري على فهم وتفسير ما كان يتراءي للإنسان معجزة. مثلاً كان رائد الفلسفة العقلانية الحديثة، ديكارت، يعتقد أن قوس قزح لا تفسير عقلانياً له لأنه معجزة إلهية، أي من اختصاص العقل الإلهي. لكن لو تبني اليوم تلميذ في الباكالوريا (الثانوية العامة)تفسير ديكارت في امتحان الفلسفة لنال صفراً. لأن العلم يعلمه اليوم، وفي الباكالوريا بالذات، أن قوس قزح ظاهرة جوية ناتجة عن انكسار وانعكاس أشعة الشمس في قطرات المطر. تقدم العلم والتكنولوجيا اتجاة تاريخي لا رجعة فيه. فأمم العالم المتقدم تتنافس في اكتساب مزيد من العلم والتكنولوجيا ، وأمم العالم المتأخر تحلم بهما أو تسعى جاهدة لإكتسابهما. احتكار العقل العلمي والتكنولوجي لفهم وتفسير الظواهر الاجتماعية والظواهر الكونية لنزع القداسة المزعومة عنها، لا يماثله إلا احتكار المنطق الروحي لفهم وتفسير الظواهر الروحية حدساً. هذا الإحتكار العقلي والروحي معاً لا يتم بدون ممانعة ودون مقاومة من الإسلام السياسي المعاصر الذي يقاوم منطق العقل العلمي ومنطق الروح الصوفي . لكنها مقاومة محكومة بالفشل بمقياس الخط البياني للتطور التاريخي منذ ظهور العقل البشري في القرن السادس قبل الميلاد إلى الآن حيث تحكم في المتناهي في الصغر (الذرة)

والمتناهي في الكبر (الأفلاك) والمتناهي في التعقيد (الدماغ الإلكتروني) . ولأن الإسلام الصوفي هو الإسلام الشعبي الذي لم يستطع الإسلام السياسي حتى الآن نزع الشرعية عن رسالته اللاعنفية والعزوفة عن التدخل في السياسة.

هل العلمانية ضرورية للمجتمعات العربية؟

نعم العلمانية ضرورية على مستوى الوطن وعلى مستوى العالم للعيش معا بين جميع مكونات المجتمعً. معظم المجتمعات في العالم تتشكل من طيف عريض من الديانات والطوائف والمذاهب الدينية المتعارضة وأحياناً المتحاربة. إذا اعتمدت الدولة ديناً أو طائفة أو مذهباً واحداً لإحدى فئات مواطنيها ، فإن باقي مواطنيها المستبعدين سيشعرون بالإحباط لأنهم لا يستطيعون التعرف على أنفسهم، وعلى هويتهم في دين الدولة أو طائفتها أو مذهبها وسيبقون خارج المواطنة الكاملة ... المخرج من هذا المأزق، الحامل للحروب الدينية، هو علمانية الدولة. في الدولة العلمانية رابطة المواطنة لا تقوم على الدين أو الطائفة أو المذهب، بل تقوم على العقد الإجتماعي ، أي العقل البشري ، أي مصلحة المواطنين المفهومة فهما صحيحا. وهكذا فالدولة العلمانية تستمد شرعيتها من العقد الاجتماعي ، لا من الدين، لتنظيم حياة المجتمع وتحقيق السلام الداخلي بين دياناته وثقافاته . بدوره المجتمع العالمي مكون من طيف لا حصر له من الديانات والطوائف والمذاهب. لا يوجد دين واحد يمكن أن يحظي بتراضي غالبية سكان المعمورة ، فعلي أي أساس يقوم تنظيم المجموعة الدولية،وربما ذات يوم تحويل مجلس الأمن الموسع إلى حكومة عالمية؟ على العقل البشري ، أي المصلحة المشتركة في العيش معاً بين البشر على اختلاف أديانهم ومشاربهم والتي تضمن الحد الأدنى من مصالح غالبية سكان المعمورة. العقل ، أي المصلحة المشتركة هو الذي يمكن أن يؤسس الحياة العامة في المجتمع القومي والمجتمع العالمي معاً. أما أنماط السلوك والمعتقدات والأراء فهذه من اختصاص منطق الروح الحدسي لا منطق العقل التحليلي. الدولة العلمانية تتدخل عندما ينتهك الأفراد أو الجماعات ، باسم معتقداتهم ، القانون الوضعي. لن تسمح بختان البنات باسم التقاليد الفرعونية ولا برجم الزاني والزانية وغيره من العقوبات الهمجية باسم الشريعة. تطبيق الشريعة الإسلامية التي "نزلت مكتملة" كما يقول الإسلامي المصري محمد عوده، سيثير ولا شك احتجاج أتباع الديانات الأخرى فتكون فتنة ... فضلاً عن أن الأحكام والعقوبات الشرعية تقادمت وغدت متصادمة مع روح الشرائع الحديثة المتعارضة مع العقوبات البدنية كالجلد وقطع اليد والرجم وقتل المرتد ... فلا مفر إذن من الالتجاء إلى القانون الوضعي لتفادي هذه المخاطر. وإذا اختارت الحكومة تعليماً إسلامياً، تقليديا وجهاديا ، فإن ذلك سيستفز المواطنين غير المسلمين والمسلمين العلمانيين والمتنورين، فضلاً عن أن العلوم الإسلامية تقادمت، "العلوم الشرعية"، تقادمت إلى درجة أن دراستها كبديل عن مواد التعليم الحديث سيكون ضرباً من المازوخية، من الإلتذاذ بعقاب الذات بإبقائها في الحضيض . لا يمكن لأمة حديثة أن لا تكون لها قيم أخلاقية تحتكم إليها في تنظيم العلاقات بين مواطنيها. إذا كانت المنظومة القيمية هي قيم "الحلال والحرام، والمندوب المستحب"، فإن هذه القيم لن يقبلها إلا الوعي الجمعي لقطاع من المسلمين، أما باقي قطاعات المواطنين فستنفر منها لأنها تتنافي مع أخلاقها الدينية الخاصة بها أو قيمها الإنسانية العلمانية . هنا أيضاً لا مفر من تبني المنظومة القيمية العالمية التي يقبل بها الجميع. وهذه لا يمكن أن تكون إلا منظومة أخلاقية علمانية مثل حقوق الإنسان التي هي اليوم، بما يشبه الإجماع العالمي، الأخلاق الكونية للبشرية المعاصرة، وهكذا فالشريعة الإسلامية ، والتعليم الإسلامي، خاصة التقليدي والجهادي، والأخلاق الدينية غدت مصدراً لتفتيت وحدة الأمة بالتوترات والحروب الدينية.

العلمانية هي مفتاح الحداثة السياسية. لأنها المبدأ الذي يفصل بين المؤمن والمواطن. إيمان المؤمن لنفسه، مقتصر على ضميره الفردي. لا علاقة له بحقوقه وواجباته كمواطن، المؤمن يمارس إيمانه الفردي في جامع أو كنيسه أو كنيس. فيما المواطن يمارس مواطنته، حقوقاً وواجبات، في حدود الوطن كله. لأن المواطنة حق مشاع لجميع المواطنين دون استثناء. السؤال هو كيف نصل إلى الفصل الضروري بين المؤمن والمواطن ، أي كيف نحقق المواطنة الحديثة التي لا تعرف ولا تعترف إلا بالإنتماء إلى الوطن؟ وكيف تحكم الدولة في الفضاء العربي الإسلامي مواطنيها بقوانين وضعية بالمعايير الدولية؟ بوسائل عدة في طليعتها تحديث التعليم وإصلاح الإسلام عبر إصلاح التعليم الديني، وقد أشرت إلى ذلك قبل قليل. وثانياً بالعمل دون كلل أو ملل – وهذه وصيتي لقرائي وأصدقائي – على إمتلاك فضائية علمانية لمنافسة "الجزيرة" الإسلامية الجهادية . الأثرياء العرب العلمانيون على قلتهم يستطيعون بإحسانهم إلى الفكر الحديث أن يتبرعوا لإنشاء هذه الفضائية . الأدمغة العربية المهاجرة قادرة أيضاً على تكوين جمعية إعلامية وجمع رأسمال كاف لتمويل مثل هذه الفضائية، الضرورية والممكنة. في انتظار ذلك ، لابد من الاستخدام المكثف لجميع المنابرالإعلامية و لمواقع الانترنت. أعلمتني د. إقبال الغربي، أستاذة علم الاجتماع وعلم النفس بالجامعة الزيتونية، أن 124 موقع انترنت يخصص كل منها صفحة لكتاباتي. وإن عدد المواقع التي تعمل على نشر أفكاري العلمانية مساوية لعدد مواقع الإسلاميين التي تروج لفقه الدولة الدينية : فقه الولاء والبراء وتكفير حوار الأديان والجهاد إلى قيام الساعة . حقاً سأفارق هذا العالم وأملي كبير في دخول العالم العربي والإسلامي ، الذي نذرت كل دقيقة من حياتي للإسهام ، فكرا وممارسة ، في تحديث عقلياته وقيمه ومؤسساته وإصلاح دينه ليصبح كباقي الديانات غير محارب للحداثة،و غير معاد للمرأة و لغير المسلم، وغير محارب للأديان الأخرى وغير كاره لمعتنقيها.

المهمة المركزية الأولى هي إصلاح الإسلام، عبر إصلاح التعليم الديني والخطاب الديني، بنسف فقه الولاء والبراء العنصرى الإرهابي في حق الآخر والظلامي في حق المسلمين الذين يحرم عليهم تقليد حداثة "الكفار" أي "تقليد الغرب"، الذي لا حداثة عربية أسلامية خارج حداثته وأقل من ذلك ضد حداثته . والمهمة الثانية هي نسف النرجسية الدينية التي تعتبر الإسلام الدين الوحيد في العالم. أما اليهودية والمسيحية فهما مجرد شريعتين سابقتين لشريعته التي نسختهما وحلت محلهما. جميع الأنبياء كانوا مسلمين من إبراهيم إلى عيسى . هنا تكمن إحدى الأسرار الدينية للإرهاب الإسلامي، وهكذا نفهم لماذا صرح الرئيس السابق للجنة الفتوى في الأزهر سنة 2001 بأنه "لا معني لحوار الأديان إلا إذا كان دعوة بابا الفاتيكان إلى الدخول في الإسلام" !.

أخصر الطرق لنسف النرجسية الدينية هو التعليم الديني الحديث الذي ينطلق من الآيات المسكونية الثلاث : "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون") 2 6البقرة) والتي تكررت في المائدة (69) وفي الحج (17). لترسيخ فكرة أن اليهودية والمسيحية ديانتان وليس مجرد شريعتين منسوختين بالشريعة الإسلامية كما يقول الفقه الإسلامي القديم وفقه الإسلام السياسي والجهادي المعاصر . اعتبار اليهودية والمسيحية مجرد شريعتين منسوختين، واعتبار الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا خلاص لمن لا يدخل فيه، وبالتالي لابد من "الجهاد إلى قيام الساعة" لإدخال البشرية قاطبة في الإسلام طوعاً أوكرهاً ... هو إحدى أهم الأسباب الدينية للإرهاب الإسلامي ولرفض قطاع واسع

من مسلمي الغرب التكيف مع المجتمعات العلمانية ذات التقاليد المسيحية التي يعيشون فيها . تدريس حوارالأديان، كضرورة للمسلم، لفتح وعيه للتسامح الديني ومعاصرة العصر، مهمة أساسية للمدرسة الدينية الإصلاحية . وهذا ما وعاه صانع القرار التونسي : في الجامعة التونسية يوجد "كرسي بن علي لحوار الأديان". أيضا في الجامعة الزيتونية التونسية يدرس الطالب في مادة الكتب المقدسة "الكتاب المقدس والقرآن" ككتابين مقدسين مؤسسين لثلاث ديانات : اليهودية والمسيحية والإسلام. تكثيف حوار الأديان مع اليهودية والمسيحية، عبر المؤتمرات الدينية والعلمية وعبر الفضائيات والمناقشات المشتركة في وسائل الإعلام، كفيل بتعميم وترسيخ فكرة حوار الأديان لتنوير وعي المسلم بحقيقة أن الإسلام دين بين الأديان وليس الدين الوحيد الناسخ لجميع الأديان والشرائع السابقة له . ترجمة البحوث التي تتناول الديانات الأخرى بما فيها ، الهندوسية، والبوذية، والشانتونية، والإحيائية من شأنه توسيع آفاق المسلم الدينية وجعله يفهم دينه فهماً تاريخياً ونسبياً في سياق الظاهرة الدينية العالمية. وعلى صياغة وعي إسلامي مسكوني يكون مدخلاً للتطبيع الضروري بين الدولة في أرض الإسلام والقيم العالمية والقانون الدولي ، ولتطبيع علاقات الإسلام، كدين،مع اليهودية والمسيحية وباقي ديانات العالم بما في ذلك الاحيائية التي نظم الترابي حرباً جهادية لإبادتها في جنوب السودان. بإمكان الإسلام المعاصر أن يتلاقح مع البوذية المسالمة التي ساعدت الوعي الجمعي الياباني على استقبال الحداثة الغربية وخاصة على عدم السقوط في فخ الجهاد والاستشهاد الذي سقطنا فيه نحن المسلمين، بسبب ثقافة الجهاد والاستشهاد الراسخة في وعينا الديني على مر العصور.

كل دولة مسلمة ستكيف المبادئ العلمانية مع واقعها الاجتماعي – الثقافي، مع الحفاظ على المعالم الأساسية لهذه المبادئ. المبدأ الأول،الاعتراف بالمواطنة الكاملة التي تسمح للمرأة بأن ترشح نفسها لحكم الرجال، ولغير المسلم بأن يرشح نفسه لحكم المسلمين. في البداية قد يكون ذلك حقاً رمزياً ، لكن مع تغلغل العلمانية في الوعي الإسلامي سيصبح حقاً فعلياً. كيف ننسى أن رئيسة جمهورية بنجلاديش، إمرأة، وبناظير بوتو انتخبت رئيسة لحكومة باكستان مرتين ؟ فلماذا لا تنتخب امرأة أوقبطي رئيساً لجمهورية مصر في المستقبل؟. المبدأ الثاني،هو حرية ممارسة الشعائر الدينية أي الإعتراف لجميع المواطنين بحرية ممارسة شعائرهم وبناء جوامعهم وكنائسهم ومعابدهم دون تمييز بينهم ودون تضييق عليهم . الدولة التي تشجع بناء المساجد وتضيق على بناء الكنائس تنتهك ولا شك مبدأ حرية ممارسة الشعائر الدينية. والمبدأ الثالث، تطبيق القانون الوضعي في جميع المجالات، خاصة الجزائية والمدنية. بل إني أقترح على المثقفين في العالم العربي بأن يطالبوا المجتمع المدني العالمي والأمم المتحدة والإعلام العالمي والدبلوماسية الدولية باعتبار تطبيق العقوبات البدنية الإسلامية جريمة . وهذا ما طالبت به سنة 2001 في "الجزيرة" فقرر الأمير خالد بن سلطان منعي من الكتابة في "الحياة" ! المبدأ الرابع، ترسيخ مبدأ حرية الضمير وحرية اختيار الدين. حرية الضمير تعني حق الإنسان في أن يأخذ بدين معين أو أن لا يأخذ بدين من الأديان. وهذا الحق يعترف له به القرآن : "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، يفسر محمد عبده هذه الآية : "من شاء أن يدخل فيه [الإسلام] فليدخل، ومن شاء أن يخرج منه فليخرج"، اعتبر الشافعي أن من حق المسلم إلى سن الخامسة عشر أن يختار أي دين يشاء ، فلماذا لا نلغي اليوم، في عصر حقوق الإنسان، حاجز السن ونجعله حقاً للمسلم مهما كان سنه؟. المبدأ الخامس، إصلاح التعليم الديني بالمواصفات التي سبق لي أن ذكرتها في هذا الحديث، إضافة إلى تدريس حقوق الإنسان، كما في تونس، لفتح الوعي الإسلامي للقيم الإنسانية الكونية التي لا تتناقض مع الخطاب الديني – الروحي ومع مكارم الأخلاق كالصدق والتضامن والرحمة والاستقامة بل تتكامل معها. تطبيق هذه المبادئ الخمسة يشكل مضمون العلمانية في أرض الإسلام

بقطع النظر عن الشكليات القانونية أو الدستورية التي سيكتسيها هذا المضمون.

السؤال، كل السؤال، من يستطيع أن يحقق هذه المهام الجسام التي يتوقف عليها إصلاح الإسلام ومساعدة الوعي الإسلامي على تبني حداثة "الآخر"، التي لا حداثة بدونها؟ المراهنة على الأنظمة هي كالمراهنة على ربح الحصة الكبرى في اليانصيب (لوتو). المراهنة الصحيحة تكون على أصحاب المصلحة في فتح الوعي الإسلامي والواقع العربي الإسلامي للعلمانية. من هم أصحاب المصلحة في الفصل بين الدين والسياسة، وبين الدين والعلم، وبين الدين والإبداع الأدبي والفني ؟ هم الأقليات القومية والدينية والنساء الذين حرمتهم جميعاً الدولة الدينية من حقوق المواطنة الكاملة. أضف إليهم الأدباء والعلماء والباحثين والفنانين والمبدعين وجمهورهم، أي القطاع المتعلم والمتنور من المجتمعات العربية الإسلامية. هؤلاء جميعاً لا خلاص لهم من مقص الرقيب وسيف الجلاد إلا بالعلمانية التي تقطع دابر التعصب والإرهاب الدينيين وتتيح الفرصة للجميع، لمن يؤمنون بجميع الأديان ولمن لا يأخذون بدين من الأديان، للتعبير الحر والسلمي عن قناعاتهم دون مجازفة بالحرية أو بالحياة.

هذه القوى الحية مازالت ضعيفة عدداً وإمكانيات بسبب تقليدية وتأخر المجتمعات الإسلامية. من هنا الأهمية الحاسمة لتكوين جبهة عالمية لنشر العلمانية في أرض الإسلام قوامها المجتمع المدني العالمي، الإعلام العالمي، الدبلوماسية الدولية لمساعدة القوى الحية في البلدان العربية والإسلامية. هذه القوى العالمية لها هي أيضاً مصلحة في العلمانية لأنها معنية بتجفيف ينابيع الإرهاب. والدولة الدينية ، والتعليم الديني التقليدي الإرهابي، ونشر كراهية الآخر عبر نشر فقه الولاء والبراء، ورفض حوار الأديان وتكفير من يقلد الغرب أو يتعاون معه، كلها ينابيع دينية ثرية للإرهاب الإسلامي.

أقترح على هذه القوى العالمية والدولية اعتبار التعليم الديني السائد في معظم البلدان العربية والإسلامية تحريضاً على الإرهاب ، واعتبار الإعلام الديني السائد تحريضاً على الكراهية والتمييز الديني. كما أقترح أن تتضمن اتفاقات الشراكة الأوربية العربية، والشراكة الأمريكية – العربية بنوداً تحرم التمييز الديني ضد المرأة وضد المواطنين غير المسلمين. هذا التمييز الذي يجسده اعتبار الشريعة مصدراً أساسيا للتشريع. والشريعة تعتبر المرأة ناقصة عقل في الولاية وناقصة دين في العبادة، وتعتبر المواطن غير المسلم أهل ذمة، أي صفر – مواطن، وهكذا يساعد العالم الفضاء العربي الإسلامي على الخروج من تأخره التاريخي للإنخراط في الحداثة العالمية التي فاته قطارها منذ القرن السادس عشر عندما انخرطت المسيحية في الاصلاح الديني وغاص هو في الجمود الديني إلى الأذقان.

هل الديمقراطية ممكنة من دون العلمانية؟

كلا. لأن الديمقراطية والعلمانية الناضجتين ، خاصة في أرض الإسلام ، هما كوجه الورقة وقفاها. لماذا ؟ الديمقراطية الناضجة تفترض وجوباً الاعتراف بالمواطنة الكاملة للمرأة وللمواطن غير المسلم أو غير المؤمن . مثل هذه المواطنة الكاملة تفترض العلمانية، أي الإعتراف لكل مواطن بجميع حقوق المواطنة . أية ديمقراطية في الكويت ونصف السكان، النساء، محرومون من حقوق المواطنة، أي من حق أن يكن ناخبات ومنتخبات؟ لأن شيوخ الإسلاميين وشيوخ القبائل اتفقوا ، اعتماداً على فتوى دينية بعدم أهلية المرأة السياسية أصدرتها وزارة الأوقاف الكويتية سنة 1985، على رفض مشروع

الحكومة الذي قدمته للبرلمان للإعتراف للمرأة بحقوق المواطنة السياسية . وأية ديمقراطية فيها طالما الشيعة مهمشون سياسياً ؟ وأية ديمقراطية في الأردن طالما البرلمان ، الذي يتحكم فيه تحالف الإسلاميين وشيوخ العشائر، يرفض مشروع قانون حكومي لتشديد عقاب المرتكبين لجرائم الشرف ضد النساء. وهكذا لا معنى للديمقراطية، التي تعتبر الولايات المتحدة غيابها سبب الإرهاب الإسلامي ، بدون الاعتراف أولاً بالمواطنة الحديثة للمرأة وغير المسلم وغير المؤمن. طبعاً تريد إدارة بوش ، عبر الانتخابات الديمقراطية استيلاء الإسلاميين على الحكم، كما صرحت وزيرة الخارجية الأمريكية ، كوندي ، في الأسبوع الأول من شهر إبريل – نيسان. لا مانع من ذلك فصعود الإسلاميين إلى الحكم في كثير من البلدان العربية الإسلامية سيكون، أكبر الظن، الطريق إلى العلمانية. لا يوجد شعب في أرض الإسلام أكثر علمانية من الشعب الإيراني الذي كان قبل ربع قرن شعباً من الملالي. لكن الثمن سيكون باهظاً : سيشنق العلمانيون على قارعة الطريق، وسترجم النساء بعشرات الآلاف وستنظم المجازر للأقليات الدينية والقومية ... وستصبح كل دولة إسلامية قاعدة لـ"القاعدة" على غرار ما حدث في إيران الخمينية والسودان الترابية وأفغانستان الطالبانية.

ما العمل؟

استصدار قرار من مجلس الأمن للتدخل العسكري في الحالات الأربع التالية : إذا شرع الإسلاميون في رجم النساء، وإذا نظموا مجازر للأقليات الدينية والقومية، وإذا حلوا الجيوش لتعويضها بالميليشيات الإسلامية التي ستشكل قاعدتهم الإجتماعية بعد يأس الشعب منهم، وإذا رفضوا التداول السلمي على الحكم بعد تجربة الجمهور لهم واليأس من وعودهم الخلاصية المستحيلة التحقيق. عندئذ يكون مجيء الإسلاميين إلى السلطة مقدمة لمجيء الحداثة في ركابهم ... لأن الشعوب ستكتشف أن لعب ورقة الدولة الإسلامية خاسرة، وأن مستقبلها جزء لا يتجزأ من مستقبل العالم وليس في ماضيها الذي مضى وانقضى إلى غير رجعة. ولعل هذا هو ما أدركه أخيراً منير شفيق عندما نصح الإسلاميين بالبقاء في المعارضة، كجماعات ضغط، والعزوف عن السلطة وعياً منه باستحالة تطبيق مشروعهم الذي تجاوزه التاريخ.

لماذا تسمح الإدارة الأمريكية لبلدان بكاملها أن تصبح قاعدة لـ "القاعدة"؟

رئيس مجلس الأمن القومي في ولاية كلينتون، الأولى ، انتوني بيرغر، قال في مقال له في التسعينات نشره في"فورين افريز" المتخصصة في السياسة الخارجية : في عهد الشاه كان الشباب الإيراني في جامعات أمريكا متعاطفاً مع الشيوعية. أما في ظل الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فإن أسلوب الحياة الأمريكية غدا المثل الأعلى للشباب الإيراني. وأضاف مبررا مساندة واشنطن لمجيء جبهة الإنقاذ الإسلامية إلى حكم الجزائر: وإذا حكم الإسلاميون في الجزائر، فالشباب الجزائري، المناهض لنا اليوم، سيصبح غداً متعلقاً بأسلوب الحياة الأمريكي.

صرحت مؤخراً شخصية أمريكية في حديث خاص مع أحد السفراء العرب بأن الرئيس بوش أكثر شعبية في إيران من خاتمي وخامينائي معاً.

بالتأكيد سيصبح "أسلوب الحياة الأمريكي"، في ظل حكم الإسلاميين، هو المثل الأعلى للشباب العربي والإسلامي. لكن من العمي السياسي أن يأخذ صانع القرار الأمريكي قراراً

استراتيجياً بدافع واحد وحيد هو اعتناق الشباب المسلم لأسلوب الحياة الأمريكي ! لكن ماذا عن مصير النساء ، والأقليات الدينية والقومية واستفحال الإرهاب ؟ من دون تحديد استراتيجية واضحة ومعلنة للتدخل العسكري الأممي أو الأطلسي في الحالات الأربع التي ذكرتها آنفاً ـ فإن الولايات المتحدة ستكسب دون شك تعلق الشباب المسلم بأسلوبها في الحياة ، كما في إيران ... لكنها ستخسر ، ومعها العالم كله، بتركها العالم العربي يغوص، تحت حكم الإسلام السياسي والجهادي، في الفوضى الدامية والإرهاب اللذين يشكلان التحديين الحقيقيين للحضارة المعاصرة.

المساواة في الإرث ضرورية وممكنة

غداة استقلال تونس 1956، صدرت مجلة [مجموعة قوانين] الأحوال الشخصية، التي حررها أستاذنا الشيخ محمد الفاضل بن عاشور والتي كان لها وقع هزيم الرعد على الوعي الإسلام المتكلس إلى درجة أن النساء أنفسهن، ضحية الأمية واستبطانهن لعداء الرجال لهن وتصديقهن لدعاية الرجال ضدها، رفضنها. في الانتخابات البلدية التي تلت صدورها فازت قائمة الحزب الشيوعي في العاصمة بفضل التصويت الاحتجاجي ضد قوانين الأحوال الشخصية لكن قائمة حزب بورقيبة هي التي فازت بالتزوير. وكقائد واثق من مشروعه السياسي الحداثي ومن شرعيته السياسية اعترف بورقيبة غداة الانتخابات في خطاب رسمي بتصويت النساء ضد قائمة حزبه تعبيراً عن رفضهن لقوانين الأحوال الشخصية مذكراً النساء بأن العبيد الذين حررهم إبرهام لينكولن رفضوا "مثلكن" الحرية التي وهبت لهم. لكن لم تكد تمضي بضعة عقود حتى استساغ الوعي الإسلامي التونسي هذه القوانين التي أعادت هيكلة العائلة التونسية التقليدية راديكاليا بإلغائها رخصة تعدد الزوجات المشروطة بشرط قرآني شارط لكن مستحيل التحقيق باعتراف القرآن نفسه : العدل بين الضرائر،ألغت الطلاق التعسفي الذي جعل المرأة رهينة نزوات الرجل الذي حسبه أن يملها - والملل ملازم للحياة الزوجية - ليرمي بها إلى الشارع في أية لحظة ويجد في الفقه الإسلامي السائد، الذي كتبه الرجال للرجال، مبرر لجريمته. كما خرجت المرأة المسلمة، لأول مرة في تاريخها، من سن القصور الأبدي أي حرمانها من أهليتها القانونية ابتداء من حقها في تزويج نفسها إلى حقها في تقرير مصيرها في حياتها اليومية. وألغت أيضاً حكم الآية 11 من سورة النساء "وإن كانت واحدة فلها النصف" والنصف الآخر يرثه أقرب رجل لأبويها فإن لم يوجد مثل هذا الوارث بالصدفة ورثته بيت المال ! وهو ولا شك حكم مناف للعقل ولحس الإنصاف.

تاريخياً حركات التجديد والتحديث بادرت إليها النخب الواثقة من مشروعها وشرعيتها. لأن النخب الحقيقية تقود جمهورها بدلاً من جر أقدامها وراء أوهامه الدينية أو تخيلاته القومية. مثل هذه النخب التي تسبق الوعي الشعبي لتكييفه مع الجديد والحديث المؤلمين دائماً، هي ما افتقده تاريخ العرب المعاصر. قبل مبادرة النخبة التونسية الحداثية بحوالي قرن فعلت النخبة اليابانية الشيء ذاته عندما فرضت على الوعي الجمعي الياباني تبني النظام القضائي الغربي والحال أن الياباني يأنف من الوقوف أمام القضاء. لأمد طويل ضل التجار الغربيون هم الذين يلجؤون إلى القضاء. لم يستسغ اليابانيون هذا النظام الغريب عن تراثهم إلا بعد عقود. قبل بورقيبة ب 32 عاماً بادر كمال أتاتورك إلى تحديث الوعي الإسلامي العثماني بالعلمانية، ركن الحداثة الركين، في شعب من الفلاحين 96% منه أميون. رغم نكوص عدنان ماندريس طوال السنوات 1950 الى التعليم الديني التقليدي وتشجيعه للإسلام العثماني المتعطش لأخذ الثأر من العلمانية ورغم مواصلة الحركة الأصولية التركية لخط ماندريس فإن القيم العلمانية تغلغلت في الوعي الإسلامي

التركي لدرجة أن قطاعاً من قادة الإسلام السياسي تكيف معها عن قناعة أو عن تكتيك. ليس مصادفة ندرة فقهاء الإرهاب بين قادة هذا الإسلام بينما أغلبيتهم هي التي تقود الحركات الدينية المناضلة ضد العقل في العالم العربي رادعين نخبه السياسية، التي أفقدها فسادها أو جبنها كل مصداقية، عن تحقيق الإصلاحات البنيوية الملحة خاصة في التشريع والتعليم والتعليم الديني والديمغرافيا والانفتاح على الحداثة مما جعل جل المجتمعات العربية تغوص كل يوم في التأخر أكثر وعلى قاب قوسين أو أدني من التفكك أو الانفجار من الداخل، وزارعين الرعب في رؤوس شريحة واسعة من النخبة الفكرية المستنيرة، لكن الجبانة، التي باتت تخشى على حياتها إن هي عبرت بصراحة عما تفكر فيه بخصوص إصلاح الإسلام لتكييفه مع الحداثة بعد أن فشل وهم تكييف الحداثة مع الإسلام الذي تعاطته النخب الإسلامية والقومية طوال القرن العشرين. وفي سقوط النموذج الإسلامي الإيراني عبرة لأولي الأبصار:فقد نقر المسلمين الإيرانيين من الإسلام إذ توقف 75% من الشعب و86% من الطلبة عن الصلاة، عماد الدين، كما يؤكد تقرير بلدية طهران لسنة 2000. والوقائع التي تذكرها الصحافة الإيرانية هذه الأيام أكثر دلالة : الجوامع التي كانت في عهد الشاه تغص بآلاف المصليين لا يصلي فيها الآن صلاة الصبح إلا عشرة أشخاص وصلاة الظهر عشرون شخصاً !

في الواقع الإشكالية المركزية اللامفكر فيها اليوم هي التالية : هل نواصل، بفصامية سريريه، اللعبة التراجيدية - الكوميدية التي تعاطيناها منذ القرن التاسع عشر بفشل ذريع : تكييف الحداثة مع الإسلام باختراع "حداثة إسلامية" أي دولة إسلامية، لا تفرق بين الدين والدنيا، وعلوم إنسانية إسلامية، تعترف بثبات تقاليد الأسلاف لا بقانون تطورها، وفلسفة إسلامية تتجند للدفاع عن وجود اللـه ضداً على الفلسفة المعروفة في العالم، واقتصاد إسلامي لا يتعامل بالربا [الفائدة] بل يقدم القروض لوجه اللـه كما تفعل المصارف الإسلامية التي تتعاطى المضاربة من بورصات العالم وتستولي على أموال مودعيها التعساء، وحقوق إنسان إسلامية تقدم حقوق اللـه [العبادات] على حقوق الإنسان وتبرر تطبيق الشريعة ابتداء من جلد شارب كأس بيرة 80 جلدة إلى رجم الزانية ودق عنق المرتد وأخيراً لا أخراً "وعلم مستقبلات عربي إسلامي يعطينا الأمل ويحثنا على العمل" ضد علم المستقبليات العالمي الذي ينذرنا بأن مستقبلنا سيكون صورة من حاضرنا كما يقترح محمد عابد الجابري ؟ أم نعود إلى رشدنا فنقبل بمبدأ الواقع المحبط لكن الذي لا مفر منه أي تكييف الإسلام مع الحداثة ومتطلباتها الضرورية واضعين بذلك حداً ل "الاستثناء العربي الإسلامي" من قوانين التاريخ وحقائق العصر الذي نعيش فيه بأجسادنا ونعيش في عصور خلت بأفكارنا ومعتقداتنا وتشريعاتنا وتعليمنا واقتصادنا وسياستنا وقيمنا التي حولتنا إلى أضحوكة طوراً والى بعبع أطواراً في نظر الدبلوماسية الدولية والإعلام العالمي والمجمع المدني العالمي الذي يخص العالم العربي كل سنة بحصة الأسد في انتهاك حقوق الإنسان وخاصة حقوق المرأة وغير المسلم وغير العربي ؟

خاصية النخبة التونسية الفكرية والسياسية أنها فكرت بصوت عال في هذا اللامفكر فيه وحسمت خيارها : تكييف الإسلام مع الحداثة لاستحالة تكييف الحداثة مع الإسلام. في 1930 نشر الشيخ الطاهر الحداد، خريج الزيتونة، كتابه "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" مطالباً، عبر قراءة تاريخية عبقرية لآيات القرآن، بإلغاء تعدد الزوجات والمساواة بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات كافة بما في ذلك المساواة في الإرث. بعد 26 عاماً من صدور كتاب الحداد، صدرت قوانين الأحوال الشخصية متبنية تدريجياً إصلاحات الحداد واحدا واحدا : المساواة في الإرث بين الذكر والأنثى التي عليها اليوم أن تتبناها لاستكمال خيارها التاريخي : تكييف الإسلام مع الحداثة، في هذه الحالة، مع القيم الإنسانية

الكونية ومواثيق حقوق الإنسان التي تفرض المساواة التامة بين الجنسين في الحقوق والواجبات كافة. كيف تدخل الفتاة التونسية الجيش لتأدية الخدمة العسكرية الإلزامية جنباً إلى جنب مع الفتي ومع ذلك لا تكون مساوية له في الميراث ؟

في 1993/6/12 صدر قانون ثوري وضع حداً لأول مرة في أرض الإسلام للسلطة البطريرقية (الأبوية) العتيقة، التي تعطي للأب، بحكم التقاليد الميتة التي يحكم بها الأسلاف من وراء قبورهم حياة الأخلاف، السلطة في المنزل على الزوجة والأبناء وفي المجتمع للرجال على النساء، جاعلاً الأبوين كليهما شريكين في إدارة الأسرة ل ''صالح الأبناء''، لا ينقص إلا قانون المساواة في الإرث لإرسال السلطة البطريرقية الباغية إلى مثواها الأخير.

المساواة في الإرث ستكون آخر وسام تعلقه النخبة التونسية السياسية على صدرها في مجال تحرير المرأة من رق العصور الخوالي. وستكون خاصة طفرة نوعية في تعزيز إدماج المرأة التونسية في التنمية الذي قطعت فيه شوطاً بعيداً في المجمعين المدني والسياسي: 98% من الفتيات متمدرسات، 25% من القضاء نساء - في مصر، وطن هدى شعراوي وقاسم أمين، لم تدخل الى القضاء إلا امرأة واحدة وحيدة السنة الماضية !!! - 34% من الأطباء نساء، 64% من الصيادلة نساء. كما دخلت المرأة التونسية الى صفوف الطبقة العاملة وصفوف أرباب العمل وفي المجالين بكفاءة. بالمثل تبوأت منزلة واعدة في المجتمع السياسي : 14% من موظفي الدولة من النساء و16,5% من مقاعد البلديات و25% من اللجنة المركزية للحزب الحاكم من النساء. ووزيرتان في الحكومة.

للذين عقدوا العزم على استلهام النموذج الحداثي التونسي في تحرير المرأة أقول أن دمج المرأة التونسية في التنمية تم بواسطتي التعليم والعمل : تونس الوحيدة في دول الجامعة العربية التي تخصص 19% من ميزانيتها للتعليم في حين تخصص الدول الأخرى 27% من موازنتها لصناعة الموت : الجيوش بالنتائج الكارثية التي نعرف : هزائم دون قتال وعجز مزمن على تحرير شبر واحد من الأراضي المحتلة في سوريا أو في فلسطين. نصف قرن من المساواة في حق التعليم بين الفتى والفتاة فتح سوق العمل أمامهما دون تمييز. لقد مضي ذلك العهد الذي كانت فيه المرأة التونسية ربة منزل فقط لتغدو اليوم ربة مهنة وربة عمل..

في 1956 برر أستاذنا العلامة محمد الفاضل بن عاشور عدم إقرار المساواة بين الذكر والأنثى في الإرث عكساً لرغبة بورقيبة بقوله لنا في درس فلسفة التشريع الإسلامي : ''قلت له الآن النساء لا يطالبن به والرجال ضده، لكن بعد سنوات ستتطور بالتعليم، العقليات وعندها لكل حادث حديث''. وصدقت نبوءة شيخنا في 1994 سألني طالب في السنة أولى حقوق عن تفسير بعض المصطلحات الغامضة في درس الشريعة ك ''الاستحسان والاستصحاب'' ثم سألني : ''ألا تري إعطاء الذكر مثل حظ الأنثيين ظلماً'' وكانت له أخت ومن أسرة موسرة. سألت زميليه هل تعتبر أن الأمر ظلماً ؟ فأجابا بالإيجاب ولأحدهما أختان. قلت لهما عندما ظهر الإسلام لم يكن ذلك ظلماً بل ربما كان ثورة لسببين : في الجاهلية كانت الأنثى محرومة من الميراث حيث لم يعترف العرب بحق الإرث إلا لمن كان قادراً على القتال أي الذكور البالغين حصراً. السبب الثاني هو العداء العميق للمرأة الذي كان مستشرياً كالوباء بين عرب الجاهلية وورثائهم من فقهاء القرون الوسطي وفقهاء الإرهاب المعاصرين. اتخذ هذا العداء أربعة مظاهر : تشاؤم

الآباء من المولودة والوأد والرجم والحرمان من الإرث. أفضل من صور لنا عداء عرب الجاهلية للمرأة هو القرآن نفسه : ’’وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم"(58 النحل) أي كئيب، في فلسطين اسم (نهاية) شائع جداً بين البنات تعبيراً عن كونهن مولودات غير مرغوب فيهن من آبائهن ! المظهر الثاني لهذا العداء هو الوأد للبنت الوليدة : ’’وإذا المولودة سئلت بأي ذنب قتلت‘‘(8 التكوير) ولو كان الرجم معروفاً على عهد النبي لنزلت آية مماثلة تقول مثلاً : وإذا المرجومة سئلت بأي ذنب رجمت، الفقهاء سليلو وائدي بناتهم استوردوا الرجم، على ما بين الصادق النيهوم في كتابه ’’إسلام ضد إسلام‘‘ (دار الساقي) من التوراة رغم أنف القرآن الذي استبدله بعقاب آخر أخف للنساء المتزوجات : ’’واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فامسكوهن في البيوت إلى أن يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا‘‘ أي مخرجاً من سجنهن بعفو رجالهن عليهن ؛ المظهر الرابع والأخير، هو حرمانهن من الميراث أصلاً في الجاهلية وعدم المساواة بينهن وبين الرجال في الميراث. ولو سواهن القرآن لفاوض الصحابة الرسول كما فعلوا مراراً وبنجاح، على نسخ الآية كما نسخت بطلب منهم آيات قبلها. دليلي على هذه الإمكانية أن معظم العرب خلال أكثر من 14 قرناً لم يطبقوا الآية 11 من سورة النساء وظلت الأنثى خاصة في البوادي محرومة من الميراث. والدتي مثلاً لم ترث أباها إلا بعد الاستقلال أي بعد حوالي 40 عاماً ! كما أن فقهاء الحنفية اخترعوا الوقف لسببين : الإفلات من المصادرة وحرمان الأنثى من حقها في الإرث الذي اعترف لها به القرآن.

المغزى من كل هذا أنه ما كان بإمكان القرآن أن يسوى في الإرث بين الذكر والأنثى، وعلينا اليوم، اعتماداً على القراءة التاريخية للقرآن والحديث أن نصحح الوضع وننسخ التمييز الذي لم يعد مقبولاً في عصرنا بين الذكر والأنثى في الميراث، أشرت قبل قليل إلى طلبة الحقوق الثلاثة الذين اعتبروا التفاوت في الإرث بين الذكر والأنثى (ظلماً) في نفس الفترة (1994) ذهبت لتهنئة زميل الدراسة الشيخ الكفيف أحمد الحمداني وإمام جمعة باريانه بعودته سالماً من الحج. أخبر زواره بأنه قسم ممتلكاته بالتساوي بين أبنه وابنته. لاحظ له قاض في محكمة التعقيب (النقض) بأن ذلك مخالف للنص الآية فأجابه ’’يا سي الهادي [بالأخضر] ذلك زمان وهذا زمان‘‘ ولم يعترض عليه أحد من الحاضرين وكلهم من خريجي جامع الزيتونة المعمور. وهو دليل لمن مازال في حاجة إلى دليل على نضج العقلية التونسية، التي رأى شيخنا محمد الفضل بن عاشور، أول مفتي لتونس المستقلة، أنها الشرط الذي يجعل صدور قانون المساواة في الإرث ممكناً، خاصة وإن تونس السباقة إلى التجديد كانت أول من طبق القراءة التاريخية للقرآن أي نسخ أحكام الآيات التي لم تعد متكيفة مع المصلحة العامة كما فعل الشيخ الطاهر الحداد والمشرع التونسي عندما نسخ رخصة تعدد الزوجات وحرمان البنت الوحيدة من إرث كامل ثروة أبويها وتحريم التبني.

القراءة التاريخية للنص القرآني دشنها القرآن نفسه حيث كانت تنزل آيات جديدة تنسخ الآيات القديمة التي لم تعد متكيفة مع المستجدات. بعد موت النبي واصل الخلفاء الراشدون نسخ الآيات التي باتت متعارضة مع المصلحة العامة. مثلاً يعلمنا الطبري أن أبا بكر نسخ حق المؤلفة قلوبهم في الآية (60 التوبة) بحجة عقلية : ’’قوي الإسلام لا حاجة لنا فيهم‘‘ ولم يعترض عليه أحد من الصحابة. ويعلمنا أبو يوسف، صاحب أبي حنيفة في كتابه ’’الخراج‘‘ أن المهاجرين والأنصار اجتمعوا للتداول في اقتراح الخليفة عمر بن الخطاب نسخ آية الفيء ’’وما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول‘‘ (41التوبة) وأخيراً بموافقة عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل ولم يعترض على النسخ إلا بلال ابن رباح والزبير ابن العوام نسخت بحجة عقلية احتج بها عمر على قادة الجيش

ومقاتليه هي مصلحة الأجيال القادمة : ''إذا أخذتم هذه الأرض ماذا سيبقى لمن يأتون بعدكم ؟''. بعد الخلفاء الراشدين والصحابة نسخ أيضاً الفقهاء آية الدين ''وإذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه'' (182 البقرة)بحجة عقلية أي المصلحة العامة : الأمية منتشرة في الأمصار واشتراط العقد مضيعة لمصالح الناس. نسخ الشيخ المالكي الونشريسي حكم حديث حرمان آل البيت من الزكاة حفظاً لكرامتهم لكن عندما باتوا في القرن التاسع الهجري يتسولون في الطرقات أفتى الشيخ في كتابه الشهير بنسخ الحديث باسم المصلحة العقلية : والوقت قاض بجواز إعطاء آل الرسول من مال الزكاة قسطاً. لاحظوا ''الوقت قاض'' هذا الإحساس بمتطلبات التاريخ الذي افتقده اليوم فقهاء الإرهاب الذين يفتون بهذر دماء المسلمين وغير المسلمين المعصومة عقلاً ونقلاً ويجادلون في إقرار المساواة في الإرث.

حسن الأحدوثة أي السمعة الطيبة هي اليوم رأس مال رمزي. سمعة بلد تقاس بالمسافة التي قطعها لدخول الحداثة أو تحديث الحداثة وخاصة حداثة حقوق الإنسان وحقوق المرأة. إقرار المساواة في الإرث سيحدث دوياً إعلامياً إقليمياً وعالمياً إيجابياً وسيكون وساماً آخر تتقلده الخضراء التي غدت منذ الآن قدوة حسنة لمحيطها المغاربي والعربي والإسلامي. الملك محمد السادس أمر بإصدار مدونة الأحوال الشخصية قبل نهاية الشهر الجاري. مشروع المدونة المغربية نسخة طبق الأصل من المجلة التونسية. الرئيس عبد العزيز بوتفليقه فتح ورشة إصدار قوانين شخصية جزائرية تستلهم القوانين التونسية.. وفي إيران يفكر بعض الإصلاحيين في ترجمة مجلة الأحوال الشخصية التونسية إلى الفارسية.

وأول الغيث قَطْرٌ ثم ينهمر.

في سبيل تعليم ديني تنويري

سألني صحفي من "الأهرام العربي" خلال حديث معي في 2002 عن سر تقليدي للمطلب الأمريكي بإصلاح التعليم الديني.. قلت له لو كنت مطلعاً بما فيه الكفاية عن هذا الموضوع لتساءلت عن سر تقليد الأمريكيين والاتحاد الأوربي لي : في 1956 طالبت بغلق جامعة الزيتونة التي كانت تغسل عقول طلبتها بالفقه القديم فأغلقت. وفي السبعينات تحدثت عن المدرسة العربية التي تجعل العبقري موهوباً والموهوب تافهاً حسب عبارة بياجيه Piaget وفي 1997/11/1، عندما كانت المخابرات الأمريكية تتعاون مع المخابرات السعودية والباكستانية علي تنصيب طالبان في أفغانستان، نشرت مقالاً في "الحياة" بعنوان : "تجفيف الينابيع الأصولية شرط تحديث التعليم" لفت به انتباه النخب العربية إلي ضرورة إصلاح التعليم الديني علي غرار التجربة التونسية الرائدة في هذا المجال التي بدأت إصلاح التعليم والتعليم الديني منذ 1990 كرد تربوي علي تحدي الإرهاب الإسلاموي وعلي الإصلاح الديني المضاد الذي حققه الإسلامويون في التعليم والإعلام منذ 1972. في مقال آخر في "الحياة" (العدد 6273 يناير 1998) أشرت فيه إلي الفلسفة التربوية التي قام عليها إصلاح التعليم والتعليم الديني في تونس. هذه الفلسفة تضمنها كتاب من 1200 صفحة وهي تنطلق من ضرورة استئناف حركة الإصلاح الديني وفلسفة الأنوار الفرنسية إي تعليم الأجيال الصاعدة قراءة النص الديني قراءة تاريخية وإثراء مخيالها بالقيم الإنسانية التي جاءت بها فلسفة الأنوار في القرن الثامن عشر وهما ترياقان ناجعان للإنتهاء من تطبيق أحكام الفقه القديم التي باتت كالدواء الذي انتهت مدة صلاحيته لا يفيد متعاطيه بل يضره ولإدخال النسبية في الحقل الديني الذي مازال عندنا قائماً علي المطلقات واليقين الأعمي وتطبيق الشريعة والحال أنه تم ترشيده في الديانات التوحيدية الأخرى منذ قرون.

مباشرة بعد 2001/9/11 طالبت الغرب بالتدخل لمساعدتنا علي إصلاح التعليم الديني لأنه أصبح صاحب مصلحة في ذلك بعد أن امتد إليه خطر الإرهاب الديني الذي كان يضرب الجزائر ومصر. وللتاريخ فهذه الأخيرة طالما حذرت الغرب من هذا الخطر. لكن السؤال الجديد بالطرح هو محاولة فهم الرهاب الهستيري الذي يستولي علي قطاع عريض من إعلاميينا ومثقفينا إذا رأوا تطابقاً مع مواقف غير المسلمين والحال أنه لا يوجد معيار موضوعي للحقيقة يردعنا عن التطابق معهم إذا كان المنطق يقتضي ذلك ؟ السبب الأساسي يعود إلي فقه القرون الوسطي الذي صاغ شعورنا ولا شعورنا بتحريم وتجريم تقليد غير المسلمين : ابن تيمية اعتبر "مخالفة الكفار مقصداً من مقاصد الشريعة" كما يقول راشد الغنوشي. لماذا مرة أخرى ؟ لأن نرجسيتنا الدينية اعتبرت جميع الأديان الأخرى منسوخة بالإسلام وكأي إثنية مركزية أو نرجسية جمعية تعتبر نفسها النموذج الذي يقلده الآخرون وهكذا تحرم علي نفسها تقليد "الكفار" وتحرم بذلك نفسها من مزايا هذا التقليد خاصة اليوم حيث يمتلكون المؤسسات والعلم والقيم أي كل ما نحتاج إلي

تقليدهم فيه. سبب آخر لا شعوري يعود إلي الكسل الذهني الشائع عند قطاع من الإعلاميين والمثقفين : عجزهم عن التحليل الموضوعي للاطروحات الغربية لتحديد مراميها وأيضاً للبحث عن تقاطع المصالح فيها بيننا وبينهم في عالم تدامجت فيه جميع الاقتصاديات القومية في اقتصاد عالمي واحد و غدت فيه التحديات الجماعية كالإرهاب والمخاطر المحدقة بالبيئة والأوبئة والانفجار السكاني والفقر والأمية نقاطاً تلتقي فيها مصالح جميع شعوب العالم التي غدت تقدم المصالح المادية علي الشعارات الأديولوجية أو الدينية.

بأي منطق نعارض مطلب إصلاح التعليم الديني في السعودية مثلاً الذي يغسل أدمغة تلامذتها وطلبتها بعداء غير المسلمين إذ تبرعت جمعية ''خيرية'' سعودية، تمول الإرهاب، علي جميع تلامذة المملكة بدفتر واجبات كتبت في الصفحة 38 منه : ''عن السلف الصالح : إذا حياك نصراني فرد عليه بقدميك'' وبتكفير الشيعة، الذين يمثلون 10 % من سكان السعودية، عبر تدريس فتاوى ابن تيمية التي تقول إحداها ''من شك في كفرهم [= الشيعة] فقد كفر'' والجدير بالذكر أن ''الفتاوى'' إياها حسب اليومية ''الأحداث المغربية'' قد وزعتها هذه السنة، السفارة السعودية علي كل ثناويات المغرب تعميماً للفائدة منها !

يبقي السؤال الذي يطرح نفسه : لماذا تعلم كثير من النخب العربية مواطني الغد تعليماً دينياً يتعارض مع مصالحها الموضوعية ؟ ذلك عائد في نظري إلي ثلاثة أسباب أساسية : قطاع من هذه النخب من خريجي هذا التعليم واستبطن الإصلاح الديني المضاد الذي قاده الإخوان المسلمون ضد بدايات الإصلاح الديني غير المكتمل في مصر، وقاطع آخر ردعه افتقاده للشرعية سواء كانت شرعية ديمقراطية أم شرعية إنجازات اقتصادية واجتماعية كما ردعه جبنه السياسي والديني عن الرد المناسب علي الإصلاح الديني المضاد في التعليم بإصلاح ديني حقيقي انطلاقاً من التعليم لمواجهة الإسلام التقليدي والإسلام الجهادى المتحالفين موضوعياً ضد الإصلاح الديني فأخذ يطبق الإسلاموية بدون إسلامويين ! والقطاع الثالث أعاقه غياب الرؤيا الإستراتيجية في صنع القرار التربوي عن مباشرة هذا الإصلاح المتأكد. في الواقع الإصلاح التربوي الديني هو جزء من كل : الرؤيا التنموية الشاملة التي تغطي التعليم والإعلام والأدب والفن والعلم والاقتصاد والسياسة. النسق التنموي، ككل نسق، كل لا يتجزأ. وهكذا لم يندرج التعليم الديني في مشروع مجتمعي مستقبلي أقام سلفاً الحداد علي كل ما هو ميت ومميت في تراث الأسلاف، الذين مازالوا يحكمون من وراء قبورهم حياة الأحياء !

مثل هذا المشروع يقوم علي تحليل بني المجتمع المعني ومشاكله وإنسداداته لوضع الأجوبة المناسبة عليها موضع التطبيق. هذا ما عجز عن إنجازه كثير من صناع وأصحاب القرار في العالم العربي وما عجزت عن استشرافه كثير من النخب الفكرية التي من أولوياتها التفكير في ما لم 'يفكر فيه بعد. بدلاً من ذلك نراها تقول، بجبن فكري نادر، لجمهورها المغترب دينياً ما يود سماعه منها.

ماذا أعني بتعليم ديني تنويري يكون بديلاً لما هو سائد ؟ أعني أن التعليم الديني الحالي في معظمه وفي معظم البلدان ظلامي. أستخدم كلمة ظلامي بالمعني الذي استخدمته فلسفة الأنوار في القرن الثامن عشر : مواجهة أنوار العقل بالتعصب وإيمان العجائز وتقاليد الأسلاف والأحكام المسبقة والخرافات الرائجة... وباختصار الرد علي التجديد بالتقليد وعلي التفكير بالتكفير.

ما هي مقومات التعليم الديني الظلامي ؟

1- الترويض : التطويع النفسي للتلميذ والطالب ليتصرفا وفق ما ينتظره مروضهما منهما بتحويلهما إلي ببغاء يقول ما قيل له. وهذا متعارض مع دور التعليم كما تصوره فيلسوف الأنوار كوندورسيه Condorcet : تكوين شعب صعب الانقياد " أي تربي علي التفكير بنفسه والنقاش المتعارض ومقارعة البرهان بالبرهان و الفكر النقدي الذي يسائل الأطروحات والمقترحات عن شرعيتها العقلانية.

2- التلقين : الاغتصاب النفسي وتحفيظ النصوص الدينية الذي يعيق العقل عن التفكير الشخصي فيها. الحفظ يستبعد الفحص النقدي لحساب التسليم الإيماني واليقين الأعمى. تأثيره أقرب ما يكون إلي تأثير الإعلام الموجه (بفتح وتشديد الجيم) يتشربه اللاشعور كعادة ذهنية تلقائية، كمسلمة مستغنية عن البرهان. لذلك شن الإخوان المسلمون حملة صليبية علي شيخ الأزهر عندما قرر إلغاء حفظ القرآن من التعليم الأزهري!

علي صعيد المحتوى :

(1) يرعي التعليم الظلامي السائد التعصب بما هو خوف هستيري من إدخال النسبية علي الحقائق الدينية وتشبث عصابي باليقين المطلق والمغلق عن كل نقاش وتجريم وتكفير للرأي المخالف. لا يوجد في نظر المتعصب إلا رأيان مانويان أحدهما صحيح مطلقاً والأخر خاطئ مطلقاً ! وهكذا فالتعصب هو الطريق الملكي إلي الإرهاب الديني. انتشار فتاوى التكفير وإهدار الدماء منذ حوالي ربع قرن له علاقة مباشرة بهذا التعليم الذي تخصص في تخريج فقهاء الإرهاب.

(2) يربي الأجيال الصاعدة علي تكفير الفلسفة التي لا تدرس في كثير من دول الجامعة العربية أصلاً ولا تكاد تدرس فعلاً كفلسفة تحترم العقل وقوانينه لا كعلم كلام إلا في بلدين أو ثلاثة علي الأكثر، كما يربيها علي تكفير العلوم الإنسانية ونظرية التطور التي قال عنها سيد قطب في "معالمه" إنها "معادية للدين عامة وللإسلام خاصة".

(3) يحارب العقل بالنقل ويستغل كل الغرائز البدائية والعدوانية من غريزة الموت إلي الخوف من الجديد لتكفير الحداثة وقيمها وغرائز الحياة التي حررتها.

(4) يكفر القيم الإنسانية متمثلة في حقوق الإنسان والمواطن : المساواة بين الجنسين تعني بالنسبة له إلغاء قوامة الرجل علي المرأة وحرية الاعتقاد تعني إلغاء عقوبة الردة والحق في السلامة الجسدية يعني إلغاء العقوبات البدنية الشرعية.. إلخ.

(5) تحريم الفن (موسيقي، غناء، رسم، نحت) من آخر فتاوى القرضاوي تحريم النحت.

(6) ترسيخ عداء المرأة "ناقصة العقل والدين"، "النساء شاورهن و خالفوهن" ! كتعبير عن سادية متفجرة، تعذيب نفسي وجسدي : فرض الحجاب والنقاب والختان والقصور الأبدي عليهن...

(7) عداء غير المسلم لأنه بلا دين فالدين الوحيد المقبول عند الله هو الإسلام.. وإبقاؤه شعورياً أو لا شعورياً ذمياً أبدياً محروماً من حقوق المواطنة !

باختصار هذا التعليم يجعل الأجيال الصاعدة تتشرب أن العقل غير جدير بالثقة وأن الثبات لا التطور هو سنة الله في خلقه وأن الجهاد ماض إلي يوم قيام الساعة وعبادة الأسلاف أي تقليدهم في كل شيء هي طوق النجاة.

بديل هذا التعليم الظلامي الذي يرتكب جريمة مستمرة هي إحداث قطيعة بين خريجيه وبين الحداثة. هو تعليم تنويري. ماذا أعني بتنويري ؟ تعريف كانط لفلسفة الأنوار ''خروج الإنسان من سن القصور'' العقلي، من الأحكام المسبقة، من التعصب، من الخرافة، من إيمان العجائز للدخول في العقلانية، في التسامح، في الإيمان بالأخوة الإنسانية وبالقيم الإنسانية، وباختصار اكتساب الإنسان القدرة علي التفكير بنفسه لا بأسلافه والقدرة علي استخدام البرهان وعلي معاييره برهان الطرف الآخر بمعايير العقل أي بقوانينه. إذا كان التعليم الظلامي السائد قد علم من درسوا فيه ان الحقيقة واحدة ومطلقة هي حقيقتنا فالله كلمنا لآخر مرة وكشف لنا خاتمة الحقائق، فعلي التعليم التنويري أن يعلم متعلميه وجود حقائق دينية عدة كلها نسبية لأنها ليست حقائق إلا في نظر من يؤمنون بها، وأن الحقيقة الوحيدة المطلقة هي أن لا وجود لحقيقة مطلقة. والحقيقة نسبية لأنها دائماً جزء من حقيقة أشمل برسم الاكتشاف والعقل الذي ينتجها هو بدوره نسبي نظراً لنسبية الظواهر التي يعالجها ونسبية الأدوات التي يستخدمها ونسبيته هو نفسه بما هو منتوج للتطور المتواصل منذ ملايين السنين : كل هذه النسبيات تردعه، خاصة في سن رشده الحالي، عن إدعاء العصمة من الخطأ. لأن الخطأ هو بالضبط الطريق إلي الحقيقة العلمية التي هي، كما يعرفها فيلسوف العلوم باشلار، ''خطأ تم تصحيحه''. لكن العقل هو الوحيد القادر علي إصلاح أخطائه.

إذا كان التعليم الظلامي ينطلق من مسلمة أن المرأة والعقل البشري قاصران أبديان، فإن التعليم التنويري ينطلق من فرضية أن الإنسان وعقله غير كاملين ولكنهما قابلان لكمال لا يكتمل أبداً.

إذا كان التعليم الظلامي ينطلق من رؤيا نكوصية للتاريخ تزعم أن مستقبل المسلمين في ماضيهم وخير الأجيال هو جيل الصحابة وخير العصور هو عصرهم وخير الدول هي دولة الخلافة الراشدة..، فإن التعليم التنويري سينطلق من رؤيا إستراتيجية مستقبلية لمشروع مجتمع الحداثة رائده والعقلانية منطلقه. يوجد نموذج متحقق لهذا التعليم الديني العقلاني هو التعليم التونسي الذي أعطي عنواناً ثابتاً لجميع كتب الدورة الدراسية : ''أنا أفكر''. الفلسفة تدرس فيه في الثانوي لمدة سنتين وفي كامل سنوات التعليم العالي حيث تدرس علوم الحداثة التي تساعد علي الفهم العقلاني للظاهرة الدينية : تاريخ الأديان المقارن الذي يساعد الطلبة علي فهم خط تطور الديانات وتلاقحها بعضها مع بعض مثلاً شريعة القصاص ترجمها العبرانيون خلال السبي البابلي في القرن السادس قبل الميلاد من مدونة حامورابي المكتوبة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.. حتى ليمكن القول أن اليهودية ما هي إلا محصلة للديانتين المصرية والبابلية، السوسيولوجيا الدينية تعلم الطالب طرائق استخدام أو تطويع الوظائف الاجتماعية للدين لخدمة إستراتيجيات الجماعات المتنافسة، وعلم النفس يعلمه الوظائف النفسية للدين : تقديم العزاء والسلوى في مواجهة مصائب الحياة من أب حام رؤوف بأبنائه وأخيراً يرضي طموحه النرجسي إلي الخلود في

حياة أخري بعد الموت. والألسنية تعلمه أن النص المقدس يخضع لنفس التحليل اللغوي الذي يخضع له أي نص علماني لتأويله واستبطان مدلولاته. وهكذا يغدو الدين في متناول العقل وبدون ألغاز. ويغدو الطالب قادراً علي التفكير فيه بنفسه باستقلال عن رأي الفقهاء والمفسرين الذين درسوه برؤيا إيمانية وبأدوات معرفية بدائية تجاوزها التطور العلمي المعاصر. بالمناسبة عمم صانع القرار التعليمي التونسي الفلسفة علي جميع الفروع العلمية بما فيها التعليم المهني والعلمي والطب لتعليم طلبة هذه الاختصاصات، التي تقدم الأعضاء والأنصار لجماعات الإسلام الجهادي، الفكر النقدي الذي يسائل ويشك ويحلل ويستخدم قوة الحجة بدلاً من حجة القوة. وهكذا لأول مرة امتلك بلد في الجامعة العربية تعليماً دينياً يساعد علي مكافحة التعصب والاستخدام السياسوي للدين.

ماذا عسي تكون أولويات تعليم ديني تنويري ؟ ستكون متطابقة مع أولويات كل نخبة وحاجات كل مجتمع. ومع ذلك بإمكاني اقتراح أولويات مطروحة علي جميع المجتمعات العربية التي مازالت تكابد ويلات التعليم الظلامي.

1- الدخول إلي الحداثة لمن لم يدخلوا فيها بعد والمضي قدماً فيها لمن دخلوها. فتحديث الحداثة مهمة لا تكتمل قط. التعليم التنويري يساعد بقوة علي تحقيق هذه الأولوية لأنه يفتح المخيال الإسلامي التقليدي للحداثة لاستبطان مؤسساتها، علومها، قيمها ونمط حياتها الذي يعيد اليوم صياغة مخيال البشرية الجمعي بقيم ومفاهيم ومصالح وممارسات غير مسبوقة.

2- تشجيع الروح العلمية التي يكافحها التعليم الظلامي بقوة بالتخلي عن سياسة النعامة وتبني اقتراح بنت الشاطئ سنة 1965 باعتبار القرآن كتاباً روحياً حصراً وليس كتاب تاريخ ولا جغرافيا ولا بايلوجيا ولا طب ولا فزياء فلكية. هذا الفصل بين الدين والعلم يكسب به الدين الذي لا يعود معنياً إلا بالحقائق الروحية ويكسب به العلم الذي يتحرر من وصاية النصوص الدينية التي تطالبه بتصديق أن الشمس، التي هي أكبر من الأرض بستة آلاف مرة، تغرب في عين حمئة في الأرض وبأن العالم عمره ستة آلاف عام ونيف وبأن الله خلق الفأر فأراً والحمار حماراً والإنسان إنساناً.. نفياً لواقعة التطور التي غدت مسلمة علمية.

3- تبني المواطنة الحديثة بالنسبة للصنفين اللذين أقصاهما منها التعليم الظلامي : المرأة وغير المسلم. المرأة بالاعتراف لها بجميع الحقوق التي تعترف بها لها وثائق حقوق الإنسان والمواطن. وغير المسلم بمعاملته علي قدم المساواة مع المسلم في الحقوق والواجبات المدنية كافة. ورد الاعتبار لغير المسلمين في العالم العربي بتدريس تاريخ مشاركتهم في صنع الحضارة العربية الإسلامية بالترجمة، التي كانت الحدث المؤسس لهذه الحضارة، وبالعلوم والطب والمشاركة في السلطة السياسية طوال قرون، تدريس كتاب د. عبادة كحيلة "عهد عمر" الذي نسف به، بالبراهين التاريخية المقنعة، الأساس الذي قام عليه فقه الذمة العنصري موضحاً أن عمر لا علاقة له بهذا العهد المزور عليه. وهكذا يصبح فقه أهل الذمة بلا شرعية دينية ؛ اعتبار الآية 62 من سورة البقرة التي تكررت أيضاً في سورتي المائدة والحج غير منسوخة : "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون" واعتبار الآيات التي اعتبر الفقهاء أنها ناسخة لها هي المنسوخة لأنها لم تعد متكيفة مع قيم عصرنا ومعاصرينا التي ترفض التمييز الديني والنرجسية الدينية والمركزية الاثنية ؛ تعويض تسمية "الكفار"، التمييزية، بغير المسلمين

ورد الاعتبار لهم يحرر الشعور واللاشعور الجمعيين الإسلاميين من جنون "وجوب مخالفة الكفار" الكارثية في مأكلهم وملبسهم وعلومهم وقيمهم ومؤسساتهم التي جعلت المجتمعات العربية دائماً في حاجة إلي فتوى تحلل القليل الذي تقتبسه من حداثة "الكافر" حتى صنبور المياه الذي كفره فقهاء الشافعية أضطر محمد علي لالتماس فتوى تبيحه من فقهاء الحنفية ولذلك تسمي ب "الحنفية" حتي يستسيغه الوعي الإسلامي المسكون بهوس مخالفة الكفار ومازالت مأساة التماس السلطة السياسية للفتاوى من السلطة الدينية مستمرة حتى اليوم ! التسمر العصابي في هذا الهوس اليوم انتحار في عالم معولم واقتصاد متدامج وثورة اتصالات، اختزلت بعدي الزمان والمكان، ومناطق تبادل حر و شراكات إقليمية ودولية تبشر بمواطنة عالمية تبدو ضرورية أكثر فأكثر.

4 - مكافحة الانفجار السكاني الكارثي الذي يحكم بالإعدام علي كل جهد تنموي والذي يشجعه التعليم الظلامي.

5 - مكافحة عداء المرأة العميق في النفسية البشرية والأكثر عمقاً في النفسية الإسلامية في جميع مظاهره من جريمة الختان والرجم وفرض النقاب والحجاب بالسجن والجلد كما في الجمهورية الإسلامية الإيرانية أو بالاغتصاب النفسي كما تفعل حركات الإسلام الجهادي.

6 - إصلاح الإسلام، عبر إصلاح مناهج التعليم الديني، خاصة بالعودة إلي القراءة التاريخية للنص لإبراز تاريخيته وبالتالي نسبية أحكامه زماناً ومكاناً. وهذه القراءة التي دشنها القرآن نفسه بالناسخ والمنسوخ واصلها الصحابة بعد موت النبي فعلقوا حد السرقة عام الرمادة ونسخوا حكم آية المؤلفة قلوبهم وآية الفيئ وبعدهم بقرون واصل الفقهاء هذه القراءة فنسخوا حكم آية وجوب كتابة العقود لإثبات الدين كما نسخوا حديث تحريم الزكاة علي أهل البيت حفاظاً لكرامتهم عندما أصبحت الزكاة أحفظ لكرامتهم من التسول في الطرقات كما يقول الفقيه الونشريسي. تدريس كتاب محمد أركون "قراءات في القرآن"، ترجمة هاشم صالح، وكتاب فراس السواح "مغامرة العقل الأولي : دراسة في الأسطورة" يقدمان أدوات معرفية جديدة تساعد علي توسيع وتعميق هذه القراءة التاريخية الضرورية اليوم لتحديث الإسلام بعد أن فشلت طوال قرنين محاولات أسلمة الحداثة.

7 - تدريس مادة حقوق الإنسان كما في تونس لتحرير الوعي الإسلامي من قيمتي الحلال والحرام وتعميره بالقيم الإنسانية الكونية حتى تكون ذهنية مسلم الغد وقيمه متطابقة مع ذهنية وقيم معاصريه.

8 - مكافحة الموضوعين المركزيين في التعليم الديني الظلامي الذي جعل من الولاء الحصري للأمة الإسلامية والعودة إلي الخلافة الإسلامية وتكفير الوطن والدولة - الأمة واجباً دينياً. لذا يحسن التركيز علي الوطن الحديث والدولة الأمة كما فعل الطهطاوي عندما استخدم مصطلح "الأمة المصرية". حسبنا إلقاء نظرة علي سجل من خططوا للعمليات الانتحارية أو شاركوا فيها ليتضح أنهم جاهدوا في أفغانستان ثم في البوسنة ثم في الشيشان ثم في نيويورك وواشنطن وأخيراً في.. الرياض والدار البيضاء. في الواقع كانوا منطقيين مع المخيال الجهادي العتيق الذي رعاه فيهم التعليم الظلامي ومع التضامن الديني التلقائي، وريث التضامن القبلي : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، الذي لقنهم إياه بدلاً من التضامن المفكر فيه دفاعاً عن قيم إنسانية مهددة بالانتهاك. تدريس كتاب علي عبد الرازق "الإسلام وأصول الحكم" ضروري للشفاء من الحنين إلي الخلافة ومخيالها الجهادى. وبدلاً من الوحدة الإسلامية يقع التركيز علي إقامة مناطق تبادل حر ومشاريع

بنية تحتية مشتركة تمهيداً لسوق عربية مشتركة والاندماج في الشراكة المتوسطية. لا شيء أنجع في مكافحة المهام الوهمية من استحضار المهام الحقيقية التي غيبتها.

تجربة التعليم التنويري التي دشنتها تونس في 1990 ظلت معزولة. وها هو المغرب يتأهب اليوم للالتحاق بها :

"البرنامج الوطني، يقول الوزير المغربي لحقوق الإنسان، محمد أوجار، للتربية بحقوق الإنسان أصبح يكتسي طابعاً إستراتيجياً بعد وقوع الاعتداءات الإرهابية في الدار البيضاء لأنه مع مساءلتنا لهذه الاعتداءات وبحثنا عن الأجوبة المناسبة للرد عليها ينبغي أن ننتبه إلي أن هناك أفكاراً ظلامية اخترقت جسمنا التعليمي والمناهج الدراسية في المؤسسة التعليمية" (الأحداث المغربية 2003/6/10).

إذا استطاعت النخبة السعودية التحرر من إرتهانها للتعصب الوهابي، الذي بات بعد جريمة الرياض وما تلاها ممقوتاً شعبياً، فستستخلص بدورها نفس الدرس الذي إستخلصته النخبة المغربية بعد جريمة الدار البيضاء وعندئذ ستقرع أجراس التعليم الظلامي الجهادي في العالم العربي كله وسيكون ذلك مؤشراً قوياً علي أن غريزة الحياة انتصرت علي غريزة الموت لدي قطاع حاسم من نخب وسكان هذا العالم.

"الثقافة العربية بين تحديات الحاضر وآفاق المستقبل : نحو خطاب ثقافي جديد"
مداخلة في مؤتمر المجلس الأعلى للثقافة 1-2003/7/3 بالقاهرة.
("الراية")

رهانات التعليم الديني التنويري ثلاثة
رد الاعتبار للآخر وللمرأة وللعقل

طالبت بإغلاق جامعة الزيتونة سنة 1956، لأنها "كانت تغسل عقول طلبتها بالفقه القديم". في رأيك، ألا ينطبق هذا على الفقه والفكر الذي تنشره الجامعات الإسلامية التقليدية كجامع الأزهر والقرويين وغيرها؟

مؤسسات التعليم الديني التي لم تجدد المواد التي تعلمها لطلبتها ولم تجدد طريقة تعليم المواد القديمة بامكاني أن اتهمها بتهمة غسل أدمغة طلبتها بفقه القرون الوسطى بكل ما تحمله من الأوهام والأحكام المسبقة ضد المرأة وغير المسلم والعقل التي سادت في هذه العصور. من السخف تجريم هذه العصور، فقد كانت منطقية مع نفسها، لكن من الإجرام في حق مستقبلنا ومستقبل أبنائنا تقديم ثقافة القرون الوسطى الدينية اليوم في مدارسنا وجامعاتنا كحقائق عابرة للتاريخ كما لوأنه لم يجد أي جديد في ميدان الفكر الديني وفهم الظاهرة الدينية منذ عشرة أو سبعة قرون، هل بإمكان مسلم عاقل أن يتصور أن أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن القاسم وسحنون فضلا عن الونشر سي ونجم الدين الطوخي والشاطبي لوبقو أحياء لكسروا أقلامهم وخاطوا أفواههم قائلين : لنا حسبكم ما قلناه لكم قبل قرون وبعد ذلك لاجديد تحت الشمس.

ماهي هذه المواد الجديدة المطلوبة للتدريس؟

إبن عباس نصح بالرجوع إلى الشعر الجاهلي لفهم القرآن فهما حديثا يحرر الوعي الإسلامي من مخاوفه اللاعقلانية من "الكفار وحداثتهم" إلا إذا علمناه لأبنائنا بعلوم الحداثة التي تدرس بها الظاهرة الدينية في جامعات ومعاهد للعالم. من هذه العلوم الضرورية جدا لفهم الظاهرة الدينية تاريخ الأديان المقارن وسوسيولوجيا الأديان وعلم النفس والألسنية مثلا لاحصرا. دراسة تراثنا الديني بهذه العلوم يحرر وعينا الإسلامي من سلطة النص التي لاتقبل السؤال "سمعنا وأطعنا" وأرسلنا عقولنا في إجازة طويلة كليل بلا آخر. تنفيذ الارنابيين لفتوى إهدار الدماء دون أدنى نقاش إحدى ثمار ثقافة الطاعة العمياء لسلطة النص. لعلك تذكر أن الاسلامي الذي نفذ فتوى عمر عبد الرحمان في فرج فودة سأله القاضي لماذا قتلته؟ أجابه لأنه علماني فسأله وما معنى علماني؟ أجابه لاأعرف. حسبه أن المفتي يعرف أما هو فالة صماء لتنفيذ الفتاوى. وعندما سأل القاضي الكاتب الإسلامي المعروف محمد الغزالي، الذي حضر المحاكمة كشاهد، عن عقاب قاتل فرج فودة أجابه لاعقاب له لأنه نفذ في القتيل حد الردة الذي تقاعس الإمام عن تنفيذه وعندئذ صرخ القاتل "الآن أموت وضميري مرتاح".

روج فهمي هويدي لحيلة قائلة بأن فتاوى إهدار الدماء لاتصدر إلا عن ''شبان لم تساعدهم دراستهم على التعمق في الدين''. والخلاصة أن المناهج الدينية التي لاتسمح لطلبتها بالدراسة الكافية للدين هي المسؤولة عن الإرهاب. وإذا كنتم تريدون التخلص من العنف الديني ضاعفوا ساعات التعليم الديني. ابتلع الجميع تقريبا طعم هذا الخطاب المحرض على توسيع دائرة فاعلي وجمهور الإرهاب باسم الإسلام، فبتنا نقرأ في الصحافة المعتدلة ''الارهابي'' أصدر فتوى رغم أن مستوى دراسته الدينية لايؤهله لإصدار الفتاوى، وهذا خطأ جسيم لإنه يعني إمكانية إضفاء الشرعية على فتاوي العنف إذا كان مصدرها ''مؤهلا دينيا'' وتأكيد ضمني لمغالطة أن التعمق في دراسة الدين يحصن صاحبه من التورط في الإرهاب.''شيخ الإسلام'' ابن تيمية الذي أصدر ''الفتاوى'' الشهيرة التي كفر فيها المعتزلة والفلاسفة والمتصوفة والأشاعرة بمن فيهم فيلسوفهم أبي حامد الغزالي والشيعة الذين أفتى بأن ''من شك في كفرهم فقد كفر''.. هذه الفتاوى التي هي اليوم مصدر لفتوى القاعدة وغيرها من ''قواعد'' الإرهاب الديني فهل كان ''شيخ الإسلام'' يشكو من نقص في المعلومات الدينية أم كان يشكو من فائض فيها مرفوق بفائض من التعصب والسادية والحقد الدفين على ثقافة الاختلاف والعقل والحياة والأحياء؟ هل عمر عبد الرحمان الحاصل على دكتوراه في علوم الشريعة من الأزهر والذي أفتى بتكفير محمد عبد الوهاب وقتل فرج فودة وهجيب محفوظ والسادات وتفجير مركز التجارة العالمي والمحكوم عليه بالمؤبد من أجل الإرهاب ينقصه التكوين الديني؟ وهل محمد الغزالي القيادي في الإخوان المسلمين والمؤلف لعشرات الكتب الدينية التي تعتبر مرجعا لاغنى عنه تنقصه المعارف الإسلامية عندما طالب بإطلاق سراح قتلة فرج فودة لأنهم نفذوا حد الردة فيه؟ وهل حسن الترابي الذي أفتى بشنق المتصوف محمد محمود طه ينقصه التكوين الديني؟ وهل يوسف القرضاوي الذي كفر الروائي حيدر حيدر وكفر أيضا قراء نعم قراء- روايته ''وليمة لأعشاب البحر'' كما قضى بالردة على الشاعر التونسي أولاد أحمد من أجل قصيدة جاهل بأحكام الشريعة؟ وهل راشد الغنوشي الذي يرأس تنظيمه الإسلامي منذ أكثر من 30 عاما. الذي أفتى بشرعية قتل السادات ووجوب قتل جميع الحكام المسلمين لأنهم ''لم يعودوا منا'' بل هم ''متمردون على شريعة الرحمان وإرادة الشعب وهم في الحقيقة أولياء الشيطان وأذناب أعداء الإسلام''(الحريات العامة في الدولة الإسلامية ص 183 ، بيروت 1993) ينقصه هو أيضا ''التكوين الديني الصحيح'' ؟

في الواقع ما ينقص فقهاء الإرهاب هو عقلانية العلوم الحديثة المتخصصة في دراسة الظاهرة الدينية عندما كانوا على مقاعد الدراسة قبل أن يتجذر تعصبهم وساديتهم الدموية. ولو درسوا الدين بمساعدة العلوم الإنسانية الحديثة لحررتهم من وهم الحقيقة الدينية المطلقة أي من التعصب الديني الذي هو ينبوع الإرهاب الديني.

قال وزير التعليم الديني السابق محمد الشرفي من قرأ فولتر لن يكون متعصبا، شخصيا لست متأكدا من ذلك تماما، لكني أراهن على أن الأغلبية الساحقة ممن سيدرسون الدين بتاريخ الأديان المقارن والسوسيولوجية الدينية وعلم النفس والألسنية إلخ، لن يكرروا تفجيرات الدار البيضاء ولا جدة، ولانيويورك وواشنطن ولن يذبحوا الأطفال ويبقروا بطون الحوامل في الجزائر ولن يغرسوا سكينا في رقبة نجيب محفوظ.

كيف تقي هذه العلوم دارسيها من التعصب؟

لانها تنزل الظاهرة الدينية في التاريخ فتحولها من حقيقة مطلقة لايرقى إليها الهمس إلى حقيقة نسبية خاضعة لمتطلبات الزمان والمكان والنسبية الدينية هي ترقيات التعصب.

ولأنها فضلا عن ذلك تزيح اللثام عن أسرارها وألغازها فلا تعود مستعصبة على التحليل العقلاني، التاريخي، السوسيولوجي النفسي، اللغوي أو الانتروبولوجي أو الفلسفي، وبالتالي عن النقاش البرهاني. والتعصب كما لاحظ فيلسوف فرنسي معاصر غير ممكن في المجالات التي يكون فيها البرهان ممكنا. لذلك لاوجود للتعصب في الرياضيات والفيزياء، كما قال. هذه العلوم والمعارف الإنسانية تجعل الظاهرة الدينية في متناول العقل، وثانيا قابلة للقراءات العلمية لتحليل خط تطورها ووظائفها الاجتماعية والنفسية والثقافية..أما القراءة التعبدية، الإيمانية القديمة فهي ليست عقيمة معرفيا وحسب، بل هي أيضا منتجة لليقين الديني الأعمى إذن، لرفض العقل والحداثة واستحلال الجهاد والاستشهاد لمقاومتها. إعتبار التشريع الوضعي والدستور شركا بالله والديموقراطية كفرا وحقوق الإنسان ضلالا مبينا..منطقي تماما بمنطق فقه القرون الوسطى لكنه لن يكون منطقيا، بل ربما لن يكون موجودا أصلا بفقه التعليم الديني التنويري الذي أدعوا إليه والمؤطر بالعلوم المذكورة، مثلا تاريخ الأديان المقارن الذي اقترح تدريسه في الثانوي والعالي، يساعد التلميذ والطالب على فهم تطور ظاهرة التدين وتلاقح وتناسل المعتقدات من بعضها البعض حتى ليبدو كل منها كحلقة في سلسلة منذ المعتقدات الأسطورية فالوثنية فالتوحيدية. في إطار هذه الإضاءة التطورية التاريخية المقارنة لاتعود ظاهرة التدين طلسما مغلقا على الفهم يسمح للفقهاء وتجار الدين بالادعاء بأن العقل قاصر أمامها لايستطيع تحليلها لأنها معجزة ربانية تتعالى على الفهم العقلي لاينفع معها إلا إيمان العجائز والتسليم الأعمى "سمعنا وأطعنا" عندما يعرف التلميذ والطالب مثلا أن قصة آدم وخلق الكون وطوفان نوح قوم لوط لم تظهر في سفر التكوين التوازني ثم في القرآن فجأة بدون مقدمات بل ظهرت قبلهما في الأساطير التوارتي ثم في القرآن فجأة بدون مقدمات بل ظهرت قبلهما في الأساطيير السومرية والديانة البابلية الوثنية بقرون فإنه لايعود ثمة مجال في رأسه للقراءة التعبدية، أي الإيمانية واللاعقلانية للنص الديني بل لايعود ثمة من مجال إلا لقراءة عقلانية تاريخية مستنيرة بحقائق العلم والتاريخ مفتوحة على النقاش البرهانية وعلى التأويل العقلاني المستبعدين تعريفا للتعصب الذي هو حاضنة الإرهاب.

يكف انتقلت الأساطير السومرية والديانة الوثنية البابلية إلى اليهودية؟

خلال السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد وطوال سبعين عاما ترجم أحبار اليهود-كانوا آنذاك يسمعون بالعبرانيين-قصة خلق آدم من أسطورة سومرية تسميه "أدبا" أي الرجل الصلصالي لأنه خلق من صلصال وأسموه في العبرية آدم واشتقاقا من أديم الأرض، وهو المعنى نفسه له في القرآن.. وترجموا قصة خلق العالم في سبعة أيام وقصة طوفان نوح من ملحمة جلجامش إلخ. الخلاصة انه مع هذا الفهم التاريخي المقارن للنصوص الدينية تتلاشى سلطة النص فلا يعود التمرد على قوانين العقل وقوانين المجتمع ممكنا، جرائم 16 ماي في الدار البيضاء هي جرائم سلطة النص، جرائم اليقين الديني الاعمى، جرائم التعليم الديني الظلامي والاعلام الديني الظلامي الدي تخصص فيه "حزب العدالة والتنمية" خاصة فيما يخص التحريض على عداء المرأة خلال مناقشة مشروع إدماج المرأة في التنمية الدي قتلوه في المهد. أقسى صفعة للارهاب هي نشر هذا المشروع كما هو اليوم.

السوسيولوجيا الدينية تعلمه مثلا كيف يستخدم الفاعلون الاجتماعيون السياسيون والدينيون الدين لخدمة مصالحهم التي لاعلاقة لها في الواقع بالدين. نعرف مثلا أن إمام دار الهجرة، مالك ابن أنس، تسلح بهذه الحقيقة السوسيولوجية الدينية فلم يرو في "الموطأ" إلا 300 حديث ولم يعتمد منها إلا القليل لعلمه أن الفرق الاسلامية المتنافسة أو المتناحرة وضعت

الأحاديث لاستخدامها لتغدو سلطة نص فوق المساءلة. أبو حنيفة صاحب فقه الرأي، أدرك هو الآخر بحسه النقدي هذه الحقيقة السوسيولوجية فلم يعتمد في "مسنده" إلا بضعة أحاديث معطيا الأولوية في استنباط الاحكام الفقهية للرأي والقياس. لكن أحمد بن حنبل المتأخر عنهما تعامى عن تلك الحقيقة فملأ مسنده بـ 55 ألف حديث ظاهرة الوضع والتزوير لكن الحنابلة اعتمدوها بالامس لتكفير شرائح بكاملها من المسلمين ومازال الوهابيون وحركات الاسلام الظلامي تتخذها مرجعا لتكفير المجتمعات المسلمة المعاصرة.

علم النفس يعلم التلميذ والطالب أن الدين يلبي حاجتين أساسيتين في النفس البشرية هما الحاجة الى الحماية الأبوية والحاجة النرجسية الى الخلود. ويعلمه ان تجذر هاتين الحاجتين النفسيتين جعل الدين متجذرا في النفسية الانسانية. الله في اللاشعور هو رمز الأب الحامي. الانسان الهش نفسيا واجتماعيا يلوذ أمام مصائب الحياة برب - أب رؤوف رحيم ليحميه منها ويعزيه عنها بعد وقوعها. لاشعور الانسان مبرمج للخلود لا للموت، عندما كنت في بداية المراهقة كنت أراهن على أن يكتشف الطب في حياتي دواء يجعلني أعيش 300 عام، أما الآن فتحقيق مثل هذا الاكتشاف يخيفني. طالما الموت واقعة لامفر منها فإن الخلود بعد الموت يسهل إلى حد ما قبولها باعتبارها قوسين زائلين. يفسر فرويد عدم انتشار اليهودية بعدم تلبيتها لهذه الرغبة النرجسية العميقة في الخلود، لأنها لا تعد معتنقيها بحياة أخرى بعد الموت، وهكذا فالدين يساعد الانسان على إعطاء حياته معنى بعد الموت وبالتالي تجعل الموت وأرزاء الحياة محتملة. الفلسفة بدورها تساعد الانسان على إعطاء حياته معنى في الحياة بالتطابق مع القيم الانسانية. وحدهما الدين والفلسفة يعطي كل منهما للوجود معنى. كما الفلسفة والعلوم الانسانية تعلم التلميذ والطالب الفكر النقدي، أي مساءلة المسلمات غير الرياضية عن إثبات شرعيتها العقلانية أمام محكمة العقل، ساحة البرهان بامتياز، ساحة النقاش المتعارض والحوار وكلها ترياق التعصب والعنف.

هل تدرس الجامعة الزيتونية في تونس هذه العلوم ؟

نعم تدرسها جميعا. السوسيولوجيا الدينية وعلم النفس والالسنية وتاريخ الاديان المقارن، كتاب فراس السواح : "مغامرة العقل الأولى : دراسة في الاسطورة" (دار كنعان دمشق) المصدر الاساسي لدرس تاريخ الاديان المقارن في الزيتونة، الفلسفة تدرس في السنوات الأربع. كما تدرس في الثانوي في السنتين النهائيتين، من التعليم الثانوي. والبرنامج ترجمة للبرنامج الفرنسي، كما تدرس الفلسفة في جميع الاختصاصات المهنية والعلمية بما فيها الطب بسنواته الست لتدريب التلامذة والطلبة على اكتساب المرونة الذهنية والفكر النقدي وملكة البرهان. خلو التعليم المهني والعلمي من الفلسفة والعلوم الانسانية في البلدان العربية والاسلامية الأخرى جعلها مشكلة للحركات الاسلامية الظلامية، مثلا رابح كبير، ممثل الجبهة الاسلامية للإنقاذ في ألمانيا، فزيائي وغالبيى كوادرها مهندسون، بن لاذن مهندس في الكميوتر وأيمن الظواهري طبيب... أبو أحمد عبد السلام، أول مسلم حائز على جائزة نوبل في الفزياء، ينتمي الى "الزاوية الاحمدية" التي تقدس نبيا خاصا بها هو "أحمد" لهذا كان ممنوعا من الدخول إلى السعودية بتهمة "الردة" وكان يكرس ست ساعات يوميا لشؤون الزاوية ونصف مرتبه وكل ما حصل عليه من جائزة نوبل، وكم حاول إدخالي في دينه.

وهكذا فتدريس العلوم الانسانية والفلسفة الغربية وتحديث الاعلام الديني وخطبة الجمعة

وغيرها من المناشط الدينية وتحديث قوانين الاحوال الشخصية هي الرد الناجع في المديين المتوسط والبعيد على الحركات المعادية للعقل باسم الاسلام. أما القمع فلايجدي إلا على المدى القصير، وشرط أن يكون إجراء ظرفيا وفي إطار القانون وحقوق الانسان، لكنه إذا لم يكن عنصرا ثانويا في كل اصلاحي متكامل وكان كل شيء، فانه مفيد جدا لهذه الحركات العنيفة ذات البنية النفسية السادية-المازوخية والمهووسة بالشهادة أي بالنحر والانتحار. فحذار حذار من القمع الاعمى الذي يحول الارهابيين الاسلاميين الى شهداء ويخلد قضيتهم كما قال ماركـــــــس.

الجامعة الزيتونية هي إذن الوحيدة التي لاتغسل أدمغة تلامذتها بالفقه القديم ضدا على الازهر والقرويين ؟

تماما، لذلك ظل التعليم الديني الظلامي مشتلة لتخريج فقهاء ومنفذي الارهاب. إليك مثلين أحدهما من المدرسة الازهرية المصرية والآخر من المدرسة الوهابية السعودية. ''المعاهد الأزهرية'' أي المدارس الدينية التابعة للأزهر مازالت تغسل أدمغة تلامذتها من الابتدائي الى الثانوية العامة (الباكالوريا) بالفقه القديم المعادي للمرأة ولغير المسلم وللعقل وغرائز الحياة الجميلة، لتغذي فيهم غريزة الموت والسادية الدموية والميكروفاشية اللصيقة بالنفس البشرية تماما كما تفعل المؤسسة الدينية في معظم البلدان العربية التي غدت متخصصة في إنتاج وإعادة إنتاج التعصب الديني.

يدرس تلامذة المعاهد الازهرية في السنة الاولى والثانية والثالثة ثانوي (الادبي والعلمي) في مادة الفقه كتاب ''الاقناع في ألفاظ أبي شجاع'' تأليف شمس الدين محمد بن أحمد الربيني، الخطيب الشافعي المتوفى سنة (550هـ) منذ حوالي عشرة قرون، فماذا يدرسون فيه ؟ كل ماكان مطابقا للوعي الديني آنذاك، والذي يعد مطابقا له في القرن الحادي والعشرين. يقرأون مثلا وجوب إقامة الحد على المخمور والسارق والزانية والمرتد وتارك الصلاة رغم أن هذه الحدود لاوجود لها في القانون اليوم. الفجوة بين وعي التلامذة الديني والواقع المعيش يملؤنها بتكفير الدولة والمجتمع ''المتمردين على شريعة الرحمان'' كما يقول الغنوشي. وهذا أقصر الطرق لتمكين حركات الإسلام الظلامي من إقناع هؤلاء الطلبة بكفر الدولة والمجتمع التي تقاعست عن تطبيق حدود الله وحقوقه على عباده أي العبادات : يقول الكتاب مثلا في باب حكم تارك الصلاة على ضربين : أحدهما أن يتركها غير معتقد بوجوبها، فحكمه المترد والثاني أن يتركها كسلا معتقدا بوجوبها، فيستتاب، فإن تاب وصل وإلا قتل حدا وكان حكمه حكم المسلمين، الاقناع ج3 ص240 الصف الثالث ثانوي أما في الشرح فيقرأ المراهق المصري: ''إذا ترك الصلاة غير معتقد لوجوبها يقتل كفرا وتحرم الصلاة عليه ويدفن في مقابر المشركين. أما إذا تركها كسلا فيقتل حدا ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين''. التلميذ (15 و16 و17 عاما) الذي يغسل دماغه من قداسة الحياة البشرية التي هي الحق الأول في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي وقعت عليه مصر كيف لايغدو قاتلا بالقوة ينتظر أول فرصة سانحة ليصبح قاتلا بالفعل؟ خاصة وهو يرى حواليه ملايين المصريين من تاركي الصلاة ''كسلا'' لكن القضاء المصري المدني والشرعي لايحرك ساكنا لمحاكمتهم واستتابتهم قبل قتلهم؟ كيف لا ''يكفر عندئذ الدولة والمجتمع و''يخرج شاهرا على الناس سيف الإرهاب''؟

المثل الثاني من المدرسة الوهابية السعودية المتخصصة في التحريض على الإقصاء والتفكير والعنف واراقة الدماء، في كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب لتلامذة الصف الأول متوسط فبماذا يغسل هذا الكتاب ادمغة ملايين التلاميذ الذين تتراوح اعمارهم بين

11 و12 عاما ؟ : ''الأديان التي يتبعها الناس ويخضعون لها فهي باطلة، قال تعالى ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه'' ... ويقول أيضا : ''العالم من جن وإنس يجب عليه أن يدخل في دين الاسلام ويترك اديانه الباطلة وإلا فإن مصيره النار قال (ص) : ''والذي نفس محمد بيده لايسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار'' (رواه مسلم) (نفس المصدر ص 34).

من يُغسل دماغه بمثل هذا الإقصاء والتعصب والكراهية لغير المسلم، اليهودي والنصراني، كيف لايكون عضوا في القاعدة أو نصيرا لها ؟ يجب أن تحدث معجزة لكي لايقع ذلك.

ماهو التعليم التنويري البديل الذي تدعو العالم العربي إلى تبنيه ؟

أولا وباختصار هو التعليم المطبق في تونس منذ 1990، وتونس بلد عربي ومسلم ولا تقع في المريخ، وبإمكان خبراء التربية وصانع القرار التربوي في دول الجامعة أن يطلعوا على المناهج التونسية ويدرسوا التجربة والصعاب التي واجهتها في البداية، خاصة مسألة الكادر التعليمي المقتنع بالتعليم الديني الجديد أو القادر على تدريسه، وكيف تغلبت عليها إلخ..

ثانيا، مشروعي للتعليم التنويري يقوم على ثلاثة رهانات كبرى : رد الاعتبار للآخر، خاصة اليهودي والمسيحي، ورد الاعتبار للمرأة إذن للمواطنة الحديثة ورد الاعتبار للعقل، إذن للحداثة بما هي انتصار العقل على النقل، وللعلمانية على الثيوقراطية وللديمقراطية على الأتوقراطية.

رد الاعتبار للآخر، للـ ''كافر'' بلغة التعليم الظلامي السائد، رهان على تحرير الوعي الاسلامي من العائق الديني الأول الذي أعاقه عن استقبال الحداثة بدون عقد ولا شعور بالذنب. ومازال يعوقه عن استبطان مؤسساتها وعلومها وقيمها.

نعرف من الدراسات الاتنولوجية أن وعي القبائل البدائية مسكون بالاثنية المركزية (النرجسية الجمعية) وبالسلفية (عبادة الأسلاف). الاثنية المركزية هي وهم القبيلة عن نفسها بان قيمها الخاصة هي قيم عامة، أي كونية صالحة لكل الناس وفي كل زمان ومكان. وهي النفي المطلق للحق في الإختلاف فدينها هو سيد الأديان ولغتها هي أم اللغات وتقاليدها هي سدرة منتهى الرقي، من هذه القناعة الساذجة تخرج النرجسية الدينية، أي التعصب والارهاب وتخرج العنصرية. السلفية أي عبادة الاسلاف تعبر عن نفسها في الوعي الفردي والجمعي البدائيين بالنفور الرهابي من كل جديد عن تقاليد الأسلاف. بعض القبائل البدائية تشرع، خلال الازمات في تنقية ثقافتها من العناصر المستوردة من الغرب وتقتل أعضاء القبيلة الذين أدخلوها كتكفير عن خطيئة الانحراف عن تقاليد السلف الصالح وكل سلف صالح، لأنها تؤمن بأن ابتعادها عن روح الأسلاف جعل البركة تختفي والأزمة تجيء ولامفر من ''العودة الى الينابيع''، الى الأصول والجذور والأسلاف لاسترضائهم. عبادة الأسلاف البدائية ليست إلا محاولة لاسترضائهم باتباع وصاياهم حرفيا : ''نجلس كما كانوا يجلسون ونأكل كما كانوا يأكلون ونقضي حاجاتنا البشرية كما كانوا يفعلون'' كما تقول إحدى القبائل البدائية الاسترالية. هل تختلف السلفية الوهابية عن هذه القبيلة المتوحشة في شيء ؟.

"مخالفة الكفار" خاصة في فقه الحروب الصليبية وكما استبطنها الحنابلة والوهابية المعاصرة والحركات الاسلامية الظلامية التي تماهت بهم فقهيا تندرج في منطق النرجسية الدينية وعبادة الاسلاف معا. كل انحراف عن عبادة الاسلاف بتبني مظهر من مظاهر حداثة "الكافر" يعتبر مصدر جميع الشرور ومجلبة لغضب السماء. اعتبر رجال الدين في تونس الجفاف الكبير الذي اعقب صدور قوانين الاحوال الشخصية في 1956 غضبا من اللـه على بورقيبة واعتبر الاخوان المسلمون زلزال القاهرة في التسعينيات احتجاجا على منع وزير التعليم للحجاب في المدارس واعتبر اسلاميو الجزائر الزلزال الاخير احتجاجا سماويا على "حزب فرنسا" بما ان حداثة "الكافر" اليوم في كل مكان وتتسلل من الابواب والنوافذ إلى "دار الاسلام" فقد تحول "وجوب مخالفة الكفار" إلى عقدة اضطهاد : "اليهود والصلبيون" يحاصرون دار الاسلام من الخارج وعملاؤهم من العلمانيين يعيثون فيها فسادا من الداخل والرد هو الارهاب.

هذه الثقافة الخائفة والمخيفة يغذيها التعليم والاعلام الدينيين وخطب الجمعة وكتابات الاسلام التقليدي والاسلام الظلامي والجهادي.

يقول راشد الغنوشي موضحا لبرنامج "نهضته" لتطبيق الحكم الإسلامي في تونس : "تطهير العالم من الكفر" و"توجهات الإسلام هي في الحرص على مخالفة الكفار حتى عد شيخ الإسلام (ابن تيمية) ذلك مقصدا من مقاصد الشريعة" (الحريات العامة في الدولة الاسلامية. ص 21 و25 بيروت 1993) ويؤكد أيمن الظواهري في كتاب "الفرسان تحت راية النبي" 2000 : تحرير فلسطين هدف ثانوي للقاعدة، ولكننا مضطرون لتبنيه لأن الجماهير لاتفهم، ولابد لها من وقت طويل لكي تفهم هدفنا الأساسي وهو "الولاء والبراء" أي "الولاء للمومنين والبراء من الكافرين ومعبوداتهم" ومؤسساتهم وعلومهم وخاصة الإنسانية وقيمهم العقلانية

إذا كانوا يكرهون "الكفار" و"دارهم" الى هذا الحد، فكيف سمحوا لأنفسهم باللجوء الى الغرب الكافر والمحارب للإسلام كما يزعمون ؟

استبطان "مخالفة الكفار" و"دار الحرب" جعل قادة الاسلام الظلامي وكؤادرهم الذين طلبوا اللجوء الى الغرب لايستقرون فيه الا اذا حصلوا على فتاوي ترخص لهم الاقامة فيه "اضطرارا"... فالمسلم لايحق له في فقه القرون الوسطى خاصة الحنبلي ان يسافر الى دار الكفر الا مضطرا او لإلحاق الاذى بها.

صدمة الاستعمار للوعي الاسلامي الذي استبطنه كعودة ظافرة للحروب الصليبية جعلته يتخلى عن القاعدة الفقهية القديمة القائلة "الاصل في الاشياء الإباحة مالم يرد نص صريح قطعي الدلالة يفيد التحريم" فأصبح الاصل في كل ما هو حديث، أي غربي التحريم الى ان تأتي فتوى، إذا أتت - تحلله : البرنيطة والحنيفية، التلفزيون، الديمقراطية، العلوم الدقيقة والعلوم الانسانية والمنطق والفلسفة إلخ.

كيف نعيد صياغة الوعي الاسلامي لفتحه على الحداثة التي هي اليوم بالنسبة لنا قضية حياة أو موت؟ برد الاعتبار لـ "الكفار" ولحداثتهم عبر التعليم والاعلام خاصة الدينيين وتبني القوانين الحديثة خاصة قوانين الحالة الشخصية والدساتير الحديثة وحقوق الانسان ومعايير السلوكيات الحديثة. امبراطور اليابان المستنير هوستو هيتو فاجأ حاشيته أثناء مأدبة في 1868 وهو يستخدم الشوكة الغربية بدلا من العيدان التقليدية اليابانية ويستمع

إلى كونسرتو غربي بدلا من الموسيقى اليابانية التقليدية. عندما نزع الملك محمد الخامس في 1956 الحجاب عن وجه ابنته أمام الملأ وعندما ترجل بورقيبة من سيارته في نفس التاريخ ونزع بلطف أبوي الحجاب عن وجه فتاة جميلة في مسقط رأسه المنستير قائلا : ''وجهك جميل فلما إذن تغطينه بهذا الكفن؟'' كان هذان الزعيمان التارخيان يدشنان رمزيا المشروع الحداثي الذي اختاراه لشعبيهما، هل بإمكان زعماء اليوم أن يقوموا بلفتات رمزية وفعلية من هذا القبيل أم أن الحركات الاسلامية الظلامية قد مرت من هنا فارغمت الجميع على ممارسة الاسلاموية بدون إسلاميين؟

الرهان على مشروع مجتمعي الحداثة رائده والعقلانية منطلقه يتطلب إذن فتح الوعي الاسلامي المعاصر، الذي واصل التعليم والاعلام الدينيان وخطب الجمعة والفتاوي والدروس التحريضية في المساجد وكتب الدعاة كالقرضاوي إغلاقه على الحداثة، ذلك يقتضي من صانع القرار والمكونات الحديثة للمجتمع المدني العمل المدروس على إزالة انسداده النرجسية الدينية وعبادة الاسلاف من التعليم والاعلام والمنشط الدينية الأخرى من جهة وتكثيف التلاقح الثقافي مع البلدان الحديثة وخاصة الشركات العربية الاوروبية والعربية-الامريكية في جميع المجالات من الاقتصادي الى الثقافي.

بالتأكيد العولمة وثورة الاتصالات، عاملان رئيسيان للتلاقح الثقافي لكن تضييق الفجوة الهائلة بين الوعي التقليدي الاسلامي والوعي الكوني الحديث يتطلب تأطير هذا التلاقح بوعي لتكثيفه وتسريع وتائره. فبين الوعي الاسلامي الماضوي والوعي الديني المعاصر المتصالح مع قيم العقل سنوات ضوئية.

حققت الصين من التقدم الاقتصادي في عقدين ما حققته بريطانيا في قرنين اساسا بسبب النزع السريع لفتيل قنبلة الانفجار السكاني. هذا هو معيار الوتيرة التي يجب ان تتقدم بها مجتمعاتنا العربية المتأخرة جدا حتى بالقياس الى الصين المتخلفة.

رهان الرهانات هو تحديث التعليم بتبني البرنامج الفرنسي في الثانوي خاصة في الإنسانيات والفلسفة كما فعلت تونس، وتحديث التعليم الديني وتطهيره من النصوص الدينية التي ساهمت حتى الآن في سد الوعي الاسلامي في وجه الحداثة مثل نصوص النرجسية الدينية ونصوص عبادة الاسلاف والنصوص ''العلمية'' التي غدت عائقا لاستقبال واستبطان الحقائق العلمية الحديثة المنافسة لها والنصوص السجالية ضد ''الكفار''. لقد كان الشيخ رشيد رضا، رغم انتكاسة السلفية بعد صدمة إلغاء الخلافة في 1924 بعيد النظر بل ملهما عندما اقترح تفسير ''المنار'' فسخ أحكام ايات السيف باعتبارها مقتصرة على مشركي ويهود ونصارى فترة التوترات والحروب النبوية ضدهم. ومن الضروري، في المقابل، تدريس النصوص الدينية، التي تساعد على إزالة انسدادات الوعي الاسلامي وفتحه لاستقبال ةاستبطان مؤسسات وسلوكيات وعلوم وقيم الحداثة. وفي هذا المنظور أقترح على صناع وأصحاب القرار التربوي تدريس الآيات ''الاممية'' الثلاث في الابتدائي والمتوسط والثانوي والعالي لإزالة انسداد ثنائية الكفر والايمان ورد الاعتبار لـ ''الكافر'' الذي سوته هذه الآيات بالمسلم وست أديانه، ''الباطلة والمهلكة'' كما يزعم محمد بن عبد الوهاب، بالاسلام : ''إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا، إن اللـه يفصل بينهم يوم القيامة'' (17 الحج). وهكذا لا يعود الفصل بينهم، أي تصنيفهم الى من هم على الدين الحق ومن منهم على الدين ''الباطل'' شأنا عائدا للمسلمين بل يغدو شأنا خاصا باللـه وحده. وهكذا وضعت هذه الآية حدا لهوس التبشير والرغبة النرجسية-السادية في قيادة البشرية إلى ''الجنة

بالسلاسل" أي بـ -الجهاد والاستشهاد الى قيام الساعة" الذي تغسل به المدرسة الوهابية أدمغة صغار المسلمين داخل السعودية وخارجها. أما الآيتان الأخريتان اللتان أقرتا المساواة في الاجر عند اللـه وفي النجاة من "الخوف والحزن" في الدنيا بين المسلم وغير المسلم فهما : "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن باللـه واليوم الآخر وعمل صالحا فلم أجرهم عند ربهم" (62 البقرة) و"إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن باللـه واليوم الآخر وعمل صالحا فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون" (29 المائدة).

انسداد الانسدادات في الوعي الاسلامي، منذ دخلت الحضارة العربية الاسلامية في طور الانحطاط فتخلت عن العقلانية الدينية الاسلامية بانتصار الحنبلية وخاصة منذ الحروب الصليبية والذي يشكل عائقا دينيا كبيرا مستبطنا بعمق أعاق حتى الآن استقبال واستبطان حداثة "الكفر" هو "ثنائية الكفر والايمان" المانوية، الساذجة فكريا والعنصرية دينيا. المؤمن "المسلم" سليل خير أمة أخرجت للناس، مكتف بذاته، دينه سيد الاديان هو حق الحق وهي باطل الأباطيل والفقه، كدينه، في منتهى الكمال "لغة أهل الجنة" وكلاهما إذن في غنى عن الاصلاح والتطور والتجديد، أما الكافر فدينه "باطل ومهلك لصاحبه" ولغته لغة الانحلال ومؤسساته وقوانينه وعلومه وقيمه وضعية إذن وضعية وكافرة فهي إذن إحدى المنكرات مخالفتها وتغييرها ومحاربتها واجب ديني يثاب فاعله ويأثم تاركه. يقول راشد الغنوشي في معرض تعريف الدستور الذي ستحكم به الدولة الاسلامية في تونس والعالم الاسلامي، ستكون "محكومة بسلطة التشريع الاعلى الصدر عن اللـه و"تحتكم" إلى القرآن والسنة والتسليم بهما حد فاصل بين الكفر والايمان (الحريات العامة... ص 99).

الآيات الاممية الثلاث مدخل سديد وثمين لتطهير وعي الاجيال المسلمة الصاعدة من ثنائية الكفر والايمان. كما اقترح إبراز الآية 117 الاعراف وتفسير ابن عباس والرازي لها في الصفحة الأولى من كل كتاب مدرسي في التربية الدينية سواء أكانت مرصودة للتعليم العام أو للتعليم الديني لمساعدة وعي الأجيال الصاعدة على استبطانها بنفس القوة التي استبطن بها وعي ضحايا التعليم الديني الظلامي ثنائية الكفر والايمان "وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" يفسرها ابن عباس قائلا : "إن اللـه لا يعذب على الشرك بل على الظلم" ويقول الرازي "ماعامل الناس بعضهم على السداد والصلاح فان اللـه لايعذبهم ولو كانوا كفارا". وإرفاق هذين التفسيرين بقول المصلح التونسي الشيخ محمد بيرم الاول، "السياسة الشرعية هي مايكون الناس معه اقرب الى الاصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولانزل به وحي".

تدريس تاريخ الاديان المقارن في التربية الدينية سواء في التعليم العام أو الديني في الثانوي والعالي خاصة كتاب فراس السواح : "مغامرة العقل الاولى : دراسة في الاسطورة" وكتاب مؤرخ الاديان المقارن بروفسور الكوليج دو فرانس، جان بوطير و"بابل والكتاب المقدس" (دار كنعان، دمشق) قدم له كاتب هذه السطور بمدخل عن "المقاربة العلمية للظاهرة الدينية"، لحقن الوعي الاسلامي الغض بديناميك نظرية التطور الديني سواء في ما يتعلق بتناسل الديانات من بعضها البعض الذي يصل أحيانا إلى حد التماثل كما في حالة تلاقح اليهودية مع الديانتين المصرية والبابلية أو حالة تلاقح الاسلام مع الديانتين المسيحية واليهودية وخاصة هذه الاخيرة حتى ان مؤرخ الحضارات ارنولد توينبي اعتبر "الاسلام الديانة اليهودية الثانية" نظرا لكثرة تشابه وتماثل آيات وسور قرآنية مع آيات وإصحاحات توراتية. هكذا يعي المسلم واقع أن الديانات متلاقحة مع

بعضها البعض وليست ناسخة لبعضها البعض كما توهم الوعي الاسلامي التقليدي ومازال. والتقدم خطوة الى الامام بتوعية الوعي الاسلامي المعاصر بواقعة أخرى مهمة هي ان هذا التلاقح الديني تسارع اليوم الى درجة أن بعض الاخصائيين في تاريخ الاديان يتوقعون ان يولد في المستقبل دين تركيبي موحد على غرار المحاولة الجريئة والسابقة لأوانها التي حاولها امبراطور الهند، المغولي محمد أكبر، في القرن 16، بيد أن الدين التركيبي الموحد هذه المرة سيكون محصلة تلاقح ذاتي عضوي بين الديانات تصنعه ثورة الاتصالات والمتزج بين ساكنية الارض سواء بالسياحة أو بالهجرة.

تدريس الكتب الكفيلة بالاسهام في تجديد الفكر الاسلامي وفتح الوعي الاسىمي على الآخر وحداثته في التعليم الثانوي والعالي وتوفيرها في المكتبات الجامعية. اقترح هنا بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر : كتاب المؤرخ المصري عبادة عبد الرحمن "عهد عمر : نظرة جديدة"، كتب محمد اركون وخاصة "قراءة في القرآن"، كتب العروي وخاصة "العقل"، كتب فاطمة المرنيسي وخاصة "الحريم" كتب المستشار محمد سعيد العشماوي وخاصة "الحجاب"، كتب هشام جعيط وخاصة "الفتنة الكبرى"، كتب جمال البنا وخاصة "تجديد الفقه"، كتاب عبد الوهاب المؤدب "أمراض الاسلام" وكتاب فتحي سلامة "التحليل النفسي على محك الاسلام" كتاب قضل عبد الرحمن "ضرورة تحديث الاسلام"، كتابا مكسيم رودنسن ومكسيم غوركي "محمد"، وكتاب عبد الكريم خليل عن "الشريعة" وكتب قاسم أمين "تحرير المرأة" و"امرأتنا في الشرعة والمجتمع" للطاهر الحداد، وكتاب مصطفى التواتي "التعبير الديني عن الصراع الاجتماعي في الاسلام"، وكتاب علال الفاسي والطاهر عاشور "مقاصد الشريعة" وتفسير المنار.

تكثيف التبادل بين الاسلام العربي والاسلام الاوربي وخاصة الفرنسي العلماني مع الجمعيات الفرنسية الاسلامية العلمانية التي قبلت في قيادتها انطونيت صفير كممثل عن المسيحيين واقترح عليها قبول البير ميمي كممثل لليهود العرب، وايضا مع "الحركة الاسلامية الجديدة"، التي أنشأها منذ شهرين في فرنسا مفتي مرسيليا الفيلسوف والمجدد للفكر الاسلامي صهيب بن الشيخ والتي حدد لها اهدافا يتعرف كل المصلحين والمجددين للفكر الاسلامي عن انفسهم فيها : انقاذ الاسلام من استخدام حركات الاسلام الظلامي له، تكييف الاسلام مع الواقع الدولي، اعتماد الاجتهاد اساسا لتطوير الاسلام وتجديده، التصدي للحركات الظلامية الغريبة عن سماحة الاسلام، ضرورة تعايش جميع الديانات وحوارها. وفي هذا الاتجاه قال مفتي مرسيليا إن حركته تفتح ذراعيها لغير المسلمين للانخراط فيها... وللحركة فرع في الجزائر وسيكون لها قريبا فروع في المغرب وتونس والسعودية...

أصل الآن الى الرهانين الاخرين لمشروع التعليم الديني التنويري الذي اقترحه على نخب العالم العربي، السياسية والثقافية وهما :

رد الاعتبار للمرأة في الاعلام والتعليم الدينيين بإقصاء النصوص التي استبطنت دونيتها "ناقصة عقل ودين"، وأمرت بضربها واعتبرتها قاصرة أبدية يسوسها الرجل الى الابد ؟ إصدار قوانين أحوال شخصية على الطريقة التونسية وتدارك ثغرة القوانين التونسية، المساواة في الارث بين الرجل والمرأة. تدريس حقوق الانسان في جميع الفروع وفي جميع مراحل التعليم لتحصين وعي الاجيال الطالقة ضد انتهاكها والسكوت على انتهاكها وايضا لتحرير الوعي الاسلامي من قيمتي الحلال والحرام القديمتين اللتين عقمتاه متخصيبه بالقيم الانسانية.

رد الاعتبار للعقل الذي اعتبره التعليم الظلامي، كالمرأة قاصرا ابديا، باقصاء النصوص المعادية له من التعليم وإحياء العقلانية الدينية الاعتزالية والفلسفية وتعزيزها بالعقلانية الدينية الحديثة المتمثلة في الاختصاصات العلمية التي تدرس الظاهرة الدينية في معاهد وجامعات العالم.

ما مدى سلامة الدعوة القائمة على تأصيل مفاهيم ''العقلانية والتفكير والتجديد والاجتهاد'' من داخل الحقل الديني، عوض الاستناد الى فكر الانوار، خاصة أن تاريخنا شهد اجتهادات عدد من الفلاسفة والمفكرين أمثال المعتزلة، الذين أعطوا الاولوية للعقل، وقطعوا الطريق على فكر متحجر يرى في الاقتباس من الغرب أو تبني الافكار الانسانية التي انتج، كفر وخروج عن الدين ؟

العودة الى العقلانية الاعتزالية والفلسفية لن تكون منتجة إلا اذا كانت جزءا من كل هو عقلانية العلوم الانسانية المعاصرة، العقلانية الاسلامية قامت على التأويل العقلي للنص لأن اللـه كما قال ابن رشد، لايمكن ان يعطينا عقولا ويعطينا شرائع مخالفة لها. لكن التأويل للنص الدين لايغني عن دراسة النص من زوايا تاريخ الاديان المقارن، السوسيولوجيا الدينية وعلم النفس والالسنة إلخ، من دون الاضاءات التي تلقيها هذه المعارف، على النص بظل طلسما مغلقا على الفهم العقلاني والحال أن هدف العقلانية الدينية الحديثة هو جعل النص في متناول العقل. لا تستطيع ثقافتها وتعليمها، الذي هو العامل الاوللإعادة إنتاجها، أن يكونا مكتفيين بذاتهما، فتطهير ثقافة ما من الروافد الاجنبية هو حكم عليها بالاعدام لأن التلاقح الثقافي هو قانون تطور الثقافات مثلما قانون الانتخاب الطبيعي، هو قانون تطور الانواع الحية. لآداعي للخوف من اتهام الحركات الاسلامية الظلامية لنا بـ ''الكفر'' يجب أن تكون لنا شجاعة أفكارنا وقناعاتنا مهما كانت النتائج... كلما وصلني تهديد من الغنوشي أقول لنفسي : تعددت الاسباب والموت واحد.

تتحدث عن عوامل ثلاث اعتبرتها مفسرة لسؤال محير، يحاول ان يتبين أسباب لجوء النخب العربية الى تعليم أجيال المستقبل تعليما يتعارض مع مصالحها الموضوعية، من استيطان بعضها بهذا الاسلوب عن شرعية مفتقدة وافتقار بعضها لرؤية استراتيجية في المجال التربوي. وأتساءل الا يمكن ان تكون هذه النخب أنانية، فقد عايشنا في المغرب تجربة مثقفين ومفكرين يدرسون ابناءهم في مؤسسات تعليمية تابعة للبعثات الاجنبية فيما تبح أصواتهم في التجمعات واللقاءات التعبوية، وهي تدعو المواطنين الى تعليم ابنائها تعليما تقليديا حفاظا ''على الهوية'' ؟

القاسم المشترك بين جميع هذه النخب السياسية والفكرية هو الجبن السياسي والفكري. لذلك وغيره من الاسباب فهي عاجزة عن المبادرة الخلاقة وأكثر عجزا عن حل أزمتها. لذلك هي لم تعد تفكر في مستقبل نظامها بل في مستقبلها الخاص، وهذا أحد أسباب فسادها المالي. قادة الحركات الاسلامية مصابون بانفصام الشخصية المتمثل في سياسة الوجهين وبما هم سياسيون -لاسياسيون عقلانيون- فإن وسيلتهم لخداع الجمهور هي الشعارات الشعبوية السهلة جدا، مثلا عباس مدني كان في الثمانينيات يغرغر شعار التعريب الفوري لكن عندما واجهه أحدهم في ندوة صحفية بواقعة أن ابنيه يدرسان في مدرسة البعثة الفرنسية... تلعثم.

أرجو أن تعذر أسئلة صحفي الاهرام العربي الذي استغرب تزامن دعوتك للاصلاح

الديني في البلاد العربية مع الدعوة الامريكية في الموضوع، ناسيا أنك دعوت إلى إغلاق جامعة الزيتونة سنة 1956، وتعذر ايضا استغرابي دعوتك لإغلاق هذه الجامعة في سنة 1956، لما كانت الكثير من الدول العربية والاسلامية تبحث عن وسيلة للتخلص من الاستعمار، الذي لم يكن يواجهها فقط بفكر الانوار، مستعينة في حشد عزائم الناس بالخطاب الديني. فالاستغراب هنا ليس بالضرورة نابعا من "اثنية مركزية أو نرجسية جمعية" تعتبر نفسها النموذج الذي يقلده الآخرون.

عندما طالبت بغلقها كانت تونس مستقلة، والذي أغلقها، ربما استجابة لندائي، هو أب تونس الحديثة بورقيبة. استخدام الجهاد ضد "الكافر" في تحرير الجزائر هو احد الاسباب التي أوصلتها إلى حيث الآن : أغنى بلد مغاربي بالموارد الطبيعية والبشرية وأكثر بؤسا واهتزازا للاستقرار. ومن غير المستبعد أن تعرف الدولة الفلسطينية إذا قامت مصيرا ربما اسوأ من المصير الجزائري لنفس السبب : فيتنام وإفريقيا الجنوبية لم تتحررا بالجهاد وهما أحسن حالا من البلدان العربية التي تحررت به.

شعارنا الاجدى تاريخا هو أن نتحدث مع جمهورنا بلغة الحقيقة حتى ولو لم يستسغها في البداية، لكن مادام خطابنا متطابقا مع المهام الحقيقية التي تطرحها الحقبة التاريخية.. فلابد للجمهور من أن يتقبله بعد أن ييأس من تجار الأوهام الدينية.

أجرى الحوار : المختار عماري
"الاحداث المغربية" - غشت 2003

اصلاح التعليم الديني أولوية ماسّة

باستثناء المدرسة التونسية حيث يتلقى التلميذ والطالب منذ بداية التسعينات تعليما دينيا تنويريا أي لا يسمّم وعي الأجيال الصاعدة الديني لا بعداء الحداثة ولا بعداء المرأة ولا بعداء العقل ولا بعداء العلوم الإنسانية ولا بعداء غير المسلم. أما في المدرسة الدينية في العالم العربي فسيتلقى عشرات الملايين من مواطني الغد تعليما تقليديا ظلاميا بدرجات متفاوتة يهيؤهم الى القطيعة مع مجتمعاتهم "ألجاهلية" التي إمتنعت عن تطبيق "شرع الله"، ومع عصرهم "الكافر والمنحل" الذي يواجهونه بموقفين مأساويين : الحنين الى "عصر الخلافة الراشدة الذهبي" وتعاطي الإرهاب كشكل عصري لأداء الفريضة الغائية : "الجهاد الى قيام الساعة" حتى يسود الإسلام العالم. هذه الصورة قطعا كاريكاتورية ولكنها ككل كاريكاتور تلقي أضواء كاشفة على العناصر المضحكة – المبكية في التعليم الديني السائد الذي ساهم بنصيب الأسد في تخريج فرقة كاملة من فقهاء الإرهاب المسلمين وغير المسلمين على امتداد العالم الإسلامي في العالم.

بصيص الأمل الوحيد في هذا النفق المظلم هو أن النخبتين السياسية والفكرية بدأتا تطرحان سؤال اصلاح التعليم على نفسيهما بدرجات متفاوتة من الاقتناع والوعي بضرورته. ومن السخرية التي يعرف التاريخ وحده سرّها أن نقل "القاعدة" إرهابها من الخارج الى الداخل : الى الدار البيضاء والرياض سرّح وعي المغاربة والسعوديين بضرورة اصلاح التعليم الديني وقوانين الاحوال الشخصية في البلدين، كحلقتين مركزيين في مشروع اصلاحي شامل الحداثة رائده والعقلانية منطلقُه. فبعد عمليات الدار البيضاء الانتحارية صرح وزير حقوق الانسان المغربي، محمد أوجارة "أن البرنامج التربوي بحقوق الإنسان أصبح يكتسي طابعا استراتيجيا بعد وقوع الاعتداءات الارهابية (...) لانه مع مساءلتنا لهذه الاعتداءات وبحثنا عن الاجوبة المناسبة للرد عليها انتبهنا الى ان هناك افكارا ظلامية اخترقت جسمنا التعليمي والمناهج الدراسية في المؤسسة التعليمية". واعطى ملك المغرب أمرا باصدار مدونة قوانين الاحوال الشخصية قبل نهاية الشهر الجاري. كما قدم وزير التعليم السعودي، محمد الرشيد، على خطوة رمزية "حذف باب البراء والولاء من مقرر التوحيد للصف الأول ثانوي"، لأن الولاء حصرا للمسلمين والبراء الكامل من "الكفار ومعبوداتهم" وتاليا حضارتهم هو النواة الصلبة لايديولوجيا الحركات الدينية الظلامية في جميع البلدان العربية. الخطوة السعودية الرمزية واعدة في الزخم الاصلاحي الجاري، بان تكون الخطوة الاولى في مسيرة الألف ميل لاصلاح التعليم والتعليم الديني وجميع قطاعات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية التي تتطلب اصلاحا عميقا ينقلها جميعا من القدامة الى الحداثة.

فما هي المهام الاساسية التي ينبغي على السائرين في طريق الاصلاح وخاصة اصلاح التعليم الديني في البلاد العربية أن يهتدوا بها؟

1- استلهام مناهج التعليم الديني التنويري التونسي التي قطعت شوطا مشكورا في القطيعة مع القراءتين التعبّدية والتقليدية اللاعقلانيتين واللاتاريخيتين للنص الديني لتستبد لهما تدريجيا بالقراءة التاريخية للنص التي دشنها القرآن نفسه بنسخ الآيات حينا واحكام الآيات حينا آخر عندما لا تعود متكيّفة مع المستجدات التاريخية وواصلها، بعد انقطاع الوحي، الصحابة (ابو بكر وعمر وعلي ومعاذ) فنسخوا أحكام آية المؤلفة قلوبهم وآية الفيء، ثم واصلها الفقهاء فنسخوا حكم آية وجوب كتابة عقد الديْن كما نسخوا حكم حديث تحريم الزكاة على آل البيت حفظا لكرامتهم. لكن لما اصبحوا في القرن التاسع الهجري ستسولون في الطرقات أفتى الفقيه المغربي المالكي أحمد الونشريسي (ت 914هـ) في كتابة "المعيار المُعْرب في فتاوي أفريقية والمغرب" باستحقاقهم للزكاة، عكس نص الحديث الذي استمر العمل به تسعة قرون. لان العبرة بمقاصد النص الديني لا بمنطوقه. حُرّمت الزكاة على آل البيت حفظا لكرامتهم. لكن بعد تسعة قرون اقتضت ظروف الزمان والمكان ان تكون الزكاة أحفظ لكرامتهم من التسول. نص فتواه "والوقتُ قاض بجواز إعطاء آل الرسول من مال الزكاة قسطا". ماذا تعني القراءة التاريخية للنص كما طبقها النبي والخلفاء والفقهاء من بعده؟ تعني أمرين متلازمين : أ) العبرة بمقاصد النص، مصلحة الناس، لا بفحوى النص، الحكم الشرعي؛ ب) إن النص الديني ليس مطلقا بل نسبيّ نسبية الزمان والمكان ومصالح الناس.

القراءة التاريخية المعاصرة للكتاب والسنة لا تكون اليوم خصبة حقا الا اذا تمت على ضوء علوم الحداثة التي تُدرس بها اليوم النصوص الدينية في العالم كله : تاريخ الأديان المقارن، سوسيولوجيا الأديان، علم النفس، الألسنية، الانتروبولوجيا، الهرمنوطيقا (علم التأويل)... فضلا عن فلسفة القيم التي هي اليوم المرجع الأساسي للقيم الإنسانية الكونية التي هي قِوام الأخلاق المعاصرة، أي حقوق الإنسان.

2- القطع في التعليم التنويري البديل، كما فعلت النخبة التونسية، مع عبادة الاسلاف البدائية (تقليد السلف الصالح حتى في الدخول للمسجد بالرجل اليمنى للمرحاض بالرجل اليسرى) والتركيز على تنمية التفكير الشخصي في النص يتحكم متطلبات الحياة فيه ضدا على التعليم الظلامي السائد الذي يُحكّم النص في الحياة جاعلا الإنسان في خدمة الدين بدلا من جعل الدين في خدمة الإنسان.

3- القطع مع تدريس الجهاد والاستشهاد العقيمين عسكريا وسياسيا واعلاميا وأخلاقيا في عالم اليوم الذي يعتبرهما إرهابا وجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

4- القطع مع نصوص عداء المرأة في حقبة بات فيها عدم دمج المرأة في التنمية حكما بالاعدام على هذه التنمية التي بها يكون العالم العربي أو لا يكون وبات فيها الاصرار العُصابي بل الذُهاني (الجنوني) على عدم مساواة المرأة بالرجل في الشهادة والارث والحقوق المدنية كافة هدرا وقحا لكرامة البشر وانتهاكا غير مقبول لجميع مواثيق حقوق الإنسان.

5- القطع مع حرمان المواطنين غير المسلمين من حقوق المواطنة وحظر اطلاق لفظ "الكافر" عليهم أو على غيرهم من ساكنة المعمورة واعتبار احكام الآيات التي تتحدث عن "الكفار" منسوخة تطبيقا للقراءة التاريخية للنص لانها تعد متكيفة مع مستجدات التاريخ : حقوق الإنسان والمواطن وتجريم العنصرية التي تعبر عن نفسها في التفكير

الظلامي السائد في النرجسية الدينية التي تجعل الاسلام سيد الاديان والمسلمين سادة البشر مثلما جعلت النازية المانيا فوق الجميع والعرق الآري فوق كل الأعراق.

6- كتابة تفسير ابن عباس لآية : "وما كان ربك ليُهلك القرى بظلم وأهلُها مصلحون" ؛ "إن الله لا يعذب على الشرك وانما على الظلم" على صدر كل كتاب مدرسي. لان هذا التفسير يصلح منطلقا لتأسيس أخلاق أسلامية إنسانية تضع حدا حاسما لحرب فقهاء الارهاب على "الملاحدة والمرتدين والمتقربين" كما يقول راشد الغنوشي لتحارب بدلا منهم الظلم والفقر والجوه والانفجار السكاني واستغلال الإنسان للانسان وقسوة الإنسان على الإنسان.

وكل سنة مدرسية ونحن باصلاح ديني جديد واصلاح للاصلاح عسر ان يصبح الاسلام اخيرا ندا للديانات التي سبقته على درب الاصلاح يوم كان المسلمون يغطون في نوم عميق لم يستيقظوا منه بعد.

"إيلاف" سبتمبر 2003

كيف ننتقل من المدرسة السلفية إلى المدرسة العقلانية ؟

في مقال باليومية الفرنسية لوموند[1] نشر مدير مكتب التحليل والتوقع في منظمة اليونسكو جيروم باندي Gerome Binde مقالا بعنوان "مستعدون للقرن الحادي والعشرين" جاء فيه أن على الإنسانية ان ترفع أربعة تحديات يطرحها عليها القرن الجديد. التحدي الأول، أن يغدو "التعليم للجميع وطوال الحياة" أحد ركائز العقد الاجتماعي الجديد الذي ينبغي أن يعوض العقد الاجتماعي القديم لسنة 1945، عقد دولة الرفاه الذي تفكك الآن. أما التحدي الثاني فهو التنمية المستدامة أي التي تحفظ حقوق الأجيال القادمة في بيئة نظيفة و موارد وفيرة. ولا شك أن التعليم عامل أساسي في الوعي بضرورة هذه التنمية المستقبلية.

التحدي الثالث هو تحدي إقامة ديمقراطية كونية. ولا شك أن التعليم هو حجر الزاوية في تحقيق هذا التحدي. فالديمقراطية لا تستتبت في مجتمع أميّ، وأقل من ذلك في مجتمع يكفرها ويعتبر الشورى بديلا لها. التحدي الرابع إقامة سلام يكون شرطا مسبقا لرفع التحديات الثلاثة. ولا يمكن لتعليم، خاصة دينيا، يعتبر "الجهاد إلى قيام الساعة" مهمة مركزية للمسلمين المعاصرين، أن يساعد على رفع هذا التحدي.

بدوره، اعتبر تقرير البنك الدولي لسنة 2003 أن التعليم هو الرهان المركزي في عملية التنمية. الاهتمام بالتعليم هو إذن اهتمام بالتنمية الشاملة والمستدامة.

فيما يخصني، اعتبرت دائما تحديث وترشيد التعليم الديني مهمة مركزية للنخب في العالم العربي. كتاباتي بهذا الصدد منذ العام 1993 شاهد على ذلك.

لماذا هذا الاهتمام ؟ إذا كان بياجيه Piaget قال عن المدرسة الفرنسية في عهده إنها تجعل العبقري موهوبا والموهوب تافها فالمدرسة العربية الإسلامية - باستثناء المدرسة التونسية الحديثة والعقلانية - تفعل ذلك بل وتضيف إليه، فتجعل المسالم عدوانيا والعدواني إرهابيا بسبب التعليم الديني السلفي.

السؤال الذي يطرح نفسه هو : لماذا تعلم النخب العربية الإسلامية مواطني الغد تعليما لا يؤهلهم لمعاصرة عصرهم ورد تحدياته ؟

باختصار، بسبب افتقادها للشرعية الديمقراطية، وخاصة شرعية الإنجازات السياسية والاجتماعية-الاقصادية، راحت هذه النخب تطبق الإسلاموية بدون إسلامويين على حساب مشروع مجتمعي، الحداثة رائده والعقلانية منطلقه. المدرسة الحاملة لمثل هذا

المشروع هي مدرسة عمال الغد ؛ أي التقنيين، المهندسين، الباحثين، العلماء والأطباء. ووظيفتها هي تخريج مواطنين معاصرين لعصرهم أي يفكرون بأنفسهم لا بأسلافهم ويحسنون استخدام البرهان بدلا من سلطة النص، ويقبلون، دون عُقد أو شعور بالذنب، مؤسسات وعلوم وقيم عصرهم العقلانية والإنسانية حتى تلك التي تتعارض مع تراث الأسلاف وتقاليدهم. مثل هذه المدرسة لم توجد بعد في العالم العربي، باستثناء تونس التي استطاعت خاصة منذ 1990 أن تعيد هيكلة التعليم الديني على نحو قطع مع المدرسة السلفية ؛ مدرسة الاحتكام للنص ولظاهر النص بعيدا عن التأويل، وأكثر من ذلك بعيدا عن القراءة التاريخية للنص التي تشكل العمود الفقري لتجديد الخطاب الديني الإسلامي بتكييف الإسلام مع الحداثة بعد أن اتضح أن أسلمة الحداثة حيلة لتفادي الحداثة.

العقلانية الدينية المنفتحة هي التي ينبغي أن تكون قوام التعليم الديني المنشود في الفضاء العربي الإسلامي. فهي تخضع النص للفحص والبحث العقلانيين ؛ فتصديق النص وتكذيب الواقع ضرب من الجنون.

المدرسة السلفية تعلم النشء التعصب الديني بما هو رُهاب الاختلاف وإنكار الآخر حتى إعدامه، الذي هيكل الوعي الإسلامي، خاصة السني، منذ "الاعتقاد القادري" [نسبة إلى الخليفة القادر بأمر الله- سنة 480هـ] فمدرسة العقلانية الدينية المنشودة تؤطر تعليم الدين بعلوم الحداثة، خاصة علم الأديان المقارن الذي يفتح الوعي الإسلامي على الديانات الميتة كالبابلية والمصرية..إلخ، التي تساعد على فهم التطور التاريخي للديانات التوحيدية الثلاث ؛ فبدون الديانات الميتة يبقى فهم الديانات الحية أسطوريا.

السسيولوجيا الدينية تُعلّم النشء الوظائف الاجتماعية للدين وكيفية استخدام الفاعلين السياسيين والاجتماعيين له. علم النفس يعلم النشء أن الله، على غرار الأب، الذي هو النواة البدائية لفكرة الله لدى الطفل والبدائي، يقدم له الحماية الأبوية وأيضا العزاء والسلوى في الملمات. وبالمثل يتجاوب الدين مع حاجة أساسية متأصلة في الكائن البشري هي تلبية مطلبه في حياة ثانية ؛ فاللاشعور، كما يقول فرويد، مسكون بالرغبة في الخلود. الألسنية تعلم النشء أن النص الديني هو تناص، أي ملتقى نصوص تلاقحت عبر التاريخ، وأن كل نص قابل للتأويل لأنه نص مجازي ؛ وهكذا يستطيع التلميذ والطالب أن يفكر في النص المقدس بنفسيهما وأن يؤولاه حسب مصالح وحاجات الناس ومتطلبات الحقبة التاريخية. الفلسفة تقدم للنشء ما افتقده في تراثه، أي الفكر النقدي الذي يعلمه التساؤل الخلاق بدلا من تقديم الأجوبة الجاهزة المستوردة أو المستوحاة من تراث الأسلاف. وبالمناسبة، فالفلسفة الحديثة تدرّس في السنتين الأخيرتين من التعليم الثانوي في تونس حسب منهج الفلسفة الفرنسي ؛ كما تدرس في الزيتونة، في جميع الاختصاصات العلمية الأخرى بما فيها التقنية. وحقوق الإنسان كفيلة بتحديث وترشيد الوعي الإسلامي بتطعيمه بقيم الحداثة العقلانية والإنسانية التي ظل إلى الآن مغلقا دونها لأنها حداثة "اليهود والنصارى" الذين علمته المدرسة السلفية، وما تزال، وجوب مخالفتهم حتى فيما هو صالح له كما يقول ابن تيميه.

أولية أولويات العقلانية الدينية المنفتحة إدخال ثلاث إصلاحات أساسية على الإسلام لتحويله من دين جهادي واستشهادي إلى دين روحي.

ظلت المسيحية دينا روحيا طوال القرون الأولى قبل تبني الدولة الرومانية لها كدين رسمي. خلال هذه القرون لم تكن المسيحية إلا ملاذا روحيا يقدم للمؤمنين العزاء والسلوى

عن اضطهادهم. بعد أن غدت دينا للدولة تضاءلت روحانيتها لحساب تدخلها في الشأن الدنيوي - ضدا على الأناجيل نصا وروحا. ولم ينقد الروحانية المسيحية إلا الكنائس التي لم تتبناها الدولة كالكنيسة المرقصية القبطية. أما الكنيسة الرومانية فقد تحالفت مع الدولة فانغمست في جميع ممارساتها الميكافيلية والحربية، ولجأت إلى حيلة مكشوفة : تأجير محاربين ليخوضوا الحرب نيابة عنها. وكانت محاكم التفتيش شاهدا على تخلي الكنيسة الكاثوليكية عن الروحانية المسيحية إلا بعد أن فصلت الحداثة الدين عن الدولة، فأرسلت رجال الدين إلى هدوء الأديرة كما كان يعيش أسلافهم الرسل.

بدوره لن يصبح الإسلام دينا روحيا إلا إذا انفصل، أو فصل عن الدولة وممارساتها الدنيوية. فصل الروحي عن الزمني في الإسلام يتحقق بشرطين شارطين : مصالحة الإسلام مع نفسه ومصالحة الإسلام مع الآخر. مصالحة الإسلام مع النفس تعني الاعتراف للمرأة بإنسانيتها على قدم المساواة مع الرجل بإحلال القانون الوضعي محل الأحكام الفقهية التي تعتبرها ناقصة عقل ودين وقاصرة أبدية. فعندما يفتي، منذ أسابيع، مفتي السعودية الشيخ عبد العزيز الشيخ بأن قيادة المرأة للسيارة مماثلة لارتكابها للزنا المستوجب لحد الرجم فهو يعطي للعالم الصورة الحقيقية والمذهلة للإسلام غير الروحي : إسلام عداء المرأة والعقوبات البدنية. مصالحة الإسلام مع الآخر تتطلب، من جهة، إحلال الدستور الحديث الذي يعترف لجميع المواطنين بحقوق المواطنة بغض النظر عن الدين محل أحكام فقه الذمة الذي مازال يعتبر المواطن غير المسلم نصف مواطن أو صفر مواطن ؛ كما يتطلب من جهة أخرى إحلال القانون الدولي محل فقه تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب ودار كفر.

كيف نحقق ذلك ؟

بأن ناغي من التعليم الديني والخطاب الديني وقوانيننا ومؤسساتنا كل ما هو زمني عبر قراءة جديدة للإسلام، في المناهج المدرسية والخطاب الديني، تنطلق من واقعة أن نبي الإسلام كان نبيا تنحصر رسالته الروحية في التبليغ "وإن تولوا فإنما عليك البلاغ" 20 [آل عمران] ورد حصر رسالة النبي الروحية في التبليغ في 13 آية كلها في سور مدنية، كما وردت بصيغ أخرى في عدة آيات منها "فذكر إنما أنت مذكر" 21 [الغاشمة] إذن رسالة نبي الإسلام الروحية تنحصر في التذكير، أما "السيطرة" أي الحكم فمهمة الحاكم الدنيوي. آيات الإسلام الروحي المبلغ والمذكر تلتقي مع الآية الإنجيلية التي انطلقت منها المسيحية لقبول فصل الزمني عن الروحي "أعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر". لكن بعد الهجرة إلى المدينة غدا محمد نبيا وقائدا لجيش ورئيسا لنواة دولة كونفدرالية أسماها "أمة"، وهي كلمة عبرية تعني القبيلة. وهكذا فممارساته العسكرية والسياسية والآيات التي قننتها ليست عابرة للتاريخ بل هي، كأي عمل بشري، بنت عصرها وتنتهي بنهاية العصر الذي أنتجها. آيات السيف والجهاد والعقوبات البدنية والمعاملات الدنيوية آيات زمنية لم تعد متطابقة لا مع حاجيات ومصالح المسلمين وغير المسلمين ولا مع قيم العصر ومتطلباته. نسخ القرآن نفسه لبعض آياته اعتراف صريح بأنها آيات زمنية نسخت لأن أحكامها غدت متقادمة. وهكذا فهم الصحابة الآيات الزمنية فنسخ أبو بكر آية المؤلفة قلوبهم "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم" 60 [التوبة]. يقول الطبري عند تفسيره الآية في رواية عامر "كانت الرّشي [جمع رشوة] على عهد النبي، فلما ولى أبو بكر انقطعت الرشي". ونسخ عمر بن الخطاب وعليُ ابن أبي طالب ومعاذ بن حنبل آية الفيء "واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمُسه وللرسول" 41 [الأنفال]. وبالمثل نسخ الفقهاء آية وجوب كتابة عقد الدين "إذا تداينتم بدين إلى أجل

مسمى فاكتبوه" 282 [البقرة]. ونسخ الونشريسي استثناء آل النبي من الزكاة. جميع هذه الآيات والأحاديث المنسوخة بررها الصحابة والفقهاء بحجج عقلية : برر أبو بكر نسخ آية المؤلفة قلوبهم قائلا : "قوي الإسلام ولا حاجة لنا فيهم". وبرر عمر بن الخطاب نسخ آية الفيء في رسالته إلى المقاتلين "بمصلحة الأجيال القادمة" : "إذا أخذتم أرض السواد [العراق] فماذا يبقى لمن يأتي بعدكم ؟". وبرر الفقهاء وجوب كتابة عقد الدين بـ "انتشار الأمية في الأمصار" مما سيتسبب في ضياع مصالح الناس. وبرر الونشريسي استثناء آل النبي من الزكاة بواقع إعطائهم الزكاة في عصره، القرن التاسع الهجري، أحفظ لكرامتهم من التسول في الطرقات، وصاغ نسخه للسنة النبوية نظما : "والوقت قاض بجواز إعطاء آل الرسول من مال الزكاة قسطا". بإمكاننا اليوم أن نقول، مثل فقيهنا الونشريسي بل وأكثر منه، بأن "الوقت قاض" بنسخ جميع الآيات الدنيوية التي لم تعد متكيفة مع متطلبات عصرنا ومصلحة معاصرينا. ضرورة الفصل بين الآيات الزمنية والآيات الروحية لم يعد مسكوتا عنها بل هي آخذة في الانتشار في الوعي الإسلامي الحديث. يقول د. محمد عبد المطلب الهوني : "ملخص القول أن الإسلام في كثير من تشريعاته كان يعمل في فراغ وإنما يتعاطى مع بشر، لهم همومهم وثقافتهم ولهم اقتصادهم ولهم نمط حياتهم، ولذلك فإن كل الآيات القرآنية التي أتت لسن قوانين المعاملات البشرية هي آنية ولا يجب أن تكون لها صفة الديمومة لأن المعنيّ بها هم أمة المسلمين الذين عاشوا في تلك الفترة والفترات اللاحقة التي تتسم بالشروط نفسها. أما اليوم، فيجب أن نفرق بين الجريمة بمعناها المدني التي يسن عقابها الناس كلٌ حسب ظروف عصره، وبين معناها الأخلاقي الذي قد يبقى عابرا للعصور. أي لابد لنا أن نفرق بين الجريمة والخطيئة، فالجريمة يعالجها البشر، أما الخطيئة فتبقى كابحا على مستوى الضمير وإن كان لها عقاب فهو أخروي. وهذه التفرقة أصبحت اليوم ضرورية للتمييز بين الحياة وما وراء الحياة [من كتاب تحت الطبع : المأزق العربي : العرب في مواجهة الاستراتيجية الأمريكية، من الفصل "سوء فهم المعتقد.] تدريس هذه القراء التاريخية في التعليم الديني وأيضا تدريس إلغاء الجهاد، شرط أساسي لتحويل الإسلام إلى دين روحي حيث لا يموت المؤمنون جهادا في سبيل اللـه بل تنعكس الآية، كما في المسيحية، حيث قدم اللـه نفسه فداء لأبنائه أي مات من أجلهم. ويمكن الانطلاق من آيات عدة لترسيخ هذه القراءة الجديدة من وعي الناشئة الغض عبر التعليم التنويري المنشود : "وقال ربكم ادعوني استجيب لكم" [غافر60]، فالرب يتقدم للمؤمنين به كخادم عطوف لا يتأخر عن الاستجابة لدعواتهم ؛ "حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم" [التوبة 128]، فالرب الرؤوف الرحيم لا يطلب من المؤمنين به أن يموتوا في سبيله. تحرير الدولة من الدين يحولها إلى مؤسسة دنيوية خالصة تعالج شؤون مواطنيها بمرجعية دنيوية وعقلانية بعيدا عن القيود اللاهوتية، وذلك يعني الدستور الحديث والقانون الحديث والتعليم الحديث وتاليا مساواة المرأة بالرجل وغير المسلم بالمسلم..إلخ، وتحرير الدين من الدولة يحوله إلى نحات صوفية وروحية يستطيبها حتى من لا يأخذون بدين من الأديان، فالدين الروحي أقرب ما يكون إلى الفن تستسيغه الذائقات المرهفة. مثلا أجد لذة خاصة في قراءة المتصوفة من جميع الأديان وخاصة ابن عربي المؤسس الأول لدين الحب الذي بلوره بعده بقرون فيورباخ في كتابه "ماهية المسيحية". التعليم الديني السائد الآن خارج تونس يناضل بقوة ضد هذه القراءة الجديدة والضرورية للإسلام اليوم لذا سأقدم نماذج من التعليم الإسلامي ألجهادي المعادي للآخر بأوسع معانيه، بما فيه آخر الذات، وللمرأة وغير المسلم والعقل والحياة ؛ وسأقدم بالمقابل نموذجا من برنامج جامعة الزيتونة التي أعتبرها نواة صلبة لتعليم العقلانية الدينية

المنفتحة الذي أدعو إليه. تلقين عبادة الأسلاف "مع طول الزمن والبعد عن آثار الرسالة، يحصل كثير من الانحراف، يخفي كثير من السنن، وينبت كثير من البدع.. وكان الصحابة

والتابعون يقفون لهذه الأمور بحزم وعلم، فلم تفلت بل قمعوها، وبينوا الحق وأزالوا الشبهة، وما من بدعة إلا ويقيض الله لها من يردها ويكشف عوارها وينصر السنة، وما من رأس من رؤوس الضلالة إلا ويقيض الله له من أعلام السنة من يتصدى له ويفضحه، ويرد عليه بدعته ويقيم عليه الحجة.. لما ظهرت نزعات الابتداع الأولى في عهد عمر الفاروق.. قيض الله لها عمر فأقام معوجها بدرته المشهورة.. وأدب الأمة كلها بقطع شجرة الحديبية.. ودأب من غلا فيه وحرقهم بالنار.. وأمر بجلد من فضله على الشيخين.. ولما ظهر من ينفون القدر تصدي لهم متأخرو الصحابة كابن عمر الذي حذر منهم وكشف عوارهم.. ولما أعلن غيلان الدمشقي هذه البدعة تصدى لها التابعون.. فلما أصر على بدعته قتله هشام بن عبد الملك.. وضحى الأمير خالد بن عبد الله القسري بالجعد بن درهم.. وهكذا كلما كثرت حشود البدعة تصدت لها جحافل السنة.. ولما احتشدت حشود الأهواء.. قيض الله لهم إمام السنة وقامع البدعة الإمام أحمد بن حنبل، فكسرهم كسرة لم ينهضوا بعدها إلا متعثرين بحمد الله.. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية مجاهدا بعلمه ولسانه لأهل الكلام والفلسفة والصوفية وغيرهم من جحافل البدع الذين تصدى لهم.. ولا تزال آثاره ومؤلفاته مرجعا لكل صاحب سنة، وقذى في عين كل صاحب بدعة" (التوحيد، أول ثانوي).[2] هذا النص هو أحد النصوص الكثيرة التي تلقن وعي الناشئ السعودي عبادة الأسلاف التي مثلت في اللاشعور الجمعي الإسلامي ضميرا أخلاقيا باغيا أعاق الوعي الإسلامي عن استقبال وتشرب منجزات ومؤسسات وعلوم - خاصة الإنسانية - وقيم الحداثة. وفضلا عن ذلك فالنص يلقن أيضا التلميذ رفض الحق في الاختلاف. فالمسلم المختلف عن المسلم السلفي يعامل كـ "مبتدع" أي ضالـ إذن كعدو. وهذا ما يهيئه لممارسة شتى ضروب العنف الرمزي والدموي فيحرق بالنار كما حرق عمر زعماء، ويدبح المختلفين معه كما ذبح خالد القسري الفقيه الجعد ابن درهم.. في سياق هذا المنطلق السلفي التبديعي والتكفيري نسوق النص التالي : "الاحتفال بمناسبة المولد النبوي هو تشبه بالنصارى فيحتفل جهلاء المسلمين والعلماء والضالون وتحضر جموع غفيرة من دهماء الناس وعوامهم ولا يخلو من الشركيات والمنفرات".[3] وفي سياق المنطق ذاته تعبئ المناهج السعودية التلميذ لتكفير المسلم الخارج عن السلفية. فالقومية العربية في المناهج الدينية السعودية : "دعوة جاهلية إلحادية، تهدف إلى محاربة الإسلام، والتخلص من أحكامه وتعاليمه" (حديث 2 ثانوي) (..) الفكر القومي يُسقط الدين من اعتباره.. بل يعتبر الدين عائقا في سبيل القومية" (حديث 2 ثانوي) (..) "الانتماء للأحزاب الجاهلية والقوميات العنصرية، كفر وردة عن دين الإسلام" (توحيد 3 ثانوي) (..) "لا شك أن فكرة القومية ردة إلى "الجاهلية" (حديث 3 ثانوي) (..) "العالم الإسلامي أصبح بعد ما غزته أوربا سياسيا وثقافيا، يخضع لهذه العصبيات الدموية والجنسية، والوطنية.. والواجب أن يعلم أن هذه الحزبيات عذاب بعثه الله على من أعرض عن شرعه وتنكر لدينه" (توحيد 3 ثانوي).[4]. في سياق تلقين الناشئة تكفير منجزات الحداثة تقول المناهج السعودية.. "الصحافة والإذاعة والتلفزيون مؤسسات منحلة الأخلاق منسلخة عن العقيدة ولا يجوز للمسلم الاستماع إليها".[5]. "الصحفي الذي يكتب أن الخطط التنموية تقضي على الفقر وأن تقدم الطب يقضي على المرض.. يشرك بالله".[6] "الاشتراك في أسابيع، مثل أسبوع الشجرة أو المرور، تقليد للكفار والطالب الذي يمارسه فاسق وعاصي."[7] ينبغي على المسلم الذي يسافر الى بلاد الكفرة ليتعلم أو يتاجر أو يتطبب أن يقيم بينهم وهو يضمر العداوة لهم".[8] مناهج التعليم الأزهرية لا تقل شحنا للوعي الإسلامي بأساطير القرون الوسطى المعادية للمرأة وغير المسلم والعقل والحياة. يقول الطبيب د. خالد منتصر : سنحاول أن نقرأ منهج المدارس الثانوية الأزهرية حتى نعرف

مدى التخلف الفكري الذي سيحمله الخريج الشاب عند مواجهته لمستجدات العصر واسئلته المتجددة وسنعود في تلك القراءة لكتب الفقه المقررة

مناهج التعليم الأزهرية لا تقل شحنا للوعي الإسلامي بأساطير القرون الوسطى المعادية للمرأة وغير المسلم والعقل والحياة. يقول الطبيب د. خالد منتصر : سنحاول أن نقرأ منهج المدارس الثانوية الأزهرية حتى نعرف مدى التخلف الفكري الذي سيحمله الخريج الشاب عند مواجهته لمستجدات العصر واسئلته المتجددة وسنعود في تلك القراءة لكتب الفقه المقررة على المدارس الأزهرية مثل "الروض المربع بشرح زاد المستنقع" وهو للمذهب الحنبلي وتم تأليفه منذ أربعة قرون. وكتاب المذهب الشافعي "الإقناع في حل الفاظ ابي شجاع" وتم تأليفه ايضا منذ أكثر من أربعة قرون. وكتاب المذهب الحنفي "الاختبار لتعليل المختار" وهو مؤلف منذ أكثر من خمسة قرون. أما أحدثهم وهو كتاب المذهب المالكي "المقرر من الشرح الصغير" فهو مؤلف منذ قرنين. وبالطبع أول ما سيفاجئنا هو هذه المدد الزمنية البعيدة التي لابد أن تحمل معها الغريب من الألفاظ والمهجور من الأفكار التي طالما نادى المستنيرون من المسلمين بتطويرها. ومن أهم الدراسات التي ناقشت هذا التغيير دراسة علاء قاعود في كتابه إصلاح علوم الدين، وهي من أهم هذه الدراسات على الاطلاق، وأحمد صبحي منصور، وسليم العوا وطارق البشري وأيضا شيخ الأزهر نفسه. وسنحاول التركيز على أشياء محددة بعينها في هذه المناهج نستطيع أن نخلص منها إلى خطورة تبنيها والاعتماد عليها لأنها ببساطة هي تفريخ منظم للإرهاب الخفي أو على الأقل إفراز مستمر للجمود والتزمت."[9] في القرن الواحد والعشرون يقرأ تلاميذ الأزهر عن كيفية الطلاق إذا قال الرجل لزوجته سأطلقك إذا كان هذا الطائر المجهول غرابا، ويظل التلاميذ يحلون هذا اللغز العويص عن ماذا لو طلع غراب فعلا وما هو الحل إذا ظهر أنه أبو قردان مثلا ؟! (صفحة 377 الروض تامربع). وعن حكم الخنتى المشكل الذي يجامع في نهار رمضان خنثى أخري. أو امرأة بمساحقة فأنزلت، وما هو مصيرها؟! (صفحة 158 نفس الكتاب السابق) أو وجوب الغسل إذا أدخل الذكر حشفته أو قدرها من مقطوعها في فرج بهيمة أو في دبرها (صفحة 9 كتاب المذهب الشافعي). أو ماذا لو ولج حيوان قردا أو غيره في آدمي ولا حشفة له ؟ (نفس الصفحة السابقة من نفس الكتاب). أو إذا خلق للمرأة فرجان فماذا يكون حكم الحيض ؟! (صفحة 145 كتاب المذهب الشافعي). أو ماذا نفعل نحن المساكين الذين أمرنا بأن نسجد على سبعة أعظم هي الجبهة واليدين والركبتين وأطراف القدمين. ماذا يفعل من خلق برأسين وأربع أيدي وأريع أرجل ؟ (ص 52 نفس الكتاب). (..) ماذا يستفيد أطفالنا وشبابنا من قراءة كلمات غريبة مهجورة مثل : لا يجوز لبس السرموزه والجمجم. أو لا بأس على المرأة أن تصل شعرها بقرامل وهي الأعفصة. ويجوز المسح على الجرموق. ويجب أن يعرف عفاصها.. إلخ. أما المقاييس والأنصبة والأوزان والمكاييل التي تستعملها تلك الكتب فهي كطلاسم اللغة الهيروغليفية أو شفرات اللغة الصينية. فمازال الطلبة مطالبين بالقياس بالقلة والوزن بالرطل الدمشقي والمثقال العراقي. أو قصر الصلاة إذا كانت المسافة ستة عشر فرسخا. والمكيال من أجل الزكاة هو الوسق الذي هو ستون صاعا (يا سلام قال إحنا عارفين الصاع أصلا). ولابد أن نأخذ في الاعتبار الدرهم الإسلامي الذي هو ستة دوانق. وهذه مجرد عينة بسيطة جدا من تلك الألفاظ الغريبة المهجورة والألغاز الشاذة المطالب بحفظها وحلها الغلابة من أبنائنا وإخواننا طلبة الأزهر. أما السلوكيات والعادات التي كانت بنت وقتها فهي أيضا مشروحة بالتفصيل الممل. والكارثة أنها تقدم في شكل أوامر فقهية واجبة الطاعة. ففي باب وليمة العرس وآداب الأكل : "الأكل مما يليه بثلاثة أصابع وتخليل ما علق بالسنان ومسح الصفحة وأكل ما تناثر والشرب مصا.. إلخ". وفي كتاب البيع "يحرم التسعير ويحرم بيع الكلب". وفي صلاة الجنازة ص 328

من المقرر الشافعي "إن ترك المريض التداوي فهو أفضل" يعني الأحسن أن نلغي التأمين الصحي من مدارس الأزهر ونستريح ونوفر. وعندما يذكر الكتاب شروط من تقبل شهادته يؤكد على أنه لا شهادة لمغني أو لمن يأكل بالسوق، يعني باختصار لا شهادة للسيدة أم كلثوم وبالطبع هشام عباس وأمثاله من الصابئة. وطبعا لا شهادة لحضرتك قارئي العزيز في المحاكم لأنني متأكد من أنك قد تناولت على الأقل سندوتش طعمية أو كنتاكي في الشارع ! وبذلك تكون قد خسئت وصرت من مساخير البشر الذين لا تقبل شهادتهم حسب قوانين كتب الأزهر الشريف".[10] "في بداية الألفية الثالثة يقرأ الطالب الأزهري أساطير طبية وعلمية تعود إلى القرون الخوالي مثلا : (..) في صفحة 119 يتحدث الكتاب عن التداوي ببول الإبل. وفي صفحة 355 ينهي عن الكلام عند مجامعة النساء لأنه تسبب الخرس والفأفأة ! وفي ص 5 في باب الآذان يسن للمؤذن أن يجعل سبابته في أذنه لأنه أرفع للصوت. وفي ص 72 تبطل الصلاة بمرور كلب أسود لأنه شيطان. والكلام الغريب عن دم الحيض الذي يقول عنه الكتاب في صفحة 43 أنه يخرج من قعر الرحم لحكمة غذاء الولد وتربيته (..) وفي كتاب الجنائز عن علامات الموت يقول أنه يعرف بانخساف الصدغين وميل الأنف وانفصال الكف واسترخاء الأرجل ص 12 وهو ما اعتمد عليه الفقهاء المحافظون في تأخير قانون زراعة الأعضاء ورفض الموت الإكلينيكي الذي تحدده الأجهزة الطبية. وفي كتاب المذهب الشافعي نفس الكلام المجافي للعلم مثل يستثنى من النجس الميتة التي لا دم لها سائل مثل القمل والبرغوث. وإن الماء بالليل مأوى الجن ص 76، وأن التنشيف بذيل الثوب بعد الوضوء يورث الفقر ص 69، ولابد من طي الثياب ليلا حتى لا تلبسها الجن ليلا ص 31 (..) وفي آداب قضاء الحاجة "يكره حشو مخرج البول من الذكر بالقطن وإطالة المكث في محل قضاء الحاجة لأنه يورث وجعا في الكبد". (..) فالرعد ملك والبرق أجنحته يسوق بها السحاب ص 203 (..) وفي صفحة 84 بأنه إسترخاء أعصاب الدماغ بسبب رطوبات الأبخرة الصاعدة من المعدة (..) ويواصل الكتاب تعريف الموت بأنه "زوال الشعور من القلب مع بقاء الحركة والقوة في الأعضاء". أما الشرط الذي وضعه كتاب المذهب المالكي للتوأم فهو من أعجب الشروط فهو يقول في صفحة 79 "والتوأمان الولدان في بطن إذا كان بينهما أقل من ستة أشهر" !

الفكرة الثابتة في فقه القرون الوسطى الإسلامي الذي مازال يُدرس في الأزهر وغيره من المعاهد الدينية في العالم العربي، باستثناء المعاهد الدينية التونسية، هي عداء المرأة رمز الأم المفترسة. في صفحة 125 من كتاب "الروض المربع" يقول بأن الزوج "لا يلزمه كفن امرأته"، أي ليس واجبا عليه دفع ثمن كفن زوجته ! أما السبب فيورده الكتاب قائلا "لأن الكسوة وجبت عليه بالزوجية والتمكن من الاستمتاع وقد انقطع ذلك بالموت" (..) وفي نفس الكتاب تحت عنوان النفقات نقرأ "لا يلزم الزوج لزوجته دواء وأجرة طبيب إذا مرضت لأن ذلك ليس من حاجتها الضرورية المعتادة". وفي ص 355 له "أن يمنعها من حضور جنازة أبيها وأمها ونعها من إرضاع ولدها من غيره، وله أن يضربها ضربا غير مبرح عندما ترد عليه بتبرم. (..) والضرب غير المبرح الذي يقرره الكتاب عشرة أسواط، أي أقل من (دستة) كرابيج ! وطبعا ديتها نصف دية الرجل ص 417. وحتى العقيقة أقل (..) ففي الذكر شاتان وفي الجارية شاة. أما في باب "عشرة النساء" فستقرأ العجب العجاب. فعن عدد مرات الجماع يقول الكتاب "يلزمه الوطء إن قدر عليه كل كل ثلث سنة مرة"، يعني كل أربعة شهور، وليس لها أن تعترض. ويجيز الكتاب التزوج بفتاة عمرها أقل من تسع سنين ص 37 (..) وتمتلئ الكتب المقررة بكلام سخيف عن الجواري وأحكام الزواج منهن وديتهن وعوراتهن التي تختلف عن عورة الحرة.. إلخ. وأغرب ما قرأته عن الزواج كان تفضيل الزوجة اليتيمة الأم وليست يتيمة الأب لأن الأم تفسد

الزوجة. وبالطبع يضيق المجال عن ذكر كوارث أخرى فيما يخص المرأة (..).

الفكرة الثابتة الثانية في الفقه الإسلامي العتيق الذي مازال راهنا، هي عداء غير المسلم الذي مازال قادة الإسلام السياسي يطالبون بوضعه موضع التطبيق ؛ مصطفى مشهور الذي طالب بطرد المسيحيين من الجيش وتحويلهم إلى أهل ذمة كرر ما تلقنه من مدارس الأزهر الشريف ؛ يقول نفس الكتاب في باب "عقد الذمة وأحكامها" : "معنى عقد الذمة إقرار بعض الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية.. ويطال وقوفهم وتجر أيديهم وجوبا لقوله تعالى "وهم صاغرون"". وفي ص 2.. يأخذ التمييز الديني صورة بشعة لو طبقت ستؤدي بالمجتمع إلى التهلكة، فيوصي "بألا يدفنوا في مقابرنا، ولابد من حذف مقدم رؤوسهم وشد الزنار ودخول الحمامات بجلجل أو خاتم رصاص برقابهم ويركبون الحمير لا الأحصنة وبغير سرج. ولا يجوز تصديرهم في المجالس ولا القيام لهم ولا مبادلتهم بالسلام ولا تهنئتهم ولا تعزيتهم أو عيادتهم ويمنعون من إظهار ناقوسهم ويلجئون إلى أضيق الطريق".

كان على الأزهر، لو كان الأزهر لا يمشي على رأسه، أن يدرس لتلاميذه وطلبته كتاب المؤرخ المصري د. عُباد عبد الرحمن كحيلة "عهد عمر" الصادر سنة 1996 عن دار الدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، القاهرة، الذي فكك فيه بالمنهجية التاريخية أسطورة نسبة العهد ألعمري إلى عمر. وهكذا فتح الوعي الإسلامي على المواطنة الحديثة التي تأبى التمييز الديني أو غيره بين المواطنين.

نواة التعليم الديني السائد الصلبة في المؤسسات الدينية العربية باستثناء تونس هي عبادة الأسلاف التي تلخصها مسلمة شبه رياضية : "لا اجتهاد فيما فيه نص (لأن أمتنا لا تقبل إلا "قال اللـه وقال الرسول") كما يقول راشد الغنوشي[11]. فما معنى ذلك ؟ رفض كل جديد باعتباره بدعة "وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار"، كما يقول الحديث ؛ ورفض الحداثة مؤسسات وعلوما وقياما ونمط حياة بما هي تشبُّه بالكفار أي اليهود والنصارى. وقد قال ابن تيمية في كتابه "اقتضاء السراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم" : "كان السلف (..) يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عُبّادنا ففيه شبه من النصارى"[12]، مضيفا : "وخالفوهم فالمخالفة تنافي الموافقة في بعض الأشياء أو في أكثرها (..)[13]، فإن المخالفة لهم [= اليهود والنصارى] فيها منفعة وصلاح لنا في كل أمورنا، حتى ما هم عليه من إتقان أمور دنيانا. فالمخالفة فيها صلاح لنا"[14].

هذا الرق النفسي للأسف هو لب عبادة الأسلاف أي التقليد الحرفي بأوامرهم ونواهيهم وتطبيق نصوصهم حرفيا، أي دونما اجتهاد فيها وألا حل بالأخلاف غضب الأسلاف. "الأهليون من جزر الباسفيك يعبدون السفن اعتقادا منهم بأن المواد الغذائية التي تحملها السفن للمستعمرين البيض هي هدايا أرسلها لهم أسلافهم بينما لم يرسل لهم أسلافهم سفنا مماثلة لأنهم عاقبوهم بسبب عصيانهم لأسلافهم بجعلهم أقل من البيض تقدما تكنولوجيا لذلك يحاولون بعبادة أسلافهم استرضائهم حتى يرسلوا لهم السفن محملة لهم بالأغذية بدلا من البيض أعدائهم[15]. يقول مرسيا إلياد : "عندما كان المبشر والأنتروبولوجي "ستريهلو" يسأل قبيلة "أرنتا" الاسترالية عن سبب إقامة بعض الشعائر، كان أعضاؤها يجيبونه : لأن أسلافنا أمرونا بذلك (..) وفي غينيا الجديدة يرفض أعضاء قبائل الكاي تغيير أنماط حياتهم قائلين : لأن أسلافنا كانوا يفعلون ذلك ونحن نعمل مثلهم ؛ كما روي ذلك منذ خلق الأرض ؛ كما ذبحوا كذلك يجب علينا أن نذبح، وكما فعل أسلافنا في سالف

الأزمان هكذا يجب علينا أن نفعل اليوم. نفس هذا الدعاء نجده عند الهندوس : علينا أن نفعل ما فعلته الآلهة في البداية (..) في قبائل الهنود على النساء أن يجلسن على أرجلهن القرفصاء وعلى الرجال أن يجلسوا وأرجلهم متقاطعة أمامهم، لأن المرأة الأولى [حواء] والرجل قاتل الوحش [آدم] جلسا بهذه الطريقة في البدء (..) وتقول قبيلة "كرادجي" الاسترالية أن عادات القبيلة وتصرفاتها أسستها في زمن الحُلم كائنات فوق-طبيعية، مثل طريقة طبخ الحبوب، صيد الحيوان والوضع الخاص الذي يجب اتخاده عند التبول".[16]

التعلق بعبادة الأسلاف شكل عائقا لوعي هؤلاء البدائيين فلم يتشجعوا على الاجتهاد في أقوال و أفعال أسلافهم.

تماما كما فعلت المدرسة السلفية التي حولت النص إلى حقيقة مطلقة وجعلت منه سقفا لحرية التفكير وبالتالي قيدا على عقول المسلمين منذ القرن الثاني عشر على الأقل عندما انتصر التفسير بالأثر على التفسير بالنظر وفقه الرواية على فقه الدراية وبات الفقهاء يتندرون (من فقه الرأي) الحنفي.

عبادة الأسلاف السائدة في تعليم الدين وفي تعليم علوم القرآن من لغة ونحو آداب.. إلخ، أقصت العلوم الإنسانية المتخصصة في دراسة الظاهرة الدينية مثل تاريخ الأديان المقارن وسوسيولوجيا الأديان إلخ، وشنت على العلوم الإنسانية حربا لا هوادة فيها مطالبة بأسلمتها أي تجريدها من زخمها النقدي. حتى علوم الطبيعة، فإما أنها حاربتها أو اختطفتها من وظيفتها الأصلية، كمفاهيم مفسِّرة للظواهر، لتوظفها أحيانا في خدمة أكثر التخيلات الدينية هذيانا. الأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى ؛ منها القرار الذي أصدره الأزهر سنة 2000 بحظر التأليف في موضوع نظرية التطور ومصادرته لكل كتاب يشتم منه رائحة الفكر النقدي، وليس مصادفة أن يعقد في القاهرة سنويا مؤتمر عن الإعجاز العلمي في القرآن، برغم أن الإمام ألشاطبي والطاهر بن عاشور كانا ممن قال بعدم وجود إعجاز علمي في القرآن (لأن اللـه خاطب العرب يومئذ على قدر عقولهم) ؛ ومنها الفتاوى المتواصلة بتكفيرها منذ قرن على الأقل، وأشهرها فتوى سيد قطب في "معالم على الطريق" حيث اعتبر نظرية التطور والفلسفة والعلوم الإنسانية "معادية للدين بصفة عامة وللإسلام خاصة ؛ ومنها ما قام به بعض الفقهاء بإرغام حكومة المملكة العربية السعودية "على غلق معهد الهندسة الوراثية فاضطر باحثوه السعوديون والمسلمون إلى الهجرة إلى كندا وأمريكا بدعوى أن علم الهندسة الوراثية والبيولوجيا تدخل من المخلوق في شؤون الخلق والخالق"[17] ؛ ومنها ما كشفه الباحث التونسي الهاشمي شقرون في كتابه "نقد العقلية العربية" : "مازالت تؤلف كتب تعتمد على آلات حاسبة لمعرفة عدد الملائكة وتحددها بـ 120 مليون ملاك كان من الممكن تجنيدها في حرب العرب والمسلمين ضد إسرائيل".[18]

سيادة عبادة الأسلاف في المؤسسة التعليمية من المدرسة إلى الجامعة تعبر في العمق عن سيادتها في جميع قطاعات الحياة الاجتماعية، بما فيها تلك التي تعلوها مساحيق الحداثة حتى ليَصدُق عليها قول الزهاوي : "علم ودستور ومجلس أمة / كل عن المعنى الصحيح محرف". عبادة الأسلاف هي التي تتجلى أيضا في رُهاب العقلية العربية من التجديد الذي تتشربه كبدعة أو كتشبُّه باليهود والنصارى فتلجأ إلى حيلتين لا شعوريتين لتفادي استقبال الحداثة.

الحيلة الأولى النرجسية الدينية المكتفية بذاتها أي المستغنية عن كل تجديد ذاتي بدعوى "أن الأول لم يترك للآخر شيئا وهي الحيلة التي سادت فقه القرون الوسطى السلفي أي المعتمد على النص وظاهر النص بعيدا عن كل تأويل "لا يورث إلا التضليل".

والحيلة الثانية هي التي لجأ إليها جُل، إن لم يكن كل، المصلحين الإسلاميين في القرن التاسع عشر ومازالت سائدة حتى الآن وهي الحيلة القائلة بأنه علينا أن نجدد فقهنا لنقطع الطريق على الحداثة الفرنسية، وفعلا فقد قطعوا الطريق على الحداثة ولكنهم لم يجددوا الفقه لسبب واضح أن خميرة تجديد هذا الفقه هي التشريعات الحديثة والقيم الحديثة والعلوم الحديثة والمؤسسات الحديثة وهي تختلف في منطقها ومقاصدها مع فقه القرون الوسطى بكل أحكامه وقيمه المتقادمة والذي رأينا عينات منه في المناهج السعودية والأزهرية وهي غيض من فيض. يقول محمد عمارة : "إن رفاعة الطهطاوي بعد أن خبر خطر الوضعة اللادينية الغربية في باريس دعا الى تجديد فقه المعاملات الإسلامية ليسد الباب ويقطع الطريق بالبديل الإسلامي المتجدد على قانون نابوليون الوضعي العلماني المتسلل إلى دوائر التجارة ومؤسسات الحكم والقضاء والتشريع في عالم الإسلام.. ونهض تلميذه محمد قدري باشا بتقنين فقه المذهي الحنفي لتحقيق ذات الغرض : ملء الفراغ القانوني بتجديد الفقه الإسلامي وتقنينه، بل وكان تقنين الدولة العثمانية لفقه المذهب الحنفي في "مجلة الأحكام العدلية" عام 1869 جهدا كبيرا يصب في ذات الوعاء، وعاء التجديد للفقه والفكر والخطاب الإسلامي لملء الفضاء الإسلامي بالبديل الحضاري حتى لا يملأ التغريب هذا الفضاء."[19]

باختصار جميع الحيل اللاشعورية أو الشعورية تؤدي إلى رفض التشبه باليهود والنصارى ؛ أي رفض حداثتهم، سواء باسم عبادة الأسلاف في صورتها الخام، أو في صورها الأقل ظهورا مثل اختراع حداثة بنا، أو التزويج الفصامي للحداثة بالأصالة ليُحيّد أحدهما الآخر.

إذا كان تشخيصي دقيقا فإن المخرج من أزمة الحداثة العاصفة التي يمر بها العالم العربي يكون بالقطيعة الواعية، خاصة في الإعلام والتعليم والخطاب الديني، مع "وجوب مخالفة اليهود والنصارى" وبالتالي التصالح دون عقد أو شعور بالذنب مع حداثتهم التي غدت اليوم حداثة عالمية. فالتصالح مع الآخر اليهودي والمسيحي شرط شارط للتصالح مع حداثته.

الإعلام والتعليم والخطاب الديني بدأ في تونس منذ نصف قرن في تحقيق هذه القطيعة مع الوعي الإسلامي القروسطي المسكون برُهاب اليهود والمسيحيين. ألأفكار الثلاث المركزية في الدراسات الدينية الزيتونية هي الاعتماد أساسا على الاجتهاد دون وضع سقف للتفكير العقلاني في النص الديني ؛ تأطير هذا التفكير في النص بالعلوم الإنسانية المتخصصة في دراسة الظاهرة الدينية ؛ وأخيرا رد الاعتبار في الوعي الإسلامي للآخر، وخاصة الآخر اليهودي والمسيحي.

يحدد القانون الصادر في 1995/2/8 في المادة الثانية منه مهام جامعة الزيتونة وغايات الدراسة فيها كما يلي : "يهدف نظام الدراسة بجامعة الزيتونة في نطاق الاهداف العامة للتعليم العالي والبحث العلمي ومهام الجامعات، وفي إطار الهوية الوطنية التونسية، والشعور بالإنتماء الحضاري العربي الإسلامي، والوعي بواجب الإسهام في إثراء الحضارة الإنسانية إلى تحقيق الغايات التالية :

-1

ضمان تكوين معرفي يؤهل المتعلم إلى اكتشاف ما في قيم الإسلام عقيدة وفكرا وحضارة من أسباب الارتقاء بالذات البشرية إلى مصاف الشخصية الحرة المسؤولة المقتدرة على الجميع بين الوفاء لنبل مقاصد الدين وضرورة الاستجابة السلمية لمقتضيات الحياة.

-2

ترسيخ الوعي بأن الفكر الإسلامي، في كل أبعاده، هو ثمرة الجهد الذي بذلته أجيال العلماء المبدعين والمجتهدين. لذلك يدعو واجب الانتماء إلى الحضارة العربية والإسلامية إلى الأخذ بأسباب عبقريتها، وإلى الحرص على الإجتهاد للتقدم بالمعرفة تقدما يضيف إلى ما أبدع أعلامها.

-3

ترسيخ الوعي بأن جامعة الزيتونة رمز يختزل مدرسة فكرية قوامها تسامح دائم ونظرة متجددة إلى الدين والتاريخ، وتوق إلى حياة روحية خصبة، وعمل دؤوب لخبر الإنسانية.

-4

تمكين المتعلم مما يؤهله للتفاعل المعمق مع الثقافات والحضارات ولإثراء الفكر الإسلامي والإنساني، وإضافة عبقرية المحدث إلى فذاذة الموروث. وذلك بجعله يحذق أفنان المعرفة الحديثة التي تتيح له فرص الإطلاع على إنتاج الفكر الكوني إطلاعا مباشرا.

في هذا المنظور سأقدم هنا المقاطع الأكثر أهمية من "دليل الطالب" أي برنامج المعهد الأعلى لأصول الدين [جامعة الزيتونة]. وهذه العينات نقدمها كنموذج نضعه أمام صناع القرار التعليمي في العالم العربي والعالم إذا صح منهم العزم على إصلاح التعليم والتعليم الديني خاصة في اتجاه العقلانية الدينية المرنة ورد الاعتبار لليهود والمسيحيين كمدخل لفتح وعي الناشئة الإسلامي على حداثتهم.

وحدة السيرة النبوية والسنة

<u>كتابة السيرة النبوية : (..)</u> "الاهداف : يهتم باجل من صنّف في السيرة النبوية من القدامى مثل ابن اسحاق خاصة، ثم بكيفية الكتابة في هذا الفن للوقوف على : أ- التاريخي والأسطوري في رواية السيرة ؛ ب- الأغراض التمجيدية والتعبدية فيها ؛ ج- تصور الرواة لشخصية الرسول".

<u>السنة النبوية :</u> إشكالية التدوين والتشريع : (..) "الأهداف : يهتم بتعليل الحاجة إلى تدوين السنة النبوية، والظروف التي تم فيها ذلك، مثلما يعتني بشرح تحول السنة النبوية من توابع السيرة إلى مصدر تشريع. والمأمول أن يقف الطالب على الصعوبات العلمية

والتاريخية التي تحف بالتشريع من السنة النبوية".

وحدة تاريخ الفقه : (..) "الهداف : يرمي الدرس إلى استخدام تصور الفقيه لنظام الهيئة الاجتماعية والقيم الضابطة لها على أساس من العقيدة الإسلامية. ويهتم ببيان الحاجة إلى الفقه ونشأة بوادر الأحكام فتطور المقالة الفقهية إلى مذاهب، لكل منها رؤية وثيقة الاتصال بمجتمع الفقيه في المصر والظرف".

وحدة تاريخ الأديان

مدخل إلى تاريخ الأديان القديمة : (..) "الأهداف : يهتم بالأديان القديمة عند القرطاجيين والمصريين، وبالأديان الهندية، وبيان مجمل عقائدها وتفسير نشأتها وتطورها، واستخلاص ملامح الفكر الديني، بموضوعية".

ألفت نظر القارئ إلى أن الديانة المصرية القديمة التي أثرت في اليهودية والمسيحية والإسلام تدرس في جامعة الزيتونة ولكنها لا تدرس في أي جامعة دينية أخرى بما فيها الأزهر. للوقوف على تأثير الديانة المصرية في الديانات التوحيدية يحسن الإطلاع على كتاب ثروت الأسيوطي بالفرنسية.

مدخل إلى تاريخ الأديان الكتابية : (..) "الأهداف : يهتم ببيان عقائد اليهودية والمسيحية وشرح نشأتها، وتحديد المشتركات بينها، مع التعبير عن احترام مقولات أصحابها".

ألفت اهتمام القارئ إلى "مع التعبير عن احترام مقولات أصحابها" كمدخل لمصالحة الوعي السلفي المتعصب مع ديانات الآخر وخاصة اليهودي والمسيحي. وهكذا تربي المناهج الدينية التونسية منذ الابتدائي إلى العالي وعي الناشئ الإسلامي على احترام الخطابين اليهودي والمسيحي ليقطع بوعي مع كراهية "اليهود والنصارى".

وحدة مذاهب التفسير في القديم والحديث

التفسير ومذاهبه حتى القرن السابع : (..) "الأهداف : يرمي الدرس إلى الإبانة عن تاريخية التفسير ومنطلقات المفسرين من خلال أعمالهم. ويهتم - لتحقيق ذلك - بتحديد الحاجة إلى التفسير، وانقلاب التفسير إلى علم، وشرح اتجاهات التفسير والتأويل مع تعليلها بمشاغل شيوخها والأجيال التي ينتسبون إليها".

اتجاهات التفسير في العصر الحديث : (..) "الأهداف : يرمي الدرس إلى تعليل انشغال علماء المسلمين على الوجه الذي تأولوا به نص القرآن ويعتني بتفصيل مشاغل المفسرين وتعليل نظرهم والبحث في حداثة خطابهم ووجه استيعابهم لسوابق التفاسير".

وحدة الفقه وأصوله

نشأة علم أصول الفقه ومنزلته بين العلوم الشرعية : (..) "الأهداف : يعتني بأصول الفقه من حيث هي علم منظم للعلاقة بين العقيدة وسيرة المجتمع. ويهتم في تفصيل أصول الفقه بالحكم الشرعي وأقسام الخطاب ووجوه الاستدلال، ويستخرج من ذلك كله التفكير

الفقهي وتحديد منزلة أصول الفقه بين علوم القرآن وعلوم الحديث خاصة".

وحدة اللغة

الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الأسبانية أو التركية : (..) "الأهداف : يهتم بتعميق ما درس في السنة الأولى، والاهتمام خاصة بالتطبيق - من خلال النصوص - على المجال الديني".

اللاتينية أو اليونانية أو الفارسية أو العبرية : (..) "الأهداف : يهتم بتعميق ما اكتسب في السنة الأولى والاهتمام بالتطبيق على النصوص الدينية القديمة".

وحدة الفرق الإسلامية

(..) "الأهداف : يهتم بدراسة : 1- مركزية تلبس الكفر والايمان بالعامل السياسي-الاجتماعي، ب- الاختلاف في تأويل النص التأسيسي على قدر اختلاف الحاجة ؛ ج- مواكبة مقالات الفرق لتحولات المجتمعات الإسلامية ؛ د- منطلقات الفكر الإسلامي من خلال مقالات الفرق".
المصدر : النوبختي : فرق الشيعة ؛ الأشعري ؛ مقالات الإسلاميين.

وحدة التصوف

(..) "الأهداف : يهتم بدراسة التصوف الإسلامي من خلال التاريخ لنشأته وتعليلها، وتفصيل أصول مقالاته، وشرح تطورها وأهمية إجاباتها عن أسئلة المجتمعات الإسلامية على نحو من التأويل الخاص، والعبادة المتفردة، (..) ويستخلص موضع التصوف على اختلاف مظاهره وأطواره من مسيرة الفكر الإسلامي".
المصدر : ابن عربي، الفتوحات المكية ؛ الجنيد ؛ ابن الفرض ؛ الحلاج.

نلفت اهتمام القارئ إلى أن التصوف تعالجه معظم المناهج الدينية خاصة في الخليج كعودة إلى الوثنية، بينما التعليم التونسي يدرسه بموضوعية. ولا ننسى أن التصوف أزال عن الإسلام خاصة السني شيئا من جفافه وزوده بنفحة روحية طالما افتقدها.

وحدة الفكر الإسلامي الحديث

الفكر الإصلاحي في القرن 13هـ/19م ومطلع القرن 14هـ/20م : (..) "الأهداف : يهتم بنشأة الفكر الإصلاحي في تلك الفترة بالبلاد العربية الإسلامية، ويعتني بمقالات المصلحين مثل قابادو والطهطاوي وخير الدين والأفغاني والكواكبي وعبده ورشيد رضا والتعالبي والحداد، والطاهر بن عاشور والتيارات التي ترسمها مع الحرص على تعليلها وبيان أثر القيم الحديثة فيها".
المصدر : مختارات من كتابات المصلحين في هذه الفترة.

وحدة العلوم والفنون في الحضارة العربية الإسلامية

تاريخ العلوم في العهد العربي الإسلامي : (..) "الأهداف : يهتم في المسألة بتصنيف العلوم عن فلاسفة اليونان وتطور مدلول العلم عند مفكري العرب المسلمين ثم تصنيفهم للعلوم، كما يهتم بإبراز المقدمات الفلسفية التي تبرر ذلك التصنيف".

وحدة مدخل إلى اللسانيات

النظريات اللسانية في دراسة النص : (..) "الأهداف : يرمي الدرس إلى إبراز أهمية المشاغل اللسانية في علم الدلالة خاصة في فهم النصوص، ويتوسل إلى ذلك بشرح بعض النظريات اللسانية المهمة والكشف عن منطلقاتها الفلسفية والمعرفية ؛ والمأمول أن ينتبه إلى أهمية القضية اللسانية في تفهم النص الديني".
المصدر : ف. دي سوسير، دروس اللسانيات العامة.

ألفت اهتمام القارئ إلى الهدف المركزي من دراسة اللسانيات في التعليم الديني : "أهمية اللسانيات في تفهم النص الديني".

وحدة مدخل إلى دراسة القانون

مدخل إلى دراسة القانون : (..) "الأهداف : يهتم بنشأة الحاجة إلى المؤسسة القانونية، ووجه التشريع، وعلاقة القانون بالمجتمع، وخدمة القانون للحرية باعتبارها قيمة إنسانية، ثم يعتني بمصادر القانون التونسي المعاصر وتطوره".
المصدر : محمد الشرفي : مدخل إلى دراسة القانون. المؤسسات ونظام الحكم في الفكر الإسلامي (..)

وحدة الفقه وأصوله

المذاهب الفقهية التونسية : (..) الأهداف : يهتم بالتاريخ للمذاهب الفقهية بتونس، ويعتني بتعليل ظهور البعض منها وغياب البعض الآخر. ويدرس بعض من جوامع المسائل المتميزة في فقه المعاملات خاصة لاستخلاص ملامح التفكير الفقهي بتونس وتعليلها".
المصدر : سحنون : المدونة الكبرى ؛ ابن أبي زيد : الرسالة ؛ الزيلعي : تبيين الحقائق.

مواقف الأصوليين من الإجماع والقياس والعرف في الاستدلال على الأحكام : (..) "الأهداف : يهتم ببيان أهمية تلك الأصول بين سائر أدلة الأحكام، وتشرح مسائل الإجماع والقياس والعرف، في ما عليه الاتفاق وفيما عليه الافتراق، وتبرز حجة المختلفين، وتعلل بما يكشف عن منطلقات كل اتجاه، ويستنبط طرف من ملامح التفكير الأصولي في القديم".
المصدر : مختارات من كتب الأصول في الإجماع والقياس والعرف مثل لبن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ؛ الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام.

وحدة مباحث كلامية وقضايا فلسفية

"أفعال العباد" عند المعتزلة والحنابلة والأشعرية : الأهداف : يهتم بمقالات الفرق

الثلاث في أفعال العباد وتعلل بمشاغل المجتمع الإسلامي وقتذاك - والمأمول أن يقف الطالب على تطور كيفية الاعتقاد عند المسلمين، وتصور هذه الفرق بالذات لمنزلة الإنسان في الوجود، في المعاد وفي المعاش، وعلى تحديده لدلالة فعل الإنسان، مستندة في كل ذلك إلى تفسير أو تأويل النص القرآني".
المصادر : عبد الجبار : المغني (أصل العدل) ؛ ابن بطة الحنبلي : الإبانة ؛ ابن فورك : مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري.

مسألة الحرية في الفكر الفلسفي الحديث والمعاصر : (..) "الأهداف : يهتم بفهم الفكر الفلسفي الأوربي الحديث لمسألة حرية الإنسان وإرادته وأفعاله من خلال اسبينوزا وسارتر مثلا. ويستخلص : أ- اختلاف هذا الفهم عن طرح المسلمين القدامى لقضية الجبر والاختيار ؛ ب- القيم الجديدة التي ظهرت في الطرح الحديث ؛ ج- أثر الفهم الجديد في الفكر الإسلامي الحديث".

المصدر : نصوص مختارة من سبينوزا وسارتر.

الكتب الدينية المقدسة : (..) "الأهداف : يهتم بعقيدة النبوة في اليهودية والمسيحية وافسلام وشرح وجوه الاختلاف فيها وتعليلها".
المصدر : الكتاب المقدس ؛ القرآن.

ألفت نظر القارئ غلى وضع الكتاب المقدس والقرآن جنبا لجنب لإعادة تثقيف الوعي الإسلامي بالمساواة بين كتب الديانات التوحيدية الثلاثة التي تدرس في مناهج الدول العربية الأخرى ككتب محرفة لا قداسة لها ولا احترام لشعائرها إلا إذا أكدها القرآن.

حقوق الإنسان في الإسلام والتراث الديني والمواثيق الدولية والإقليمية : (..) "الأهداف : يرمي الدرس الى استخلاص صورة الإنسان المؤمن في الوحي الإسلامي من ناحية، وفي التراث الديني الكتابي من ناحية أخرى. والمأمول أن يقف الطالب على اهتمام الديانات كلها بالإنسان في حفظ حقوقه، وتحريره من كل القيود المانعة من أن يتحمل مسؤوليته الشخصية والمدنية. ويعتني كذلك بتقديم المواثيق الدولية والإقليمية في حقوق الإنسان واستخلاص ما يبررها من الأسباب الطارئة، وتحلل القيم الحديثة التي نهضت تلك النصوص بنشرها. والمأمول توعية الطالب بأن مسألة حقوق الإنسان مسألة جامعة ترتكز على قيم كونية، يتطلب إنجازها جهدا يوميا وثقافة مستديمة لا يتحقق بدونها الترقي الحضاري".
المصادر : القرآن، الصحيفة، الكتاب المقدس. حقوق الإنسان : الوثائق العالمية والإقليمية، إعداد محمود شريف بسيوني، محمد السعيد الدقاق ؛ عبد العظيم وزير.

وحدة الفقه المقارن

أحكام الأرض بين السنة والشيعة الإمامية : (..) "الأهداف : يرمي الدرس إلى شرح أحكام الأرض بين المذاهب الرئيسية، والفقه الشيعي الإمامي، وتعليلها بأوضاع المجتمعات الإسلامية وتفهمهم الإصلاح الاجتماعي على أساس من الاعتقاد والتأويل للنصوص القرآنية خاصة".
المصدر : مالك : الموطأ ؛ أبو يوسف : كتاب الخراج ؛ الطوسي : المبسوط.

وحدة الأديان المقارنة

التوحيد في الأديان الكتابية : (..) "الأهداف : يهتم بعقيدة التوحيد في اليهودية والمسيحية والإسلام، وتضبط التصورات المشتركة، والمتباينة مع تعليلها.

وحدة مباحث دينية مقارنة

النبوة بين الأديان الكتابية

وحدة التفسير المعاصر
والفكر الإسلامي المعاصر

لحداثة في الفكر العربي الإسلامي المعاصر : (..) "الأهداف : يهتم بإشكالية الحداثة في الفكر العربي الإسلامي المعاصر ببيان : أ- فلسفة الحداثة كما صاغها بعض المفكرين العرب المعاصرين. ب- اتجاهاتهم في طرح تحديث مجتمعاتهم. ج- منطلقات كل اتجاه في علاقاتها بفهم التراث والتحديات المعرفية الراهنة.

وحدة تاريخ الفلسفة الوسيطة

مدخل إلى الفلسفة السياسية في الإسلام : (..) "الأهداف : يهتم بتحديد محاور الفكر الفلسفي السياسي في علاقته بالمشكلات المطروحة على المجتمعات العربية الإسلامية آنذاك، مثلما يعتني باستمرار الفكر الفلسفي اليوناني في ثنايا الفكر الفلسفي السياسي الإسلامي.
المصدر : الفارابي : كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة.

وحدة علم الاجتماع الديني

مذاهب علم الاجتماع وإشكالياته ومناهجه في دراسة الظاهرة الدينية : (..) "الأهداف : يهتم بتحديد علماء الاجتماع للظاهرة الدينية، وبالمسائل الكثيرة التي يعالجونها تفسيرا لانفعال السلوك الاجتماعي بالعقائد الدينية، وتأثر المقالات الدينية في الألوهية والنبوة والوحي والمعاد وكمال الخلق بشؤون المجتمع ومقتضيات الاجتماع".
المصدر : دوركايم : الإشكالية الأولية للحياة الدينية.

وحدة المنهجية

منهجية البحث : (..) "الأهداف : يهتم بأربعة مشاغل كبرى : 1- تحديد صفة البحث العلمي والآلة التي يتوسل بها ؛ ب- استعمال المراجع الضرورية من معاجم ودوائر ومعارف وأصناف الأمهات (الطبقات، الرجال، البلدان..(؛ ج- تلخيص المقالات أو الكتب، وتحديد وجه الإفادة منها ؛ د- الإطلاع على فن تحقيق المخطوط".

وحدة تاريخ الفلسفة القديمة

الألوهية والعالم في الفلسفة اليونانية : (..) "الأهداف : يهتم بنظرية الألوهية وعلاقة الإله بالعالم في الفكر الفلسفي اليوناني، ويستنتج - من هذا المبحث - أثر الفكر اليوناني في الفكر الفلسفي الإسلامي.
المصدر : كتاب اللام لأرسطو (كتاب ما بعد الطبيعة)، شرح اللام من تفسير ما بعد الطبيعة : كتاب محاورة تيماوس لأفلاطون.

بعد هذه العينات من برنامج جامعة الزيتونة، يُلخص النموذج التالي لأحد نصوص الامتحانات في الجامعة الزيتونية أحد المحاور المركزية لفلسفة التعليم الديني في تونس ونتمنى أن تشكل أيضا أحد المحاور المركزية لفلسفة التعليم الديني في العالم العربي :

وزارة التعليم
جامعة الزيتونة
المعهد الأعلى لأصول الدين

امتحان السنة الجامعية 1998/1997
السنة : الأولى معمقة مشترك
مادة الاختبار : القرآن
الدورة : الرئيسية (ماي 1998)
الحصة 4 ساعات العدد الاقصى : 40

الموضوع :

تذكر أسباب النزول عدة روايات كانت مناسبة لنزول قوله تعالى "لا إكراه في الدين" (البقرة 256).

منها : أن رجلا من الأنصار كان له غلام .. وكان يريد إكراهه على الإسلام فرفع الأمر إلى النبي (ص) فنزلت.

ومنها : أن أنصاريا كان له ابنان تنصرا على يد تجار من الشام وهاجرا إليها فأراد أبوهما اللحاق بهما لردهما إلى الإسلام فنزلت.

ومنها : أن نساء الأنصار كن ينذرن إن ولدن ذكرا يجعلنه في اليهود أو النصارى(1) ابتغاء طول عمره فنشأت منهم ناشئة على ذلك فأراد آباؤهم إكراههم على الإسلام فرفع الأمر إلى النبي (ص) فنزلت. فقال (ص) : قد خير الله أصحابكم فإن اختاروهم فخم منهم وإن اختاروكم فهم منكم(2).

المطلوب :

تفهم هذه الروايات وتبين منها ما يكون مناسبة لتوضيح موقف القرآن من حرية التدين ومن مسألة الاعتراف بالآخر المخالف وحاول توظيف ذلك فيما تقتضيه الحداثة من الدعوة إلى إقامة "المجتمع المدني" وما يحتاج إليه من التسامح وتعايش تحقيقا لأمنه وضمانا لتقدمه وما تطمح إليه العولمة من التعامل على أساس تبادل المصالح دون النظر إلى لون أو جنس أو دين.

التوقيع : محمد التومي
[رئيس جامعة الزيتونة آنذاك ووزير الشؤون الدينية الآن]

(1)- كان بني النضير من يهود المدينة أولاد أبناء الصحابة ربوهم وهودوهم 383.
(2)- أنظر تفسير المنار : 117/1، 3/36 ومحمد عزة دروزة : التفسير الحديث 383/7.

هوامش :

1- Le Monde 29/07/1998
2- "التوحيد" أولى ثانوي من مداخلتي الباحثين السعوديين الشيخين إبراهيم السكران وعبد العزيز القاسم التي ألقيت في ملتقى الوطن السعودي الثاني في آخر سنة 2003. الأحداث المغربية
3- "توحيد" ثالث ثانوي نفس المصدر
4- نفس المصدر. الأحداث المغربية 2004/2/8.
5- نفس المصدر
6- نفس المصدر
7- نفس المصدر
8- نفس المصدر
9- ذ. خالد منتصر : "ليست أمريكا وحدها التي تطالب بتغيير مناهج ألأزهر، نحن أيضا نطالب" (إيلاف 2004/2/6)
10- نفس المصدر
11- راشد الغنوشي : "نحو مقامات مشتركة للمجتمع المدني" في الفصلية الباريسة

(مرايا) خريف 2002.
12- ابن تيمية : "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم" ص 33.
13- نفس المصدر ص 83.
14- نفس المصدر ص 87.
15- M. Panoffl Ethnologie p35.
16- العفيف الأخضر : "المقاربة العلمية للظاهرة الدينية" في كتاب جان بوتيرو : "بابل والكتاب المقدس" ترجمة روز مخلوف، دار كنعان، دمشق 1994.
17- د. اقبال العربي : "تطبيق الشريعة اليوم حرام"، الاسبوعية "حقائق" عدد 336 نوفمبر 1992.
18- الاسبوعية "المغرب" عدد 98، 1988/4/27
19- د. محمد عمارة "الأخبار" 2003/10/24

التعليم الديني اللاعقلاني
عائق لدخول الحداثة

تبدو الحداثة بما هي انخراط في المجتمع الدولي المعاصر باقتصاده المعولم والمتدامج وهيئاته الدولية التي اقتطعت لنفسها أجزاء بكاملها من السيادة القومية التي كانت إلي عهد قريب من اختصاص الدولة - الأمة الحصرى، وبقيمه الكونية التي لا يمر انتهاكها دون عتاب فعلي أو رمزي، رهاناً لكل مشروع مجتمعي جدير بهذا الاسم.

لم يعد دخول المجتمعات العربية للحداثة خياراً بين خيارات أخرى بل غدا الخيار والوحيد. المجتمع المدني والإعلام العالميان يطالبان به خاصة في ما يتعلق بالحداثة السياسية والقيمية : احترام المساواة بين الجنسين وبين المسلم وغير المسلم في حقوق المواطنة والدفاع عن الأقليات ونزاهة الانتخابات وضرورة التداول السلمي على الحكم واحترم حقوق الإنسان. الهيئات الدولية والدبلوماسية الدولية تفرضه فرضاً كلما تعلق الأمر بانتهاك غليظ للقانون الدولي أو لحقوق الإنسان أو للمصالح القومية للدول الكبرى وقطاعات متزايدة من السكان ترغب فيه بل وتعّول على التدخل الخارجي لفرضه علي حكومتها المستمرة في الاستبداد الشرقي المعادي للمرأة والآخر وحقوق الإنسان والمواطن والانفتاح على الحداثة سلوكاً ومؤسسات وقيماً. الدخول في الحداثة العالمية طوعاً أو كرهاً يتطلب قطيعة مع كثير من سلوكيات ومؤسسات وقيم الماضي التي لم تعد متكيفة مع متطلبات العصر وحاجات المواطنين الحقيقية. معايير عصرنا وحاجات مواطنينا تقتضي الانتقال من اقتصاد تتحكم فيه القوانين الشرعية إلى اقتصاد تحكمه قوانين السوق المضبوطة بمؤسسات وضعيه، ومن الحكم الفردي إلي دولة القانون، و من التفاوت "الطبيعي" بين الرجل والمرأة والمسلم وغير المسلم والمسلم من "الفرق غير الناجية" إلى المساواة بين الجميع في حقوق المواطنة وواجباتها، ومن اضطهاد الأقليات إلى احترام حقوقها تحت طائلة التدخل الخارجي، ومن الاحتكام إلى محكمة النقل إلى الاحتكام إلى محكمة العقل ومن عصر حقوق الله إلى عصر حقوق الإنسان، ومن ثقافة كراهية الآخر إلى ثقافة احترامه وحواره والتبادل الاقتصادي والثقافي معه، ومن التعصب الديني إلى التسامح الديني بل واحترام الحق في الاختلاف بما هو درجة أرقي من مجرد التسامح، ومن ثقافة اليقين الأعمى إلى ثقافة التساؤل والشك، ومن ثقافة الحقيقة المطلقة إلى ثقافة الحقيقة النسبية..

الدخول إلى الحداثة كرهاً تحققه الجيوش على غرار ما حدث في صربيا لإنقاذ سكان كوسوفو المسلمين من الإبادة وسكان صربيا من الحكم الفردي أو في العراق لإنقاذ العراقيين من غول المقابر الجماعية.. أما الدخول إلى الحداثة طوعاً فالمدخل إليه قرار سياسي عقلاني وشجاع يضع حداً للقوانين القروسطية الجاري بها العمل وللتعليم الديني

الظلامي أي المدرسة الدينية اللاعقلانية السائدة التي تعادي العقل وتعادي بالتالي الحداثة.

يقوم التعليم الديني في معظمه في البلدان العربية -باستثناء تونس- على القراءة التعبدية أي الإيمانية للنص الديني التي تستبعد القراءة العقلانية له التي لا تقبل من النص الديني إلا ما اتفق مع العقل ومصلحة البشر. النصوص الدينية المتضاربة مع العقل والعلم أو مصلحة المواطنين إما أن أحكامها تنسخ لأنها لم تعد متكيفة مع روح العصر وإما أنها تؤول بما يتفق مع العقل، لأن الله - كما يقول بن رشد - لا يمكن أن يعطينا عقولاً وشرائع مخالفة لها. القراءة العقلانية للنص التي دشنها، في تاريخ الإسلام، المعتزلة تأبى أن يكون الإنسان لعبة الأقدار بل تعتبره حراً مسؤولاً "خالق أفعاله" كما يقول المعتزلة وعقله كفيل بهدايته إلى معرفة ما هو قبيح وما هو حسن : ما هو خير وما هو شر أي تمرير القيم على محكمة العقل.

عاملان قويان يناضلان ضد دخول المجتمعات العربية إلى الحداثة قادة الإسلام الظلامي والتعليم الديني الظلامي. قادة الإسلام الظلامي باعتبارهم يمثلون الاتجاه المضاد للاتجاه التاريخي إلى الحداثة يرفضون العقلانية الدينية التي تعقلن النص الديني بالتأويل، باسم القراءة الحرفية للنص التي تبناها في تاريخ الإسلام الخوارج والحنابلة والسلفيون المعاصرون. يقول راشد الغنوشي : "موقف المسلم إزاء النص ليس المناقشة أي موقف الند والمحاور والمجادل وإنما يكون موقفه : سمعنا وأطعنا (..) فدور العقل اكتشاف معنى النص، فالنهج الأصولي لحركة الاتجاه الإسلامي متأثر بهذا المنزع "السلفي" الإسلامي الذي يؤكد على أهمية النص وعلى منع التلاعب به أو التحكم فيه من خلال التأويل العقلي الذي لا يؤمن أن يكون متأثراً بضغط الغرب أو ما يسمي بـ "الحداثة" المتغربة عن عقل المسلم" (الفصلية الباريسية "الإنسان" عدد فبراير 1994).

بدوره يفبرك التعليم الظلامي السائد أجيالاً، لقنت النص وحرّمت على نفسها التفكير الشخصي فيه. فلا تقرأه إلا بغرائزها العدوانية ومخاوفها اللاعقلانية واسقاطاتها الذاتية وأهوائها الدينية السياسية. وهؤلاء هم الإرهابيون الإسلاميون وجمهورهم البائس ثقافياً ونفسياً وجنسياً قبل أن يكون بائساً مادياً.

القراءة النصية، الظلامية أي اللاعقلانية للنص تخلق حاجزاً نفسياً بين الوعي الإسلامي وبين الحداثة بل، تحول ضحاياها إلى فصاميين وعظاميين، هذاة لا يرون من حيثما يتلفتون إلا "اليهود والنصارى وعملاءهم العلمانيين" المتآمرين على الأمة الإسلامية التي يحاصرونها من الداخل والخارج طبق رؤيا الإخوان المسلمين التي غلغلوها منذ 1928 في الإعلام والتعليم. يقول خريج مدرستهم الدينية ومدرستهم الحزبية أيمن الظواهري : "حينئذ [عندما يبدأ الجهاد ضد أمريكا] سيقع الزلزال الذي يرتجف الغرب منه ألا وهو قيام دولة الخلافة الإسلامية في مصر، فتصبح مصر قادرة على قيادة العالم الإسلامي في جهاده ضد الغرب. ويلتف حولها مسلمو العالم كله، وعندئذ سيدور التاريخ -إن شاء الله- في الاتجاه المعاكس ضد إمبراطورية أمريكا وحكومة اليهود العالمية" (فرسان تحت راية النبي ص 46) وعندما يتحدث عن انتحاريي القاعدة يقول : "فتكون لدى الشباب المسلم وعي واسع وإدراك أعمق بالمؤامرة المحاكة وفهم شرعي تجاه أعداء الإسلام الخارجين وعملائهم في الداخل" (نفس المصدر ص 6).

نفس السمات النفسية-الدينية ملحوظة بنفس القوة في خريج المدرسة الدينية الظلامية بن لادن : "استطاع اليهود أن يوجهوا النصارى من أمريكا وبريطانيا(..) لضرب

العراق" (حديث مع الجزيرة). في خطبه عيد الأضحى هذه السنة قال أيضاً : "الأمة موعودة بالنصر أيضاً علي اليهود كما أخبرنا رسول الله (ص) حيث قال : لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعالى فاقتله، إلا الفرقد فإنه من شجر اليهود". وهكذا ردد بن لادن الكهل ما، لقنه بن لادن الطفل على مقاعد المدرسة السلفية النصية. فهذا الحديث موجود في كتاب "الحديث" للصف المتوسط ص 122.

يفسر الكتاب الدرس للتلاميذ هكذا : "لا تقوم الساعة : لا تقوم القيامة، الفرقد : شجر كبير فيه شوك واليهود يكثرون من زراعتها في فلسطين في هذا العصر" وهي كذبة على صغار السعوديين بحجم جبل أحد! ثم يضيف الدرس شارحاً معني الحديث :

1 - "من حكمة الله تعالى استمرار الصراع بين المسلمين وبين اليهود إلى قيام الساعة".
2 - دل الحديث على بشرى المسلمين بنصر الله لهم على اليهود في النهاية وهي من علامات الساعة.
3 - انتصار المسلمين لأنهم على حق، وصاحب الحق منتصر دائماً، ولو كان الناس ضده".
4 - يكون نصر الله تعالى للمسلمين إذا صدقت نياتهم، واتحدت كلمتهم، وتمسكوا بشريعة ربهم، والتزموا أحكامه، وصبروا وصابرا.
5 - لا تكفي القوة المادية وحدها من أجل النصر، لكن لابد من التوكل على الله تعالي والاعتماد عليه.
6 - من كان مع الله دائماً كان الله معه ولو مرت به بعض المصائب والمحن فالعبرة بالنتيجة وبالخاتمة.
7 - اليهود والنصارى أعداء المؤمنين ولا يمكن أن يرضوا عن المسلمين فيجب الحذر منهم" ثم ينتقل الكتاب إلى "أسئلة للمناقشة والواجب" أولاً : أسئلة المناقشة :

س1 بم بشر رسول الله (ص) في هذا الحديث؟

س2 ما اسم الشجر الذي لا يخبر عن اليهود؟

س3 لمن تكون الغلبة في آخر الزمان ؟

س4 بم يجب أن يتسلح المسلمون ضد اليهود؟

ثانياً أسئلة الواجب :

س1 هل يرضى اليهود والنصارى عن المسلمين ؟ ولماذا ؟

س2 ما الفرقد ؟

س3 أذكر أربعة عوامل لانتصار المسلمين على أعدائهم ؟" (نفس المصدر ص 123).

هذا الدرس النموذجي في المنهاج السعودي يغسل أدمغة التلاميذ غسلاً من كل شبهة عقل

يمكن أن تلتصق بها. بمعنى الحديث - 3 - يلقن التعليم الديني اللاعقلاني الصغار منذ نعومة أدمغتهم اللاعقلانية السياسية : حسبك أن تكون على حق لينصرك الله دائماً ولو كان ميزان القوي ضدك! وفي المعني السابع يزرع فيهم بذور ثقافة الكراهية لليهود والنصارى وبذور عقدة الاضطهاد "فيجب الحذر منهم"!

مثل هذا التعليم الظلامي الذي يدافع عليه قطيع عريض من المثقفين بمن فيهم بعض "المستنيرين لا لشيء إلا لأن الأمريكان طالبوا بتغييره بعدما طالب بتغييره كاتب هذه السطور بثماني سنوات (انظر الحولية "قضايا فكرية" التي يصدرها محمود أمين العالم ص 59 سنة 1993) (انظر"الحياة" 1/ 11 / 1997 مثلاً لا حصراً).

التعليم الديني في البلدان العربية الأخرى - باستثناء تونس- يختلف عن هذا التعليم الديني الظلامي في الدرجة لا في النوع لأن الجذر التربيعي المشترك هو اللاعقلانية الدينية الخارجية-الحنبلية-السلفية. وزير حقوق الإنسان في الحكومة المغربية، محمد أوجار، امتلك الشجاعة ليعترف : "بأن البرنامج الوطني للتربية بحقوق الإنسان أصبح يكتسي طابعاً استراتيجياً بعد وقوع الاعتداءات الإرهابية في الدار البيضاء [16 ماي 2003] لأنه مع مساءلتنا لهذه الاعتداءات وبحثنا عن الأجوبة المناسبة للرد عليها ينبغي أن ننتبه إلى أن هناك أفكاراً ظلامية اخترقت جسمنا التعليمي والمناهج الدراسية في المؤسسة التعليمية" (الأحداث المغربية : 2003/6/10).

أصاب محمد أوجار فتدريس حقوق الإنسان في المغرب وفي جميع البلدان العربية -على غرار ما فعلت تونس منذ ثماني سنوات-"أصبح يكتسي طابعاً إستراتيجياً" كما قال الوزير المغربي. تدريس حقوق الإنسان التي تعترف لكل إنسان، بقطع النظر عن الانتماءات الخصوصية الجنسية والدينية، بالحق في الحياة والحرية والكرامة والمساواة التامة رهان إستراتيجي في العالم العربي الذي يمحو فيه فقه القرون الوسطي شخصية الفرد محواً ولا يعترف له بأي حق من حقوقه الأساسية ويفرض عليه فضلاً على ذلك إلغاء قيمة القيم : عقله. ليقول أمام النص الديني "سمعنا وأطعنا" وأرسلنا العقل في أجازة طويلة !

إذا كانت حركات الإسلام السياسي تكفيرية وتتدخل في حياة الإنسان الشخصية : في لباسه (الحجاب والنقاب) وفي مأكله ومشربه ومنكحه وتفكيره وتعبيره وتفتش قلبه وتسائله عن معتقداته وقيمه وأسلوب حياته فهي لم تفعل شيئاً غير تطبيق وصايا فقه القرون الوسطي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.طبعاً كان فقه القرون الوسطي المتعصب يتدخل في الشاردة والواردة لأن تلك القرون لم تعرف حقوق الإنسان ولم تعرف ميلاد الفرد الحديث وكانت الحياة جزء من الدين.. أما منذ الحداثة فقد ظهر الفرد الذي يطالب بتقرير مصيره في الحياة اليومية بعيداً عن عين الشيخ التي لا تنام وغدا الدين جزء من الحياة وامتلك الإنسان حرية الضمير والاعتقاد فبات من حقه أن يتدين بأي دين يشاء أو أن لا يأخذ بدين من الديانات.

هذه المستجدات الحديثة الهائلة استوعبها بدرجات متفاوتة التعليم الديني في العالم إلا في العالم العربي فما زال منغلقاً دونها. من هنا ضرورة استبداله بتعليم ديني تنويري يستوعب هذه المستجدات فيتصالح مع الحداثة. إذا كان التعليم اللاعقلاني السائد، يعرف الآخر ك "كافر" "مخالفته فرض وواجب" وتالياً مخالفة حداثته الكافرة هي الأخرى ويعرّف المرأة بأنها "ناقصة عقل ودين" فعلى تعليم العقلانية الدينية المنشودة أن يعيد تعريف الآخر والمرأة إيجابياً. هذا يتطلب تعويض الآيات المعادية للمرأة بالآيات غير

المعادية لها. لماذا ندرس الصغار "واهجروهن في المضاجع واضربوهن" بدلاً "خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة"؟. ولماذا لا نعتبر الآيات والأحاديث المناهضة للمرأة والمتعارضة إذن مع حقوق الإنسان منسوخة بهذه الحقوق الملزمة والملبية لحقوق المرأة الأساسية؟ بالمثل على هذا التعليم البديل أن، يعيد تعريف غير المسلم، خاصة اليهودي، والمسيحي، إيجابياً. فلا يعود "كافراً" ليس من مخالفته بد بل يغدو شريكاً في القيم المادية والرمزية عبر شراكات اقتصادية وعلمية وثقافية إقليمية وقارية وعالمية تتطلبها العولمة التي حكمت بالإعدام على الانطواء على الهوية الدينية أو القومية وفرضت تبعية، متبادلة بين جميع الأمم وتدامجاً اقتصادياً وثقافياً وقيمياً لا مفر منه. بإمكان العقلانية الدينية الإسلامية أن تنطلق من ثلاث آيات "أمميه" سوت بين جميع الأديان المعروفة يومئذ "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والمجوس والذين أشركوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة" (17 الحج) إرجاء الحكم الفاصل بينهم إلى يوم القيامة وتالياً إعطاء الله -لا الإنسان- حق البت فيه. و"إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى ومن آمن بالله واليوم الآخر وعمل عملاً صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون" (69المائدة) وتكررت هذه الآية حرفياً في سورة البقرة سوى أن أسم إن كان فيها منصوباً حسب القاعدة. هاتان الآيتان الأخيرتان تسويان إيجابياً بين جميع المتدينين الذين "لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

فقهاء القرون الوسطى المهووسون بالنرجسية الدينية وبـ"الجهاد إلى قيام الساعة" زعموا أن هاتين الآيتين منسوختان بالآيات التي تنصب الإسلام ديناً فوق الديانات والوحيد الصحيح أما الديانات الأخرى فهي "باطلة ومهلكة لصاحبها" كما يزعم محمد بن عبد الوهاب.

متطلبات زماننا تقتضي اعتبار الآيات "الناسخة" للآيتين هي المنسوخة بهما لأن الآيات الأخرى سجالية إذن ظرفية تزول أحكامها بزوال أسباب نزولها. في سياق هذه القراءة التاريخية الضرورية لتعليمنا الديني المنشود اعتبر الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار "آيات السيف" منسوخة بالتاريخ أي مقتصرة على مشركي ويهود ونصارى الفترة التي نزلت فيها. وكذلك اعتبرها خلفاء المسلمين في عهود الإسلام الزاهرة عندما أشركوا اليهود والمسيحيين معهم في الحكم كوزراء ومستشارين. عندما أنشأ المأمون دار الحكمة عين المسيحي حنين رئيساً لها والحال أنه لا يوجد اليوم يهودي أو مسيحي واحد يرأس جامعة من مئات الجامعات في العالم العربي ! لماذا

؟ لأن التعليم الظلامي فعل مفعوله والإسلامويه بدون إسلامويين سادت هذا العالم العربي الغبي.

غياب الفكر النقدي من التعليم العلمي يعطي الإرهاب

مقال جمال هاشم "طالبان في المدرسة الحسنية لتكوين المهندسين من علوم البناء الحضاري إلى أفكار الحقد والهدم" بالغ الأهمية (الأحداث المغربية 2003/4/29)، تعجب جمال هاشم من واقع أن بعض كليات الطب ومدارس الهندسة وكليات العلوم ومنها "المدرسة الحسنية" تخرج "طالبان مغاربة" لم تعصمهم معرفتهم بالعلوم الدقيقة من السقوط في كراهية المخالفين لهم في الدين والفكر والجنس والحضارة الغربية والحرية والديمقراطية وثقافة التسامح وحقوق الإنسان وحرية المرأة والطفل ومفاهيم الاختلاف والتعددية فهي كما يقول جمال هاشم مرفوضة من مهندسي "طالبان" المغاربة مضيفاً "إن مهندسي المدرسة الحسنية يدرسون مادة الكيمياء والفزياء ولهم دراية بصنع المتفجرات وسيتحملون غداً مسؤولية الإشراف على مخزون المتفجرات الضرورية لشق الطرق وبناء السدود".

حقاً إنه لخليط متفجر من المعرفة التقنية والتعصب الديني يهدد المغرب والإنسانية بخطر داهم وعن صواب يلفت جمال هاشم نظر الأمن إلى هذه المخاطر المتوقعة. قد يكون الحل الأمني مجدياً في العاجل لكن ماذا عن الآجل؟

أولاً، لا عجب أن يكون طلبة العلوم متأسلمين فحوالي ثلث قيادات وكادر الحركات الإسلامية المتطرفة هم من خريجي المدارس والكليات العلمية : رابح كبير، ممثل الجبهة الإسلامية للإنقاذ في ألمانيا، فيزيائي وأيمن الظواهري طبيب وبن لادن مهندس. لماذا؟ لأن العلم لا يعطي معني للحياة. فقط الدين والفلسفة هما اللذان يعطيان معنى للحياة. كيف؟ يعطي الإنسان لنفسه بالدين معنى لحياته بعد الموت، يلبي رغبته النرجسية في الخلود في حياة ثانية. لذا علل فرويد عدم تحول الديانة اليهودية إلى ديانة كونية بكونها ليست ديانة خلاصية - على غرار المسيحية والإسلام - تلبي رغبة الكائن البشري النرجسية في الخلود. ففي اليهودية لا خلاص بعد الموت.

يستطيع المرء بالفلسفة أن يعطي معني لحياته في الحياة لا بعد الممات بجعل حياته تمريناً دائماً على حياة فاضلة تتقيد بالقيم العقلية والإنسانية فلا تنتهكها ولا تسكت عن انتهاكها. وهكذا تتقبل الموت دون جزع باعتباره نهاية محتومة لرحلة الحياة. أو كما قال أحد الفلاسفة : "أن تموت هو أن تترك مكانك للذين يولدون".

في الواقع، العلماء المعاصرون في العالم قلة منهم من المتعصبين دينياً وغالبيتهم فلاسفة. من الغزالي إلى سيد قطب مروراً بابن تيميه كفّر الفقهاء الفلسفة لكنهم لم يكفروا العلوم

الدقيقة. فالغزالي وان تيميه مثلاً يقولان بأن فلاسفة اليونان محقون في نظرياتهم العلمية لأنها يقينية ومخطئون في [الإلهيات] (= الفلسفة) لأن معرفتهم فيها ظنية، وسيد قطب كتب في ''معالم في الطريق'' : "الفلسفة وتاريخ الأديان المقارن وعلم الاجتماع.. كلها علوم ''معادية للدين عامة وللإسلام خاصة''. ولكنه كسلفيه الغزالي وابن تيميه لم ير حرجاً في دراسة الكيمياء والفزياء والطب.. إلخ.

حتى لا تخرج مدارسنا وكلياتنا العلمية (طالبان) علينا أن ندرس طلبتها -وقبل ذلك تلامذتها - الفكر النقدي لتعليمهم التساؤل والشك اللذان يجعلان جميع الأطروحات تقف أمام محكمة العقل لمساءلتها عن شرعيتها العقلانية.

هذا ما وعته النخبة التونسية منذ بداية التسعينات فجعلت الفلسفة (= البرنامج الفرنسي) تدرس في السنتين الأخيرتين من التعليم الثانوي، وأدخلت تدريس الفلسفة الحديثة إلى جميع الاختصاصات بما فيها المهنية. في الطب، يدرس الطلبة الفلسفة طوال ست سنوات. وهكذا جففت بالمدرسة العقلانية ينابيع التعصب والإرهاب التي تغذيها المدرسة السلفية التي مازالت سائدة في العالم العربي.

في التعليم الديني العالي يدرس الطالب في جامعة الزيتونة فضلاً عن الفلسفة وحقوق الإنسان تاريخ الأديان المقارن وسسيولوجيا الأديان وعلم النفس والألسنية التي تساعده جميعاً على فهم الظاهرة الدينية فهماً تاريخياً وعقلانياً . وهو ما يشكل سلاحاً فكرياً ضارياً ضد التعصب والإرهاب، الإبنين الشرعيين لمقاربة النص بالنص أي تفسير الدين بالدين، لا بعلوم الحداثة وفي مقدمتها تاريخ الأديان المقارن.

عسى أن تستلهم النخبة المغربية، التي انخرطت في تحديث الإسلام منذ المدونة الجديدة، التجربة التونسية لصالح شعبها وصالح الإنسانية وما ذلك عليها بعزيز.

http://www.yassar.freesurf.fr
yassarweb@gmail.com